الطبعة الثالثة



ستريتش

نضال كرم

رواية

ستريتش

رواية

نضال كرم



ليليت للنشر والتوزيع

نضال كرم

ستريتش

رقم الايداع / ١٠٨٠١ /٢٠١٥ ط٣

الترقيم الدولى / ٤ - ٧٦ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

طبعة أولى يونيو- الإسكندرية ٢٠١٤

طبعة ثانية أكتوبر - دمشق ٢٠١٤

طبعة ثالثة يونيو - الإسكندرية ٢٠١٥

غلاف الفنان / رائد خليل

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيزق

أ/ محمود السيد

المراسلات : ٦٠ ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

إلى المستائين

إنظروا إلى مرايا كم ..

الغضب وحده لا يكفي

(١)

بريقٌ في عينيها، جَذبني، على نحوٍ لم أعهده، عطرُ روحِها الأخّاذ، أتاح لحواسي أن تتجاوز المرئي، لتروي تربةَ إحساسي، بعدما انفلتَ غيمُ الفرحِ وتاهَ بعيداً عن سمائي، بتُّ مُهتمّاً لوجودِها، وحريصاً على تبادلِ أطرافِ الحديث معها، رغم ضيقِ الوقتِ الذي يسمح لي بذلك، بُعيدَ انتهائي من تقديم محاضراتي في التقديم الإذاعي .

سحرٌ خاص تمتلكه، أضفى على روحي بريقاً آسراً جذب أحدنا للآخر، الوقت الذي أمضيه معها قصير، لكن شيء ما استرعى انتباهنا، بِتنا نَتقصَّدُ الجلوس بضع دقائق في غرفة المحاضرين، وفي وِقْفةٍ قصيرةٍ أمام سيارتها بعد محاضرة اليوم الأخير من الدورة، بُحتُ لها بما أكابده في حياتي، لا أدري كيف حدَّثتها عن زواجي التّعِس .

" عِشْ الحياة كما تريدها أنتَ أن تكون، لا كما تُفرَض عليك "

عبارتها تلك جعلتني أفكّرُ مَليّاً بما تقوم عليه حياتي، تَثبّتَ لي أيُّ حماقةٍ ارتكبتُ بزواجي من روزالين، سوءٌ في الاختيار وفشلٌ في وضع الثقة بغير محلِّها . يبدو واهمًا من يعتقد أنه قادر على إحداث تغيير ما في إنسان يريد أن يقترن به .

ستة أشهر مرت، بَدتْ خلالها كدجاجةٍ تُعفِرُ برجليها الرماد المتجمِّع بعد حفلة شواء قديمة لتسكن إليه وتضع بيضة مشوَّهة، سرعان ما ينقضُّ الديك على من يحاول الدنو من البيضة ليسرقها، فيما الدجاجات تقترب الواحدة تلو الأُخرى لترى الديك وقد انفرد بصياح وكأنه على مزبلة .

كنتُ أخفقتُ في اتخاذ قرارٍ بتبنّي عنوانٍ برّاقٍ في الحياة، يدعو إلى الفرح، فيما كان مَنْ يؤدّي الدورَ يحاول إغراقي في أتون الوهم زاحفاً في سراديب الخديعة والغش .

ستة أشهر تَكشَّفَ لي خلالها الزيف والكذب، وما أمرّهُما حين يُكشفان من زوجٍ مخدوع .

أيُّ غشٍ وقعتُ في جُبِّه المظلم بعدما بانَ الفراغ العقلي كشمسٍ مُمتلئةٍ بعتمٍ مفضوح، بدا الحوار مع روزالين أشبه بصياح الديك، خواءٌ فكريٌّ أملس، وصَمتٌ أخرقٌ يجعل من عينيها مَغارتين يطفح منهما رماد الغباء بعد ثلاثين عاماً من عمرها، لِتَذره في عينيّ في اليوم الخامس بعد الزفاف، ورغم ذلك ما استكنتُ أو استسلمتُ، حاولتُ مراراً أن أكتشفَ نقطةً مُضيئةً أستطيعُ من خلالها إحداثَ تغييرٍ ما وسط الظلام العميم، أو أن أدعوها إلى الإنصات لي لنكتشفَ معاً سبيلاً نُلملِمُ فيه نِثارَ ما يُدعى "العقل" لكن محاولاتي تبوءُ بالفشل على الدوام لعدم استجابتها حيناً، ولخضوعها لسطوةِ الفراغِ الفكري القاتل أحياناً أخرى، تأكّد لي أنها كثيراً ما استنفرتْ لتجالسَ الجدّات وتُنصِتَ لوصفاتهنَّ الخائبة في حكاياتهنَّ

التي لم تكن لتتوافق مع عالمي .

الانطباع الأول هو الأصدق دوماً، فلماذا كذبتُ على نفسي وأنكرته ؟

سؤالٌ بَرَقَ كنصلِ السكين تحت الشِمس لحظة وَدَّعتني ألما ملوِّحةً بيدها .

استدرتُ لأستقلَّ سيارتي، ثَمَّةَ كلماتٌ ارتسمتْ على زجاجها الأمامي لحظة اتخذتُ مكاني وراء المقود، في الوقت الذي تنبّهتُ فيه إلى ما أحدَثَهُ صَخَب من في الشارع برأسي من تشويش، وتساءلتُ هل الضجيج ما عكَّر صفوي أم تلك الصور المتقدِّمة نحو مركز الطمأنينة فيَّ فأنتجتْ نقطة ضعف استقرّتْ قبل أن يُغطّي الغُبارُ ذاكرتي ؟!

" إنْ لم ينتج عن الكذب ضررٌ .. كان مَقبولاً " جملة كثيراً ما ردَّدها صديقي " شهيد " .. ولماذا أتذكَّر مقولته تلك الآن ؟! .

أبقيتُ صورته ماثلة أمامي، واتجهتُ صوب بيته، شهيد .. درس الفنون الجميلة وعَشِقَ الفن بعدما اكتشف المحيطون به جمال صوته وعمق إحساسه، لكنه اضطرَّ لوقف نشاطاته الفنية وإجهاض تجربته الغنائية بعد عدة محاولاتٍ منه لثني والده عن قراره بتحريم الغناء عليه، فاستسلم لئلا يمسّه الغَضَب .

رضخ شهيد لهذا القرار رغماً عنه، امتهن العمل في تجارة السيارات، وابتعد عن مجال دراسته وعشقه للفن .

ردَّدتُ الجملةَ لأحفظها من لعنة النسيان، فما يعتبره الآخرون نعمة أجده نقمة، والنسيان لعنة ما فارقتني يوماً، لدى توقُّفي أمام حاجز تفتيش دوَّنتُها في جهازي المحمول : " جَميلٌ أنْ تَغسلَ ضميرَكَ بدمعة، لكن الأجمل أنْ تتوقى هَذَرَ دموعك " .

نظرتُ إليه بعتبٍ مُفتَعلٍ عندما فتح لي الباب بعد طرقٍ عنيفٍ مُتلاحِقٍ أيقظه، رمقني وهو يعرك عينيه وبالكاد همس بصوت خفيض : " أنت ؟!! " مشى أمامي متباطئاً، تمطَّى، كمن يحاول استعادة وعيه، بعد رحلة شاقة في أغوار روح شرَّدها شريط إخباري في مسالك ما يراه النائم المتهالك، اتجهتُ صوب المطبخ لأعدَّ فنجانين من القهوة ريثما ينتهي من رشق وجهه بقطراتٍ تُضيّع غفلتَهُ عن واقع سقيم، سرعان ما بادلني نظرة العتب، لكن بجدِّية مُفرطة بعد نُطقي بما أردتُ صونَه من النسيان، زفر بعمق مُعبّراً كعادته عن رأيه بإجادتي صوغ الحِكَم دون الأخذ بها أو العمل بمضمونها، بالكاد استطاع صوته الانفلات من جوف بئر فمه : " أسرعْ وانشرها في صفحتك على Facebook قبل أن يتلقَّفها النسيان " .

كانت عبارته تلك مُحرِّضاً له لقول المزيد مما لم أُكن مُستعِدًّا لسماعه الآن، حسبتُ أنَّ ماءَ البئرِ مُحمَّلٌ بفيضِ ألغاز .. فلِمَ الادِّعاء بأني أستوعبُ منه ما يريد ؟! .

بدا وكأنه قرأ فكرةً دَهمتني، كان واقفاً على بُعْدِ خطوة من الشرفة، وقد أخفى وهجُ الشمسِ المقتحِمِ في خطٍ ثابتٍ الصالون .. وجهَهُ، أتبعَ بالقول :

لستُ كما تظن، يأخذني ظَنُّك في دربٍ وعرة أُدِركُ خطورتَها، لذا تراني أبتعدُ عنها لأؤكدَ لكَ أني لستُ مَمسوساً ولا السحرُ بقادرٍ على جَعلي مجنوناً، بل أنا مَفتونٌ بما يجعلني أؤكدُ إنسانيتي وتَوقي لفعل الخير، وإنْ لم يفهمني ذاك الذي أحبه، سوف يُثمِن وقوفي إلى جانبه في وقتٍ لاحِق، عاوِدِ التفكير فيما تبني عليه ظنَّكَ يا قيصر.

استَجْدَتْهُ دمعة ذَرَفتْها عيني، كلام روحه يؤثر فيَّ أيّما تأثير، وما الدمعة إلا من فرط تأثُّري بما يقاسيه، تسلَّلَ سهمٌ من الوهج المتنامي ليصيب الدمع لحظةَ أمسكَ بمرآةٍ صغيرةٍ ليرنو إلى وجهه، بصعوبة قلتُ له :

- هذا ما لم يستطع أحمد تحقيقه لاختلاف أهداف كل واحد منكما، حتى لو غسل ضميره مرات ومرات، لن يتَّقي هَدْرَ دموعه، أما دمعي ..

قاطعني قائلاً بندِّيَّة واضحة :

- أدركُ ما تقصد.

- قلتُ عبارتي تلك لأُسقِطَها عليه وحده، ولْتَخرج بعدها من حساباتي لتدخل حساباتك الرابحة دوماً لخيرِ ما ترمي إليه، حساباتي المتآلفة مع ما أتوقعه من الآخرين تجاهك يا شهيد.

استرخى على الكرسي الهزَّاز، نفثَ دخان سيجارته وهو يقول :

• الكثير ما تُفلِحُ في قوله وكتابته عن غيرك، تراهم لا ينتفعون منه، وأنت تدرك يا قيصر، كثيراً ما أغوتني درَّاجة العمر، وبدوتُ طيلة مكوثي على خشبة مسرح الحياة، مُترعاً بغناء أنشودتي المشعَّة، تجوَّلتُ بدراجتي مُسدِلاً ستائر الخيبة المعقودة على الجدران البلَّورية المذهَّبة الأطراف، كنتُ الحارس الأمين لشيخوخة الممارسات اليومية باهظة الملل .

انتفضَ واقفاً بحركة سريعة ليتجه نحو مكتبته، تناول كتاباً من أحد رفوفها، قلَّبَ صفحاته ليستقرَّ على مقطعٍ أراد أن يُسمِعَهُ لي، كان من رواية غابرييل غارسيا ماركيز " ذاكرة غانياتي الحزينات " :

" اكتشفتُ، أنني لستُ مُنضَبطًا بدافع الفضيلة وإنما كردِّ فعلٍ على تهاوني وتقصيري، وأنني أبدو سخيّاً لكي أواري خِسَّتي، وأنني أتظاهر بالتعقُّل والحذر لأنني سيء الظنون، وأنني أميل إلى المصالحة كيلا أنقاد لنوبات غضبي المكبوحة، وأنني دقيق في مواعيدي لمجرد ألا يُعرَف مدى استهانتي بوقت الآخرين، واكتشفتُ أخيراً أنَّ الحبَّ ليس حالة روح وإنما هو علاقة بروج فلكية " .

أردفَ بسؤال بدا وكأنه تتمة لما قرأه لي :

• " إلى أي حدٍّ يُشبِهُنا هذا القول ؟ "

ذُهلتُ، وخرجتُ من بيت شهيد مُرتَدياً صمتي .

(٢)

ما يهزُّ العرشَ سيأتي عليه يومًا، ويُحطِّمه .

أوضحتُ ذلك لروزالين مراراً، بعد تفاقم المشكلات فيما بيننا، خاصة بعد المشاجرة الأعنف التي حدثت مؤخراً، إذ هَبَّتْ على إثرها عاصفةٌ أطاحتْ بما تبقَّى من سكينة في روحي .. فتشظَّتْ، ما استدعى مني أن أطلبَ من أبيها وأخيها أن ترافقهما، لأتمكَّنَ من ترميم ما تَصدَّعَ في روحي .

حينما رافقتهم إلى الباب مُودِّعاً، صوَّبتُ نحوها سهمَ نظرتي القاسية مُسائِلاً روحي عما إذا كانت اطمأنَّتْ يوماً معها، بكتِ الرُّوحُ وأبتْ أن تسلِّم بديمومة الحياة معها، تفوَّهَ الأخُ بجملة تردَّدتْ مُدوّيةً في أذني : " اعتبرها خادمة لديك وأَبْقِها في بيتك " .

أطبقتُ الباب حين كانت تُنهي عبارتَها الممجوجة التي تُحمِّل فيها قادمات الأيام ما عجزتُ عن تحقيقه خلال ستة أشهر، حتى ما ذرفته من دمع لحظة خروجها اكتسى بالإثم والزيف، لم يعد هذا المكان يخصُّها في شيء، بعدما غدتْ أكثر بُعداً عني وأقبحَ صورة لما آلتْ إليه حياتنا معاً، لم يكن الحب ما جمعنا، بل رغبة في الزواج لا أكثر، أرادتْ بزواجها مني

مستقبلها، وأردتُ بانفصالي عنها .. الحياة .

في كل مرة، أصلُ معها إلى نقطة النهاية، تُعيدني إلى نقطة البدء، كأني لم أنطق بحرف، وكم كان الصمت لغة أتقنتها لكي تُداري ما برعتْ به، كأنما يَمسُّها الشيطان إذا ما نطقتْ بصدق، وإذا تحدَّثتُ إليها في أي أمر، كان الإيجاب منها دونما صوت، في كل صغيرة أكتشفُ الكذب تاجاً فوق رأسها، يُطِلُّ برأسه بغتةً ليسترخي ويتمدَّد في مكان لا إرثَ له فيه، وما كان كذبها إلا حُبّاً به، لا لمأزقٍ وُضِعَتْ فيه، ولا لظرفٍ فُرِضَ عليها، بل هذا ما كانت قد جُبِلَت عليه وقد سرى مع الدم في عروقها، ومن يكذب في صغائر الأمور يكذب في كبائرها، وقد ارتكبتْ الكثير .. قُبَيل الزواج .

أمسى الفرارُ نتيجة منطقية بعد كلِّ ما خُضتهُ مُحاوِلاً إحياءَ ما وُلِدَ مَيْتاً، زادَهُ قُبحاً ما تفوَّهَ به الأخ الصنديد، كانت عبارته كنصلِ سكينٍ قطعَ بها حبلَ الوريدِ لما سُمِّيت مَجازًا " الحياة الزوجية " .

روزالين .. رنوتُ إلى صورة جمعتنا يوم الزفاف، وتساءلتُ بحرقة :

أي روحٍ خاوية كوَّنتْ ما بداخلك فصاغتْ نفسك من العدم ؟!

حاولتُ مرارًا أنْ أتجاوزَ نقائص ما ادَّعتْ في فترة الخطبة كمالَهُ، لكنها أسكتتْ روحَ المرح فيَّ وأماطت اللثام عن وجه النكد والبؤس .

اعتلَّ فرحي واضمحلَّت طمأنينتي، وكم حسبتُ نفسي أتعاملُ مع طفلةٍ لم تتجاوز ربيعها السادس، خاصة فيما تجهدُ في إتيانه من مُمازحةٍ تحاول عبرها

إشاعة الضحك لتؤكد لي استعدادها التام لبدءِ حياةٍ مُشرقةٍ معي، لكن ..كنتُ أحارُ من أين تأتي بروح النكتة، وكيف تستطيع أن تفتعل ببلاهةٍ واضحةٍ المواقفَ لتضحك عليها بمفردها ؟! كما حدث غير مرة عند عودتي من عملي، ولدى اجتيازي العَتَبة أجدها واقفة خلف الباب وفي يدها سكّين المطبخ الكبيرة، لتفزعني، مُتوقِعةً أنْ أضمَّها إلى صدري وأضحك على حُمقها، وكثيراً ما كانت تسارع نحوي حين تكون في المطبخ تُعدُّ الطعام وتفرم البصل لتُدني أصابعها من أنفي وتجعلني أشمُّ رائحة العطر البَصَليِّ الأخّاذ .

يمكن أن يُظهِر المرء أفضل ما لديه ليكسب محبة الآخرين وثقتهم به، لكن الأمرَ يتطلَّبُ الصدق شرطاً أساسياً لتدوم المحبة وإلا انهارتْ وانقلبتْ إلى الضد، يجب تَلمُّس جمال الروح في التعامل وفي أسلوب الحياة لكي يكون هناك بُعداً آخر أكثر عُمقاً من تركِ انطباعٍ إيجابي لدى الآخر، فإن انعدم الصدق وانحصر الهدف في الوصول إلى الغاية فقط، كانت النتيجة موتاً مُحتَّماً لكل ما يُقدَّمُ ويُطرَح، حتى لو تحققت الغاية كلياً أو جزئياً، لابد أن يشيع الخواء كاشفاً المستور بأقبح صورة .

الكذب استعمر مكان روزالين في الصورة فاستحال سواداً، سكَنَ في بؤرةٍ أتتْ على تفاصيلها، فأحلتُها مِزَقاً بين يديّ .

في اللحظة التي توارتْ روزالين خلف ستارته، ومن نبض إحساسي ..كتبتُ :

لن أدعَكَ تُشاركني الحزنَ هذه المرة، رُوحُكَ لَنْ تحتمل .

الكذبُ أفرغَ حمولتَهُ على مدخلِ بيتي، اقتحمَ غُرفَ جسدي، شاركَني عنوةً طاولةَ طعامي، وجدتُهُ مَادَّاً قدميه على أريكتي، مُفاخِراً بجسدِهِ فوقَ سريري، باسِطاً يديهِ فوقَ مكتبي يلهو بأصابعه النحيلة والطويلة، يقهقهُ لحظةَ لا أحتملُ فيها مزاحاً سَمِجاً، يَستفزُّني والصفاءُ أنشودة لروحي، يحاولُ ثنيي عنه، يتسلَّلُ مُتغلغِلاً بنسيج النورِ ليطفِئَهُ، لكن .. عَبَثاً يحاولُ إيقاعي في شرَكِه .

حدثَ ما حدث في لحظةٍ شاردةٍ عن عينيِ الزمان، لكنْ ما هو غريبٌ يجبُ استئصاله، لستُ أنا مَنْ يكون محلَّ عَبَثٍ، وعباءةُ صِدْقي أطهر مِنْ أنْ تُدنَّس، ببساطة، أحسَّ الكذبُ بغربةٍ ووحشة، جُلَّ اهتمامي كان فيما أقدِّمهُ ويشغلني، لغةٌ لم يكن بقادرٍ على قراءتها، ولا تَقبُّلِها، غادرَ المكان وشظايا صِدْقي تَعصِفُ بسخطه، تفتكُ بسُحُبه، وتزرع الطمأنينة في نفسي، اختنقَ، غَصَّ بدمعِه، اكتشفَ مُتأخِراً أنْ لا مكانَ له هنا فاضمحلّ .

دائرةُ نُوري كونٌ فسيح، مَدى صِدقي مُمتدَّاً حتى بساطِ العَرْش، ضَيِّقٌ هذا العدم الذي حاولَ اختراقَ صفحاتِ الأشياءِ مِنْ حَولي، وَ نفسي .

غابَ .. كأنْ لم يكن .

(٣)

بغياب روزالين عني، ابتدأتُ فصلًا جديدًا من فصول الحياة، وحيدًا من دونها، لم أفكِّر في مسألة إيجاد السعادة، بربح أو خسارة، كنتُ مُمعِنًا في التركيز على أن أعود كما كنتُ، حقيقياً مع نفسي .

تقرَّرَ سفري إلى اللاذقية بمهمةِ عمل، سأكون مع الأزرق لأرمِّم موجَ قلبي، سأكون مع نفسي، نفسي التي تُصرُّ على مواجهة التحديات في الحياة لتصنع السعادة وتتجاوز ما يمكن أن يعيقها، كنتُ أدركُ تماماً أنَّ تغييرَ المكان لا يؤدّي إلى بلوغي الراحة إنْ لم أكن قادراً على تغيير فضائي الداخلي، لتتوافق إرادة الحياة مع رغبتي في أن أكون مُحبَّاً حتى لو لم أكن في علاقة حب .

وقفتُ فور وصولي الشاطئ الأزرق لأخاطبَ البحرَ بلغةٍ شفيفةٍ لروحٍ تستعيدُ موجاً سُلِبَ منه هديره بعض الوقت، خطُّ الأفقِ مَدىً مُقفَلٌ على سماء اللَّهفة والانتظار، مُعدَّلُ الرطوبةِ مرتفعٌ يكاد يؤثِّر على حماستي ويبعث فيَّ شعوراً بالخمول، إلا أن اشتياقي لملاقاة الأزرق كان طاغياً ومُسيطراً على كل ما يمكن أن يغيِّرَ من هدوئي الداخلي، البحر صديقٌ قديم، لكن من هم

قريبون منه أهملوا شاطئه، اللاجئونَ إليه هرباً من الأحداث الدامية التي ضربتْ عنق المدن التي أتوا منها، بعثروا قاذوراتهم لتتقاذفها الأمواج ومن ثم تُبعدها عن ملامسة جسد البحر، كما هو قلبي حين تتجاذبه حروف الكذب فيصمت أمام لوثة تستبدُّ بناطقها ومن ثم أشطبه فأخفيه عن دائرة الوجود .

فنجان قهوة مُرَّة، ولفافة تبغ، والبحر من أمامي .

شَفَّتْ روحي، حسبتُ لبرهةٍ أني أكتبُ حروف الشوق على الموج الرقيق، من نبضِ البحَر سَطَّرتُ غَزَلاً شفيفاً، رأيته كيفَ يُسرِّبُ لي نَزَقَهُ، شَوقَهُ، اختلاجاتِهِ، وكيفَ يُسرّبني إلى عمرٍ مضى كأني الحاضرُ في ماضي الدمع، كأني الكلمة تفيضُ بما لن ينتهي يوماً من إطلاق ما بداخلي من نوارس تهوى الحرية .

عدتُ إلى طفولة حزني، على امتداد عمر بكل لحظاته، ساعاته، نهاراته ولياليه، وجدتُ طفلاً نديّاً ما إنْ تَفتَّحتْ عيناه على نور الحياة حتى أحرقَ الراشدون أجنحة فراشاته، ولج سكون العتمة، والصمت لغته، أُرهِقَت الطفولةُ بعصيانٍ حسبته أهرق البياض جاعِلًا من السواد لونًا وحيدًا لفضاءاتي، احتكمتُ إلى من يسكن ذاتي، وقبعتُ في السواد المحيط ببياضِ روحٍ تتوقُ إلى نورٍ بهيّ، لم أكن لأرضى يوماً عما يعتمل في داخلي، صورٌ مُشوَّهةٌ و وجعٌ يَخيطُ مِنَ الآهة حكايةَ رفضٍ لمصير بَحيمي، كومةٌ من التناقضات في عقلٍ يأبى التسليم لأقفالٍ تمنعُهُ عن محاولة التخلُّصِ من

خيوطِ أحزانٍ تكاثفت عليَّ فتلبَّستني ومنعت عني إحساسي بالطفولة، ما كنتُ أحسبُ لَمَّ العُمرَ محدودٌ بما هو آتٍ، بل كنتُ توَّاقاً للحظاتِ الانفرادِ بنفسي لأحلِّقَ في حيواتٍ لي مضتْ، جامحةُ الهوى مُدرِّة لولاداتٍ عسيرة تفيضُ معها أطيافُ أحلامٍ كانت المخلِّص لما تشكَّلتْ بذرته مُبكِّراً، كَبَحتْها إرادةٌ صلبةٌ من الظهور، لامَسَها فقرٌ جعلَ من اليابس وجبة يومية، أبٌ غائبٌ عن أولاده، أمٌّ قوية، قادرة على مسك زمام الأمور، والطفلُ البِكرُ يستسلمُ لتراكيب صورٍ يُبدِعُها خيالُه الخصب، يرتكب بها ما يجعله ثابتاً تطيعه الحياة المتحوِّلة، كثيراً ما كان يُتمتِمُ حين يختلي بنفسه بماءٍ يسفح الجنون ليحيا اليقين، يحيا في مرتع الظنون ليكتشفَ ذاته والكون .

لم يكن مقبولاً أنْ أُنصِتَ لبكائي، لابد من عمل أؤديه، لأُشبِعَ الأفواه المفتوحة، اشتغلتُ في فرن، وتلوَّثَ جسدي بطحين وقبلات لم يتبعها صراخ، وكما لم أحدِّث أحداً عما كنتُ أتعرَّضُ له، ما كنتُ لأعتبره فعلاً خاطئاً، إذ كان هناك ما هو حيٌّ في داخلي، أراحني ذلك الحيُّ من حمل عقدة الإثم، لكنَّ حزني استمرَّ قِفْلاً لصندوقِ أيامي، وعلى الرغم مما قاسيته، احتفظَ وجهي ببراءته، وقلبي بسكينته، ولساني التزمَ الصمت، كأني بنفسي أمازحها حيناً في معاقبة الروح على إثمٍ ما اقترفته يوماً أو تماديت، بالحزن وحده انتصرت، صار الخيال شغلي الشاغل، أنسربُ طيفاً مارقاً في الدروب المؤدِّية إلى الصمت والتأمُّل، ما احترفتُ الخطيئة ولم تمسَّني، لكنها سكنتْ نفسي بالمجاز فكنتُ طوقَ عذاب، ما استعجلتُ ارتكابَ الذنبِ كغيري فكان الصبر زادي لانفراجي الداخلي .

ومرَّتِ الأعوام ... ما استمالني صغيرًا، جعلني أؤمن أنَّ الخطرَ مفاجأةٌ سعيدة، ما دمتُ في هذي الحياة جزءاً منها، مهرتُ أيامي بخاتم التفكير المؤدّي إلى الوعي، مُستفيداً من تجاربي، لم أعهدِ الاستسلامَ لِما هو ثابتٌ من دون بحثٍ عن مخرجٍ له من باطن نفسي، تنازعتني الأهواء حيناً، وطاب لي أن أجعلَ من خشبةِ المسرحِ دَريئةً أصوِّبُ نحوها سهام الملذَّات أحياناً، ما استكنتُ يوماً، ولم أعترف لحظةً بحالٍ يقلبُ العالمَ رأساً على عقب، ما انجرفتُ يوماً لأسقط في طينِ ما يسكنني ومستنقعِ ما يدعوني البعضُ إليه، قاومتُ الوقوعَ بالخطأ، وتناسيتُ ما هو من أصل جسدي وتكوينه، محاوِلًا ثنيَ النفسِ عن هواها المقيم، وانشغلتُ بالتفكير والتأمل، لأتخلَّصَ مما يكاد يعيق الروح عن التحليق في فضاءات التوق لأحيا الحياة، لم أَخُنْ ما عاهدتُ نفسي عليه، وما تبرَّأتُ منه يوماً، لكن ما سكنني هو أحلام اليقظة، ما إنْ ينسرح الخيال مُنفلِتاً عن قيود الحياة التي اخترتها لتزجرني عن إتيان ما يُقبِّحني من الداخل أمام نفسي قبل أن يعنيني الغير، وما حاربتُ لأجله نوازع النفس في الهوى، منعني، لكنه كاد يبعدني في بعض اللحظات، وما اللحظة إلا من عمري، فتنبَّهتُ أن تكون اللحظات جميلة كالأرض، خيِّرة كالأشجار .

جُلّ ما حققتُه في حياتي كان نتيجةَ ما صارعتُ لأجل أن يكون حقيقة كا نفسي، وباتت الجنة على الأرض وسيلة لي للخوض في الحياة لأصنع نفسي بإرادة مني على أنْ أَهِبَ نفسي للحياة .

كان اللقاء مع الأزرق بمثابة مكافأة من الحياة، ودعوة منها للإبحار عميقاً دون أن يفصلني عنها ما يرهقني ويبعدني عن المحبة .

البحر أمامي ولستُ على موعدٍ مع أحد، لطالما كنتُ جريئاً في السباحة في بحر المحبة، لا أهابُ الانخراط فيه وإن لم يكن ثمة حبيبة، لأكتشفَ تفاصيلَ مكوِناته وأذهبَ بعيداً في رؤاي، وليقرر الكون بعدها في أي كونٍ يكون، إنِ استطاعَ فكَّ طلاسم أناي، التي لا يُدرِكُ مفاتحيها إلا الأنا فيَّ، أنانيٌ أنا في محبَّتي للطبيعة والكون، أدركُ ذلك كما تدركُ هي ولن يحيطَ الكونُ بلونٍ أختارُه لي .

هوى النفس مازال كما هو، وغياب روزالين عني، لن يمنع الأنثى من اختراق عالمي المجنون بأفكاري، عالم أصنعه بيدي وليس بما يُمكن أن يُفرَضَ عليّ، بإرادتي وحدي ألجُ مسرحَ الحياة، دونما حاجة للتذرُّع بعادةٍ أو الركون إلى ضعف، فما ضعفتُ سابقاً لأنهارَ الآن، وما بنيته في ماضيَّ لن أهدمَهُ يومًا، لكنه الفضول، حَريٌّ بي أن أتعرَّفَ إلى العالم من جديد كأني للتوِ أطأُ تربته البِكْر .

والبحر ..... أراهُ الآن يخاطبني، أسمعُ صوتَهُ يُهدهِدُ لي وفي صفوة نقائه يقول :

" لا تبحث عن الحب، لن يطلبَ منك إذناً حين يريد اقتحام عالمك .. وقلبك، إنْ صددته ستفشل، إنْ قهرته ستكون كاذباً على نفسك، للحظات ربما تطول، ربما تقصر، لكن سيحدث أنْ ترفض الكذبة بنفسك،

لا تَقُلْ إنكَ أقفلتَ قلبك، الأشياءُ تقبلُ الإقفالَ إلا القلب، لا تظن أنك قادر على جعله شيئاً بأمرك، أنت تصمد ربما .. أمام ثورته قليلاً، وتظن أنك كسبتَ الجولة أمام يأسٍ يَدهمكَ، لكن سيحدث في مثل هذا القلب .. حُب، ستقع إنْ شئتَ أم راوغتَ باختيارِ غير درب، وسوف تسير ومن ثم تطير، فإنْ وقعتَ، لا تَسَلْ عن ذكرياتِ الدمع، قد فُطِرتَ على الحب، وليس الحب بالأمر الصعب، سوف يُباغِتُكَ إنْ عاجلاً أم ... " .

وقفتُ أثناء سيري على كورنيش اللاذقية أمام صخرة الموت، شامخةٌ هي تتحدَّى ما ينازعها على موقعها، هنا يرسم من يريد وضعَ حدٍّ لحياته، طريقة خروجه منها، فيوقِّع على وثيقة الحقيقة الثالثة في الحياة بدمه، ويمهرها بخاتم الانتحار، لكن .. من المحتَّم ألا يُصادِق الإله على الوثيقة، هذا ما يرفضه، وليس في الأمر شفاعة .

رنين هاتفي أعادني فجأة إلى أرض الحقيقة الزائفة وخشبة المسرح تنوء من ثِقَلِ ما يعلوها، كان المتحدِّثُ أحد أعضاء الشبكة التي أتيتُ بمهمةِ تغطية نشاطاتها وإجراء حواراتٍ مع أعضائها وتسليط الضوء على ما تُنجزه وجرح الوطن غائرٌ عميق، صوت المتحدِّث إليَّ يبدو أنثوياً، حين علم بمكان وجودي أخبرني بأنه في مكان قريب وسوف يحضر حالاً لنناقش برنامج التغطية ولنتفق على التفاصيل .

حين التقيتُ به، تأكد حَدْسي بطغيان الأنوثة فيه، يبدو في العقد الثالث من العمر، متوسط الطول، نحيل الجسد، على صفحة وجهه

توزَّعتْ البثور التي يبدو أنه ناكفَها فانتقمتْ لنفسها وتركتْ آثارها بوضوح، أعلمني أنه يعمل في الصحافة الإلكترونية، بدا عليه الارتباك والخجل بعض الشيء، على خلاف ما يظهر عليه الصحافيون عادة، اتفقنا على برنامج التغطية، استأذنَ وغابَ سريعاً من أمامي .. تاركاً بقعة من ظِلِّهِ في المكان .

الليل في آخره، وقد بَثَّتْ روحي للبحر أغلب وجعها، استشعرتُ حَدَثًا سوف يقلبُ وِجهَةَ الريح، كنتُ مُسترخياً على رمل الشاطئ وهديرِ الموج يعزف سيمفونيةً تلامس الوجدان، أضواءٌ خافتةٌ تتأرجحُ وسطَ البحرِ على مسافةٍ قريبة، عُلِّقتْ في قوارب تضمُّ صيادين عقدوا الأمل بصيدٍ وفير الصمتُ لغةُ المتحفِّزِ الصابرِ والمُنتظِر، وَددتُ أنْ أمزِّقَ الصمتَ بموسيقى تهدهدُ إحساسي على هدى الموج، بعدما جذبتُ قوارب الذكريات القديمة، ثَبَّتُ في أذني سمَّاعةَ جوَّالي وتركتُ للأذن الأخرى أنْ تُنْصِتَ لعزف الموج، البحر استوى أمامي مُتوَّجاً بطقسِ إلهٍ يبوحُ بأسرارهِ لي النجومُ تُراقِصُ القمرَ بطفولةٍ مُتدثِّرةٍ بابتسامة، سَكينةٌ تحرِّضُ مَزجًا من حروفِ التَوق لتستسلمَ لبياضِ النفسِ وتترك الأثر، كتبتُ على ورقة صغيرة : " ها أنا .... قَدْ بَعثَرَ الوردُ نَداهُ على شَفتيَ، فتلقَّفْها أيها البحر " .

على الرمل الفتيّ استلقيتُ، وكانت رواية الليل تُتلى على مسامع الكون، فغفوتُ .

صباحًا، كنتُ ممدَّداً على السرير داخل الشاليه، لم أعِ متى وكيف

ولجتها، استيقظتُ على رنين الهاتف، تلقَّفته وعيناي مُغمضتان، كان الشاب الذي التقيتُ به ليلة أمس، استفسر عن سبب تأخري، اعتذرتُ منه و وعدته أن ألتَحِق بهم خلال نصف ساعة .

(٤)

كوكبةٌ من الشباب المتحمِّس لفكرة إحياء تاريخ سورية وتراثها، عرَّفني إليهم يم، كان كل عضو قد ثبَّتَ بطاقةً كُتب عليها اسمه يُزيِّنها شعار الشبكة، شرع أدونيس يحدِّثني عن الهدف من وراء تجمُّعهم، حين أتى على ذكر سورية كان الفخر يشعُّ من عينيه، سرد ما شدَّني للاستماع إليه، عن تاريخ الآثار، عن الفكر السوري، لماذا سُميت سورية بهذا الاسم وبماذا تتميز حضارتها .

كنت أُنصتُ له باهتمام، فجأة قاطعه يم وقد تَعمَّدَ لَفْتَ نظري إليه، قائلاً :

- على اعتبار أننا في اللاذقية حيث مدينة أوغاريت في موقع قريب منها، مدينة الأبجدية الأولى والتي أعطت أول نوتة موسيقية، لذا ركّزنا في مشروعنا على تكثيف الجهود للإجابة عن السؤال التالي : كيف نبرز التاريخ الحضاري لسورية ؟ .

أتبعتْ هبة الله بالقول :

- مشروعنا مشروع أهلي، وضعنا الخطط ليتولى قسمٌ منّا البحثَ

في التاريخ، تحديداً في تاريخ الميثولوجيا السورية التي منها أخذت الميثولوجيا اليونانية ألَقَها، وقسمٌ آخر اشتغل على الفن السوري، نفَّذَ منحوتاتٍ تُحاكي مواقعَ ومراكزَ هامة جداً في تاريخ سورية للتعريف عن هذه المواقع الأثرية التي كانت قبلة للسُّياح .

مُجدَّدًا .. قال يم :

- إننا نعتقد أن العالم المتحضِّر بلغتِهِ وثقافته يَستمدُّ في جزءٍ لا بأس به من حضارته تلك، الحضارة السورية العريقة، لاحِظْ في الأجزاء الثمانية لهاري بوتر، تم استخدام طائر العنقاء (الفينيق) وعبَّروا فيه عن أهم طائر مخلوق من نار، وكما تعلم فإن طائر الفينيق وفق الأسطورة المعروفة هو طائر سوري فينيقي تم استخدامه من قبل مؤلِّفة سلسلة هاري بوتر على أنه طائر من إبداعها، حتى أنه يُلفَظ باللغة الإنكليزية "فينكس" .

تألَّقتْ روحُ هبة الأوغاريتية مع ابتسامة ساحرة على محياها حين أتبعتْ بالقول :

- أوغاريت ليست مدينة واحدة، إنما هي سبع مدن تموضعتْ فوق بعضها البعض، لكن نتيجة ثوران بركان جبل الأقرع، ماتت المدينة وقامت من الموت سبع مرات، وفي كل مرة كانت تنتفض لتعود إلى الحياة كطائر الفينيق، يموت وينهض من جديد، وهي بذلك تحقِّقُ الأسطورة المتعلقة بطائر الفينيق، ولا تزال بعض الكلمات في لهجتنا اليوم مُستمدَّة من اللغة الأوغاريتية الأصيلة

كقول العامة : " أَيْ ليه " وتعني " يا أيها الإله إيل " التي تُطلَق كمناجاة له، وإذا دقَّقنا قليلاً نجد أن المدينة الأخيرة التي نهضتْ من موتها لتتجدَّدَ الحياةُ فيها لم تَمُتْ نتيجة ثوران هذا البركان، إنما نتيجة هجمات شعوب البحر المجهولين ما أدَّى إلى انهيار المدينة وموتها تدريجياً، ولا تزال الكثير من الشواهد باقية على عظمة هذه المدينة كبوابة القصر الملكي إضافة إلى الإكروبول (أي معبد الإله دجن والإله بعل) .

أثارني ما يقوله الشباب المتحمِّس، طرحتُ سؤالاً حول اللغة الأوغاريتية، فأجابني أدونيس :

- أثار تحليل اللغة الأوغاريتية الخلاف بين الباحثين، حيث تم الكشف والتوصُّل لاحقاً إلى أنها لا تنتمي إلى أي من مجموعة اللغات السامية المعروفة قبلها، فجزء من هذه اللغة يُصنَّفُ ضمن الفرع الشمالي الغربي في اللغات السامية، وبعضها يلائم فروعاً أخرى، مما أكَّد على أنها لغة قائمة بحدِّ ذاتها، وتم التصديق بعد ذلك من خلال اكتشاف الرُقيم الذي يحمل الأبجدية الأقدم في التاريخ .

أردفت هبة بالقول :

- وقد أتى الشاعر اليوناني هوميروس في إلياذته على ذكر الصناعات والأواني في أوغاريت (لا توجد آنية أخرى تنافسها في جمالها) .

شعرتُ بالفخر أمام هذا الشباب المتحمِس، وطلبتُ منهم أن يتحضَّروا فوراً لنبدأ العمل .

(٥)

اللّيلُ في اللاذقيةِ يَنسجُ النأيَ ويُوقِدُ مِرجَلَ الحزن، مع بحره وشاطئه أسامرُ الصمت، ولأنثى البحر حكايةٌ أخرى، لحضورها بهاءٌ يُسرّبُ إلى الروح الراحة والطمأنينة والأمل، تبدو مُحرّضاً قوياً لأكتب على فستانها الليلكي :

" سوفَ أشي بكِ لحروفي، وألقِمُ ريشتي بحبرٍ مِنْ ذاكرة الموج، علّها تصحو مِنْ خِدْرها ومنكِ، مِنْ ماضٍ سأنكأُ جراحَهْ .

سَأجعلُ للضحكاتِ أجنحةً مِنْ نور، وللأحزانِ أيقونة مِنْ دَمعةٍ طاعِنةٍ في الصَّهيل ..

سوفَ أستعيدُ صورَنا معاً، وإنْ أبكتني، سَيكونُ للبياضِ عِطركِ، وسوادُ وشايتي ذكريات ليالينا العاصفة ..

سوفَ أجعلُ مِنْ وجهي سُوراً، يَقي نظراتِكِ مِنْ صَقيعِ مَنفاكِ المختار .

لستِ كائِناً ورقيّاً في رأسي، لستِ مجرد كلماتٍ كُتبتْ لتُعَبِّأَ البياض، لا فراغَ يَحدُّكِ أو يُحدِّدكِ في قلبي، أنتِ كونٌ في امرأة، وأنا .... رجلٌ بلا

ذاكرة " .

تلقَّيتُ اتصالاً من يم، يدعوني إلى وجبة الفطور بمطعم " الجغنون " قبل استئنافِ اللقاءات صباحاً، اعتذرتُ منه محاولاً تأجيل الدعوة حتى أُنهي العمل مع أعضاء الشبكة، لكنه أصرَّ مُعتبِراً اعتذاري عن دعوته رفضاً للتعرُّف إليه، شكرته، ووعدته أن أكون حاضراً في الموعد الذي حدَّده .

يبدو أنَّه لطيف، دَمِث، رغم أنوثة روحه وانعكاسها على أسلوبه في التعامل مع الآخرين وليس على شكله الخارجي، إلا أن اهتماماته الأخرى بعيداً عن عمله في مجال الصحافة أثارتْ فضولي لأعرف عنه المزيد، بدا اهتمامه بي جلياً حينما التقينا، حدَّثني عن تجربته الشعرية حينما أهداني مجموعةً أصدرَها قبل نحو عامين، ودعاني لزيارته ليسمعني عزفه على البيانو، ما استرعى انتباهي هو شعبيَّته الملفِتة، واهتمامه بأناقته ومظهره، وبمن يرنو إليه أو حينما يحدِّق هو بالمارّين وفيض ابتساماته هديَّته لهم، استغربتُ بادئ الأمر، لكن برَّرتُ ذلك لعمله في الصحافة ومعرفته بالكثير من المشاهير كما أخبرني، وبنقاء روحه ولطفه مع الجميع، مع تطوُّرِ أحاديثنا وتَعقُّبِ نظراته وعلى من تقع لاحظتُ أي اهتمامٍ يركز عليه، خاصة حين أعلمني أنه مُتمكِّنٌ من معرفة بعض الأمور الخاصة بعلم الطاقة والتي يستطيع من خلالها قراءة مكنونات الشخص والغوص عميقاً في نفسه، وقد طلب ذلك مني، ورغم أني لا أهوى ذلك لكثرة المدَّعين بمعرفة أمور

الطاقة، وافقتُ، كنا قد انتهينا من تناول فطورنا، فسارع إلى احتضان كفّي، أطبق عليها بكفَّيه، ثم أغمض عينيه قليلاً وقال :

أنت على مفترق طرق، سوف تختار الطريق الأنسب لك، أمضيتَ زمناً طويلاً مُغتَرِباً عن ذاتك، لكنك الآن تحاول أن تجدها، وستجدها، الأمور حالياً في عملك ليست مريحة، لكنك ستُنجِزُ عملاً خلال ستة أشهر يلفتُ النظر إليك، ويحقق لك مكاسب جيدة معنوية وليست مادية، سوف تكون مَحطَّ الأنظار، عليك فقط بالصبر والعمل وفق حَدْسِكَ القوي، إحساسُكَ بالأشخاصِ وحُسْن قراءتك لهم يساعدانكَ في توجيه بوصلتك نحو الجهة الحقيقية .

صمتَ لبرهة، مُحدِّقاً بي ليرى وَقْعَ كلماته عليّ، ثم تابع بالقول :

- هل أكتفي بذلك أم أقول لك المزيد ؟

ضحكتُ وقلت له :

- لا .. لا .. يكفي ذلك، لكن العمل الذي ذكرته سيكون مُنجَزاً خلال شهر .
- تعتقد ذلك، لن يكون مُحقَّقاً قبل ستة أشهر .
- هل تستخدم هذا الأسلوب لأغراض خاصة ؟

قهقهتُ وغمزته بعيني، ضحك وقال :

- أحياناً، أنت شخصٌ مُتميّزٌ وسوف تحقّقُ نجاحاتٍ كثيرة مستقبلاً

حدَّثني يم عن اللاذقية، بعدما حلَّ فيها منذ عدَّة أشهر قادماً من ريف دمشق، قاطعنا النادل وهو يقدِّم ما طلبناه بعد وجبة الفطور، القهوة المُرّة التي أعشقها، والبيرة لـ يم .

" لطفُ هذا الشخص أهو مصطنعٌ أم حقيقيّ ؟ "

بدا مُهتمّاً بتفاصيل خاصة بي لم يكن الكثيرون يلتفتون إليها، وهذا ما أثار استغرابي، سألتِه عن سبب هذا الاهتمام، برَّرَ لي ذلك بما كان يُعدُّه قُبيل لقائنا بهدف إجراء حوار صحفي معي، بادرته قائلاً :

- منذ قليل أخبرتني أنَّ حَدْسي قويٌّ وهذا صحيح، وأنا أقرأ أبعدَ من ذلك، الأمر لا يتعلق فقط بالحوار
- صحيح، وستكتشف ذلك بنفسك بعد حين .

دفقَ البيرة في جوفه، وعاجلَ بالقول :

- يبدو أنكَ مُثيرٌ لدى النساء، انظرْ يا رجل، جميع من يمْرُرنَ بنا يُمعِنَّ النظرَ فيك، لكنني لستُ مُهتمّاً لذلك، لكَ النساء إنْ أردت

قهقهتُ وقلتُ بدراماتيكيةٍ ساخرة، وقد وَثبتْ صورةُ روزالين أمامي :

- كما تريد، هَلُمَّ بنا كيلا نتأخر عن موعدنا مع أعضاء الشبكة .

تنامى الإحساس لديَّ بأن يم شخصية مثيرة للجدل بقدر ما تحمل من تناقضات وغنى .

(6)

لم يشأ يم أن نجلس إلى البحر، قال لي مُشاكِساً بنبرةٍ أنثويةٍ لم أَعْتدها منه بعد :

- أريدُ أنْ أنفرِدَ بك بعيداً عن عيون البحر وعاشقيه .

بانتِ الدهشةُ عليَّ حين نطق بعبارته، ما استدعى منه تبريراً سريعاً مصحوباً بابتسامته المعهودة :

- " و راس أختي " لا أقصد إلا أن تُسرع، لا أريد أن نضيّعَ الوقت هنا، سوف أسمِعُكَ مقطوعاتٍ موسيقية رائعة على البيانو، كما أن شقّتي في الطابيّات، ومُطلّة على البحر أيضاً، سوف تشعر بمتعة مزدوجة .

حَدَّقتُ بعينيه ما جعله يتململُ في جلسته وقد أصابته قشعريرة مفاجئة إذ حَسِبَ أني سأتلفَّظُ بما يُصعقه :

- أخبرني يم ..

تَقصَّدتُ الصمتَ بُرهةً .. وأنا أُمعنُ النظرَ إليه فانحرفَ جهة الأزرق في حركة لا إرادية ليهرب من الآتي :

- ما الذي تخفيه عني ؟ .

بُهِتَ لِما قلتُ، رأيتُ أمامي طفلاً يكاد أن يواجهَ عقوبة شديدة محاولاً الهرب ما استطاع من سَوْطِ الاتهام :

- هل أُزعِجكَ بشيء ؟ بالله عليك قُلْ لي بصراحة .

قَهقهتُ مُبعِداً الشبحَ الذي أرعبَهُ، أردتُ الإمساكَ بتلابيبِ فكرةٍ جديدةٍ خَطرتْ لي لَجأة .. فقلتُ :

- إنْ واجهتَ نظرةَ اتهامٍ بارتكابِكَ لفعلٍ شائنٍ أو دارتْ حولك شُبْهة ما، هل تُفضِّل التصريحَ ممن يَتّهِمُكَ أمِ التلميح ؟ وهل يُقيِّدُكَ ذلك عما تريده كأنَّ شيئاً لم يكن ؟ .

- إلامَ ترمي يا قيصر ؟! هل تجدني ممَّن يُشَكُّ في أمره ؟ أظنُّ أنَّكَ تَتعمَّدُ استفزازي لأجهرَ بقول ما لا أظنُّ أنك قارئه بدقة .

- ما بالك يا رجل ؟ قرأتُ، وختمتُ قراءتي لكلِّ ما يتضمَّنه كتاب روحك، لكن أريد منك توضيحاً وتفسيراً لكل ما يحدث من حولنا .

- عن أي أمر تتحدَّث ؟

- لا أطلب تفسيراً من بائعٍ مُتجوِّلٍ، مع احترامي لكلِّ خلق الله، لكن ما يستبدُّ في نفسي من نوازع مُقاربةِ أمرٍ مُحدَّدٍ يَضعني بمواجهةٍ مع الآخرين، وتبدو مواجهة عنيفة، سوف توردكَ مَوردَ المهالك .

- " و راس أمي " لم أفهم عليك، أهوَ لغز أم أنَّ استيعابي للأمور قد

انخفضَ إلى الدَّركِ الأسفل، يجب أن أخضَّ رأسي وأرجّه لأُخرِجَ منه ما علق فيه من شوائب أغوص فيها حتى الركبتين .

ضحك بقوة الهستيريا التي انقضتْ عليه، حسبتُ أن الأنثى فيه هي من قهقهتْ، أردفَ بأسلوبٍ تمثيليٍ بارع :

- والله يا سيدي أنا بريء، لم أرتكبْ جُرماً ولا فِعلاً شائناً، طوال عمري والطفلُ في داخلي مُصانٌ من التلوث بما تحتويه مُستنقعات البشر .

أضحكني فدنوتُ منه نضربُ كفّاً بكف ولأتابع المشهد معه، بصوتٍ أجشّ :

- هل أتفاعلُ مَعَ الحالة فقط دونما اهتمام بالأسباب ؟
- البحثُ في الأسباب يا سيدي لن يُقدِّم ولن يؤخِّر، التفاصيلُ مُرهِقةٌ، والحديثُ عنها يُتعِبُ القلبَ، لكَ أن تسأله هو فقط إنْ رغبت .

رَمقتُهُ بقسوةِ سُلطانٍ، وبجبروتِ حاكمٍ ثم غبتُ للحظاتٍ لأُصفِّفَ شعري أمام مرآة الحمّام و عُدْتُ ممسكاً بعصا خشبية أُلقيتْ في زاويته، لوَّحتُ بها في وجهه، وانبريتُ أقولُ له :

- من هو ؟ قُلْ ولا تَخَفْ .
- القلبُ يا سيدي .

أجبتُهُ ببرودٍ نَزِقٍ، مُحاوِلاً أنْ أفرضَ سَطوتي عليه أكثر فأكثر :

- ليس ثمّة ما يعنيه يا فتى، ولا أريد أن أسأله، أنا أسألُ يم .
- حسناً، وأنا سأخبرك .

ربما منذ زمن بعيد لم أضحك كما ضحكتُ الآن، نهضنا متوجهين إلى شقته، وفي الطريق لاحظتُ أنه يُمعِنُ النظرَ ببعض المارَّة أثناء وقوفه على شارات المرور، كما يلوِّحُ بيده لآخرين، أبدى اهتمامه بما انتبهتُ إليه فقال :

- عملي في الصحافة أكسبني معارف كثر وأصدقاء من مختلف الشرائح الاجتماعية، ناهيك عن المشاهير من داخل سورية وخارجها .
- عن طريق الشابكة ؟
- أجل، العمل في الصحافة الإلكترونية ممتع ومفيد، وقد زرتُ بلداناً عربية وأجنبية بحكم عملي الذي خرج عن الحدود الجغرافية لسورية، ليتَّسعَ أكثر في الخارج عما أمارسه هنا، خاصة في ظل الظروف التي تمر بها البلد .
- وكيف تدبَّرتَ أمرك فيما يخص سكنك باللاذقية خاصة في ظل الظروف الصعبة السائدة ؟
- حين استشعرتُ الخطرَ حيثُ كنت مُقيماً، انتقلتُ إلى هنا، استطعتُ شراء الشقة بمعونة أخي المقيم في الخارج، وبعد فترة

وجيزة، أصبح الريف ساخنًا، خطرًا، من خلال الصور التي تُنشر في صفحات Facebook أكاد لا أعرفه، أمسى خراباً وكأنه لا يمتُّ إلى سورية بصلة، انتقالي إلى اللاذقية أثَّر نوعاً ما على عملي الذي كنت أزاوله في دمشق، لكني استطعتُ مدَّ الجسور عبر الشابكة واستعدتُ الكثيرَ مما فقدته .

- هل تكتب في اختصاص معين بالصحافة ؟

- جُلّ كتاباتي في الأدب وأغلب أنواع الفنون والآثار، كما أوليتُ الرياضةَ اهتمامي لفترة وجيزة، لكن أكثر ما جذبني ولا أستطيع التوقف عنه هو حواراتي مع أهل الفن والثقافة والسياسة، قبل أن أُجري أيَّ لقاءٍ أدرسُ الشخصيةَ وأتتبَّعُ كلَّ ما كُتِبَ عنها وما صَرَّحَتْ به، أتابعُ أعمالها وما أنجزته خلال مسيرتها فضلاً عن معرفةِ أمورها الشخصية لأمتلكَ مفاتيحَ أكثر في حالِ تَعمّدتُ إثارتها مُبطَّنةً أو ظاهرة ضمن ما أطرح من أسئلة، لستَ غريباً في النهاية عن هكذا أجواء، ومن الطبيعي أنكَ تسلكُ دروباً أشدَّ صعوبة مني، فالعمل الإذاعي مُرهِقٌ ويتطلَّبُ إبداعاً من نوع خاص، لذا طلبتُ منكَ أنْ أجري معكَ حواراً كإعلامي مُحنَّكٍ وذكي .

- يا سيدي لستُ أنا المحنَّكَ بل أنت .

عاودتُ الضحك، كأن نوبة أصابتني بغتة، لأَفُكَّ عُقَدَ الحزن الذي كان مُسيطِراً عليّ، وبصعوبة استطعتُ القول لِـ يَم وهو يشاركني الضحك

مما لفتَ أنظار من صادف مروره إلى جانبنا على الرصيف :

- لا أخفيك بأني لم أتشجع كثيراً حين طرحتَ عليَّ الفكرة، لكنكَ تُقنعني بنفسك أكثر فأكثر مع معرفتي بك باضطراد، سأوافق .. لا تقلق سأوافق على إجراء حوار معي .

قبّلني يم بعينيه، أمسك كفّي ليضغط عليها وقال :

- " الله مَحيّي التواضع " وأنت ؟ متى ستحتفي بي وتستضيفني في الإذاعة ؟

- في برنامجي القادم ..

توقّفَ لحظتئذ أمام بناء شاهق ودعاني لأترجّلَ من السيارة، وهو يتابع بالقول :

- بالله عليك .. أليس البرنامج الجديد هو ما تحضِّر لإطلاقه بعد ستة أشهر كما قلت لك سابقاً ؟

- أجل، لكن كما قلتُ لك .. (رفعتُ سبّابتي جازِماً) : بعدَ شهرٍ من الآن .

ولجنا الشقة ونحن نضحك على رِهانِنا بهذا الشأن، أحسستُ بالدفء والشاعرية في أركان البيت، نظافة مُلفِتة، لمسات فنية واضحة في تنفيذ الديكور وتوزيع الأثاث واختياره، صور جمعت يم مع مشاهير كُثُر، وزَّعَها بأناقة على جدارين متقابلين، لوحات فنية مستغرقة بالذكورة البوهيمية،

توسَطَتْها لوحة لأنثى عارية منتصبة وعند قدمها خنجر ملوث بالدم، استوقفتني لوحة أبقى على بياض قماشتها، أثارتْ فضولي، التفتُّ لأرى يم مُتَّجهاً نحوي، ابتسم وقد فاجئني حين قال : " هذا أنا .. لا تستغرب " .

لم تعد رفاهية المكان الواضحة تعنيني، ما استهواني .. الأبيض، والأزرق البحر .. ذاك الحبيب الذي لا يفارق النظر أنّى اتجهتَ في أرجاء البيت، حين واجهته لم أعد مُهتمّاً بما يحيطُ بي، باستثناء اللوحة التي أصرَّ يم على تقديمها لي هدية .

وقفتُ أتأمَّلُ سحرَ البحر وبهاءَ حضوره، اكتملَ المشهد بعزفٍ مُمتعٍ من يم على البيانو، كانت سهرة في غاية الروعة .. في حضرة البحر .

(٧)

تعرَّفتُ على ثلّة من أصدقاء يم، أغلبهم من أعضاء الشبكة، باتوا يطالبونني بتمديد إقامتي في اللاذقية، حدَّثتهم عن انشغالي بالتحضير لبرنامجي الجديد دون التعرُّضِ لموضوعه، وبالحلقات المتبقّية مما أُقدِّمه حالياً، كنتُ ألاحظُ على الدوام أنَّ يم يُمسي شخصيةً أخرى بوجود أصدقائه المُقرَّبين منه، تطغى عليهِ الأنوثةُ بشكل صارخٍ خاصة حينما تكون صديقاته حاضرات معه، أكادُ لا أفرِّقُ بينَهُ وبينهنّ .

في السهرة الأخيرة التي جمعتني معهم قُبيل سفري، جلسنا في حضرة الشعر والموسيقى الآسرة، أجواءٌ تُرنِّحُ في الروح الطمأنينة وتغازلُ القلبَ فيرقُّ بانبهار، تألّقتْ هِبةُ الله بروحِها الشاعرية ومدادها الذي صبغَ الأزرق بأبيضِ التشهّي للغوصِ في عُمْقِ مقاصدِ الروح، حين تُنْبِتُ من الأقحوانِ زهراً لوجهِ القمر، مِنْ حُروفِها تفوحُ رائحةُ النرجس لتنسربَ مَصقولةً بهمسِها حتى إيقاعِ الموج، بَدَتْ هبةُ الله أثناءَ إلقاءِ شِعْرها سُلْطانةَ الكلمة المعتَّقة بخمرِ العُنَّاب، شَعرها المنسدل على حوافِّ البحرِ يُغري النجومَ بالسطوعِ في ليلٍ عِتْقُهُ مِنْ كُحْلِ عَينيها، وتحريرُهُ مِنْ عُنَابِ أنفِها الشامخ، ينالُ نوره من وَميضِ شفتها السفلى فيمتدُّ مُنافِساً ضياءَ نجم القمر، كان وجهُها مَسكوناً بابتسامةٍ طفوليةٍ لم تَهتدِ إلى محطة المغادرين، طيوفُ صورها وتهويماتها تزلزلُ مَنْبَتَ الزيزفون البري الذي يَرجُّ مراكزَ الإحساسِ فترتعشُ

فتنةُ الكلماتِ لتُبدِعَ فصلاً وحيداً لكونٍ مُتكاملٍ يكادُ أن يكونَ المخلوق الأوحد لإله الشعر .

تقصّدتُ استفزازَ هبة الله بقولي لها بعدما ألقتْ بعض قصائدِها، فقلتُ لها :

- أنتم مَعْشر الشعراء مِزاجيّون، يُخشى الدنوّ منكم ..

تعالتِ الضحكاتُ والتعليقاتُ مِنَ الحاضرين في حين كانت هبة الله ترفع كمّي قميصها الزهري في إشارة لاستعدادها للمواجهة، قالت والابتسامة على محياها تقطرُ شِعراً مُندًّى :

- اسمع إذن ما كتبته لأصدقائي منذ فترة :

مِزاجيتي ترهقني أحياناً .. لكن أحبها، لذا .. لا تُرهقوني بعتابِكم وترهقوها، دَعوها في فضائي ولا تطردوها، سآتيكمُ في لحظةٍ ما .. طيفاً يحبُّ فضاءاتكم .

علا التصفيقُ في إشارةٍ لخسارتي أمام هبة الله، دنتْ مني تُقدِّمُ كتاباً شعرياً من تأليفها، ضَمَمْتُ الكتاب وأنا أهمس لها : " تُجيدين صُنْعَ الشرارة الأولى " .

ودَّعتُها بابتسامةٍ لها بريقٌ أُدركُ ما يتبعه، استأذنتُ الحاضرينَ لأتجه نحو الشاليه، سأكون مع شِعْر هبة الله على إيقاع موج الأزرق في آخر ليلة

على شاطئه البهي، أصرَّ يم على أن يوصلني بسيارته، رجوتُهُ ألا يغادر بيته بعدما أفرط في شرب الكحول، لم يَنْصِتْ لطلبي، جذبني من يدي نحوه، تاركاً أصدقاءه يُتابعونَ سهرتهم لنخرج معاً .

كان يقود سيارته حين سألني عن البرنامج الجديد الذي أنوي تقديمه، وحين علم بموضوعه، تلوَّنَ وجهُهُ، ازدردَ ريقَهُ، ترقَّبتُ تَعليقاً منه فلم يَنبس بحرف، ازدادَ توتُّره، زاد من سرعته، طلبت منه أن يُخَفِّفَ منها، وصلنا الشاليه بسرعة، تَرجَّلتُ من السيارة دون أن أدعوه للدخول معي، أصدقاؤه في بيته وليس من اللائق تركهم ينتظرونه وقتاً طويلاً، هذا ما حسبته، لكن يم كانت له حسابات أخرى، ترجَّلَ من السيارة ودخل معي الشاليه.

لم يضطرني لأن أطرح أي سؤال، طلب مني أن أسمح له بالتحدُّثِ في أمر يخصه، وحين استجبتُ، كانت المفاجأة الكبرى . . هالَني ما تفوَّه به ..

يم يعشقني مُذْ كان يعمل في دمشق، ولأجل هذا جمع المعلومات عني، لم يكن الحوار الصحفي إلا مَدخلاً لما يريد الوصول إليه لكي يرتاح، وهو مَنْ كانَ وراء تكليفي بإجراءِ تَغطية شاملة عن نشاطاتِ الشبكة، حَدَّثني أنه يعاني منذ أشهر من مرضٍ ألمَّ به وهو الحب، ولا يريد لمعاناته أن تستمر أكثر من ذلك .

في رأسي أزيزٌ وعَصْفٌ وثورةُ أفكار، في كياني رعدةٌ تثيرُ براكينَ غضب .

- هل تدرك ما تقول أم أن الكحول قد نال منك ؟ .

استرخى يم على الأريكة، أصابعه تحتضنُ لفَّافة تبغ، ابتسمَ بسخرية وهو يرنو إليها ..

- بُحْتُ لكَ بما في روحي .. ولا ألومك على أي رد فعل سلبي .

- وهل تتوقع مني أن أكون إيجابيًا ؟

مَجَّ عقب السيجارة، احتفظ بالدخان في صدره ثم أجاب والدخان المتصاعد يُلبِسُ الحروفَ قتامةً باردة :

- لا أدري، لا أريد أن أفكر بشيء الآن، يكفي أني استطعتُ البوح، أعوِّلُ على إنسانيتك، وإحساسي.

- ليس شرطًا أن أتقبَّلَ طرحَكَ حتى لو كنتُ إنسانيًا، إحساسُكَ يَخصُّكَ وحدك ولم تَصِلكَ مني إشاراتٍ تُعزِّزه، فكيف تُخاطرُ بما لستَ مالِكَهُ أو واثِقاً منه ؟!! .

استقام يم في جلسته بعد تراخٍ، وهو يقول :

- معرفتك بي حديثة العهد، ربما أنا مخطئٌ في كَشْفي لهذا الأمر الآن، أعتذرُ إنْ كنتُ قد أزعجتك، هل تسمح لي بالانصراف ؟ .

- لا أصدِّقُ ما أسمعه منك .

- اسمح لي بالانصراف أرجوك، أكاد أن أتلاشى أمامك، كم أنا قبيحٌ وسيء، خاطرتُ بكَ بَدَلاً من أن أحرصَ عليك، ربما كانت

الصداقة أكثر صوناً مما بُحتُ به، لا .. لا ، سنكون كما أتمنى بالفعل، ليتني احتفظتُ بك صديقاً، و " راس أختي " لو تطلب مني الآن إعادة ما قلته فلن أتمكّنَ من ذلك .

دمعتْ عيناه، انكمشَ، تكوَّر كجنين يَضمُّ جسدَهُ بجناحيّ روحه، أكاد أجزم أن ما تفوَّه به لم يكن تحت تأثير الخمر، لكنه استغلَّ حالته ليبوح بما يريد، قلتُ له :

- اسمعني أرجوك، لا أعارضُ ما بُحتَ به كحالةٍ إنسانية، وأنتَ حرٌّ فيما تهوى، لكن ...

انتفض يم ليعدِّلَ جلسته وقد برقتْ عيناه، وانبرى يقول :

- لكن ماذا ؟ قل أرجوك، أرحْ قلبي، لن أطالبك بشيء، وقد أودعتُ سرّي في راحتيك، أرحني وأزح الستارة عما تخفيه .
- لن أستطيع أن أكون معك .

لحظتئذ .. انهزمَ يم، استرخى على الأريكة، بدا وديعاً كالأطفال، طيّباً كغيمة، هادئاً كالبحر، همس قائلاً :

- يكفي أن تُقدِّرَ حبي لك .
- يم افهمني، ما قُلتَهُ خرج عن نطاق الحرية الشخصية بمجرد نُطْقكَ به، هو الآن لا يعنيك بمفردك، لن أقف ضدَّك فيما يخصُّكَ، لكن لا تزجّني معك فيما لا يعنيني، الأمر كما يبدو لي ليس بيدك، ومن

الواضح أن لك معارك طاحنة هنا، ولستُ بصدد الخوض معك فيها .

انهمرَ الدمعُ غزيرًا من عينيّ يم، مَسحَهُ بظهرِ كفِّه، نهض مُتثاقِلًا، ترنَّح في مشيته ليقف أمام النافذة، بدا وكأنه يستحضر الكلام من غيابة نفسه، أراد أن يشطر سِرَّه نصفين، في عُمْقِ البحر، وفي روحي :

- جَهِدتُ لأكون كما يُفتَرَضُ بي أن أكون، كانت الطبيعة دائمًا تُعيدني حيث يجب أن أكون، طالتْ معاناتي، واستُهلِكتْ عذاباتي حتى انطفأتْ، وآنَ لي أن أرتاح، آنَ لي أن أكون ذاتي التي ما اختارتْ كيف تكون، وما تهوى، لكنها استطاعت أن تصون اللون، وتحفظ أمام الكون حقيقتها، أمَّا وقد اعتراها الآن ما يجعلها تُنهي الغموض فليس هذا من شأن أحد .

صمتَ لبرهة .. ثم ما لبث أنْ دقَّ إسفينًا في جدار الصمت :

- على كل حال .. سأتركك الآن، أنا تعبت ولا أريد أن أنقل إليك طاقتي السلبية .

- أوَ تعود مجدَّدًا لذكر الطاقة أمامي ؟

ابتسمتُ لأخففَّ من توتره

- لا بأس عليّ، لا أريد لك الضرر، يجب أن تدَّخِر طاقة إيجابية من البحر قبل سفرك .

رنوتُ صوبَ البحر وعانقته بعينيّ، حدَّثته بأنَّ مَنْ شَابهَهُ الآنَ ظَلَم، بعدما هتكَ السِرَّ - الطُعْمِ لأكون صَيْداً له، قلتُ :

- البحر أنا ..
- لكنك لا تعرف الغدر .
- لا علاقة لموجه بما ينسبه البشر إليه .
- إذن .. سأتركك مع نفسك وأغادر الآن، لكن عِدني أن تفكِّرَ بالأمر بشكل جدّي .

زاغتْ عينا يم، بدا مُتثاقِلًا غير قادر على التوازن، خشيتُ أن يتعرَّضَ لأذى خاصة بعد حديثنا هذا وبكائه المفرط، قلتُ له بحزم :

- لن تخرج، ستبقى هنا، وفي الصباح تعود إلى شقتك بعدما توصلني إلى محطة السفر، اتصلْ بأصدقائِكَ وأَخبرهم .
- لا أريد أن أزعجك بوجودي .

ضغط بقوة على صدغيه بباطن كفيه .. أردف قائلاً :

- رأسي يؤلمني ولا أريد أن أبقى هنا .

رنا نحوي بحنان مفرط، عاود البكاء من جديد وهو يقول :

- قيصر .. " و راس أمي " أنا أحبك، فكّر بالأمر جيدًا أرجوك .

- يم .. الحب لا يحتمل التفكير، إما أن تنصاع لأمره، أو تتجنَّب الخوض فيه لعدم قبولك به أو قبوله بك، الحب كالقصيدة، إما أن تقبلها بأكملها أو ترفضها بتمامها .

لاحت صورة هبة بابتسامتها البحرية، في حين كان يم يهمس بما لا جدوى منه :

- الله عليك ما أبهى كلامك .

- يم .. لا يمكن أن أجنِّبك الوقوع في الحب، لكن يمكنني زجرك عن التمادي فيه، أدرك أن هذا شأن خاص بك، لكن بالمقابل لا أريد أن تُظلَم، لن أتلاعب بعواطفك تجاهي، لذا سأكون واضحًا وصريحًا .. لن أستطيع أن أكون معك .

- سنكون صديقين ؟

- وهل تستطيع ؟

- هذا أمر صعب أليس كذلك ؟ سأحاول، سأحاول أَعِدُكَ بذلك

ران صمت بيننا لحظةَ أوغلَ يم في تَصوُّراتٍ أخذته بعيدًا .. ثم أردف قائلاً :

- سيبقى حبي موجودًا، لكن لن أكون مُغفَّلاً لكي أوهِمَ نفسي بأنه سيأتي يوم وتبادلني الحب .

- هل تَعِدني بذلك ؟
- لن أزعجك، صدِّقني، سأبرهنُ لك أن الحب لا يمكن له أن يدرك الكره أو الإزعاج أو الإكراه أو الكذب .
- آمل ذلك .
- وهذا ما سيكون .. أعدك .
- إنِ التزمتَ بما قلته الآن .. أرى أننا يمكن أن نكون صديقين .

دمعتْ عينا يم .. ثم استرخى ونام كطفل رضيع .

رنوتُ إلى البحر، بدا لي شهواني الموج، لِما يَضجُّ في أعماقه ويفور، الأفق مُقفَلٌ بجدرانٍ لا بسماء، ترتسمُ إشاراتٍ مُبهمةٌ كأنها رموزٌ تهتكُ الستر، تَعكَّرَ سطحهُ وكأنه على وشك التقيؤ لسرٍّ قُذِفَ إلى أعماقه عنوة، لامستُ صَدَفَ الشاطئ بعدما هبطتُ من الشرفة، كأنَّ الصدفَ يتحركُ ليرسم جسدي المسترخي فوقه حدوداً تُحصِّنُ انزلاقي في بُقَعِ الزيت المتراخية تحت ضياء القمر، أين نورس البحر .. أتراه يرسم وجه هبة الله المبتسم الآن ؟ .

رأسي المتموّج يَهجسُ باللوحة البوهيميّة المعلّقة في شقة يم هذا الـ يم .. مَنْ يكون ؟ سألتُ البحرَ فلم يُحرِ جوابًا، أيكون مجهولَ الموج ؟!! .

من الواضح أنَّ روحَهُ تَعشقُ المتناقضات، يجب أن أعلم من يم ما لم

أستطع معرفته عن المثليين، فهو عالم مجهول بالنسبة لي، ولابد من تحضير المعلومات اللازمة لبرنامجي الجديد .

أشرقتِ الشمسُ والنَّدى لَبوسي، لم أنم، أمضيتُ الوقت مع عالم هبة الله الذي أسرني، اتجهتُ أُعدُّ القهوةَ وأوقظ يم لنسلِّمَ الشاليه ونتجهَ إلى محطة السفر .

• هل تستطيع مساعدتي ؟

رشفَ يم من فنجان القهوة، أطرق هنيهة، ثم نهض ليقف أمام النافذة المطلَّة على البحر، أحسستُ به يَغصُّ بدمعةٍ تُكابِرُ السقوط، أجاب بحزن

• سأكون طوع أمرك، لن أدَّخر جهداً لتحقِّق ما تصبو إليه من خلال برنامجك الجديد، لن أدعَكَ تقتحم هذا العالم، سأكشفه لك وأرشدك، آسف على كلمة أرشدك، لم أقصدها بمعناها الحرفي

• لا عليك، معك حق، يجب أن تُرشدني فأنا أجهل هذا العالم جهلاً تاماً، لغاية اللحظة أتساءل: كيف تحقَّقَ لي أن التقيتُ بك في هذا الوقت بالذات، طوال عمري أسمع عن هذا العالم لكن لم ألتقِ بأحد أفراده .

• لا . هم كُثُرٌ من حولك، لكنك لم تكترث لوجودهم يوماً، شهوتُكَ ليست هنا فكيف ستلحظهم ؟ باستثناء من أفصح عن مثليته لمن هم حوله .

- وأنت ؟

- لم أجرؤ على الإفصاح بمثليتي .

- يم .. هل ستكشف عنها في يوم ما ؟

- مستحيل .

- لماذا ؟

- سأخسر كل من حولي .

- أوَ تظن أن من هم حولك .. لا يعلمون ؟

- لم أكشف الستارة عن شهوتي، كنت حريصاً دائماً على السرية المطلقة فيما أنا عليه، أنت تعلم حال مجتمعنا .

ضحك يم بسخرية مُرّة، ثم أردف قائلاً :

- هل ترى هذا المجتمع الرافض لنا في العلن ؟ إنه غارق فيما نغرق فيه بالسر، أقول لك إنهم كثر، كنا ظاهرة يا رجل، الآن غدونا جزءاً كبيراً ضمن مجتمعنا نستطيع فرض ما نريد، إنِ اتحدنا وأعلينا الصوت وطالبنا بأحقية وجودنا في العلن، العالم تطور ونحن مازلنا نثرثر دونما فائدة .

- لن يعترفَ المجتمعُ الشرقيُّ بفئةٍ مَنبوذةٍ منذ الأبد .

- صحيح لن يعترف، وما يزيد الأمر سوءاً أنَّ مجتمع المثليين أنفسهم

يحاربون بعضهم البعض، ولا يتردَّدون في إيذاء أنفسهم وغيرهم، ألم تسمع براقص الباليه الذي وُجِدَ في شقته مقتولاً ؟

- أجل، سمعت وعرفت أن عشيقه هو مَنْ قتله .

- لا أريدك أن تنخرط في أجوائهم، حتى لو تعرَّفتَ على شخص منهم، فلتبقَ بعيداً عنه .

- إذن .. سأعتمد عليك .

- لا تقلق، العالم قرية صغيرة، فما بالك بفئة مسحوقة ضمن هذا المجتمع، اسألني عن كل ما تريده من معلومات أو أشخاص ضمن هذه الفئة، وإن لم أكن أعرفهم سألتُ عنهم من لديه الخبر اليقين، هناك موسوعات مُتنقِّلة، والـ CV حاضر، سأهيئ لك ملفاً كاملاً عن الموضوع .

- يا إلهي .. ألهذا الحد أموركم معروفة فيما بينكم ؟

- ليس لهذه الدرجة، لكن ليس صعباً أن أُعلمَكَ بما تريد معرفته .

- ما الذي يجب أن أقوم به الآن ؟

- ادخل إلى المواقع الإلكترونية الخاصة بنا، تعرَّفْ عن بعد، لا تلتقِ بأحدٍ منهم، تواصلْ فقط عن طريق الشابكة، وفي مرحلة لاحقة سأعرِّفُكَ بمن يمكنه أن يفيدك أيضاً .. لا عليك .

- يم .. حَدِّثني عن طفولتك، عن ولادة هذا الميل لديك، عن

تجربتك الأولى .

بانتْ على وجهه كآبة حاصرته فانداحتْ أغنيةُ المرارة العميقة في نفسه، قال :

- أمضيتُ سِنيّ عمري بعزلةٍ إرادية، كانت غرفتي مُذْ كنتُ طفلاً صغيرًا، كهفًا رخوًا رطبًا تسكنُهُ ظِلالَ أجسادٍ غَجرية، استسلمتُ لرائحةِ عطر أول جسدٍ رجوليٍ انقضّ على ما كنتُ أتفنّنُ في صُنْعِه من رؤىً وخيالات، عزَّزَ ما برعتُ فيه من خَلْقِ صور، فارضاً واقعَ الدمعِ والدم، في غرفتي المعزولة كانت الفتنة والغواية " ألف باء اللعبة " هكذا اكتشفتُها، كانت لحظات عاصفة قلبتْ كياني رأسًا على عقب، بطلُها خياليَ الجامح الذي التقى بصديقٍ افتراضي فأغواه، ومع الأيام كانت الآهات كالأثلام تحفرُ جدارَ الغرفة المُطلَّة على الشارع، لأمضي قسطًا من الليل برفقةِ جسدٍ فاتنٍ رأيته نهارًا فأستسلم لفحولته وأنكبُّ على وجهي فوق السرير وأجترُّ التأوّهات ...

- بعيدًا عن الخيال .. متى كان الفعل الأول ؟

- قبل الفعل الأول، لديَّ ما أثَّر في نفسي، أودُّ أن أقصَّه عليك، كنتُ أزور صديقًا لي في دمشق بشكلٍ دائم، وقد دُعيتُ إلى حفل عيد ميلاده الذي حضره العديد من أصدقائه ومعارف أهله، هناك .. انتبذتُ ركنًا قَصيًا وبدأتُ باختيار الأغاني التي يرقصون ويهلِّلون على أنغامها، لم أكن مُلتَفِتًا لأحدٍ من الحضور، لكن أحدهم انتبه

لوجودي، لمحته يطيل النظر إليّ، وبعد قليل دنا مني وهمس في أذني طالبًا أغنية جوليا بطرس " حبيبي " استجبتُ لطلبه، فعاد إليّ بعد لحظات من بدء الأغنية ليطلب مني أن أشاركه الرقص، كانت عيناه تفيضان وَلَهًا ورغبة، اعتذرتُ منه، رجع إلى مكانٍ اختاره ليكون بمواجهتي، كان قاصداً أن يلفتَ نظري إليه، وبعد قليل أومأَ لي بغمزة من عينه، وابتسامة رقيقة، كان الشابُ جميلا بالفعل، ما فاجئني بعد الحفل أنَّ مدام عَزَّة، والدة صديقي، تطرح موضوعه على مسمعي، ذكرتْ أنه كان مرتبطًا بشاب خانَهُ فقرَّرَ تركه بعد مشاجرات وقعتْ بين الاثنين، تَقصَّدتُ عدم فهم ما ترمي إليه، فسألتها ما يعني أنْ يرتبطَ شابٌ بشابٍ آخر، وهنا أفاضتْ بما أربكني وأراحني، حَدَّثتني أنَّ الأمرَ طبيعيٌ ولا يَدَ الإنسانِ فيه فهو ميلٌ فطريّ، والإنسان ليس مُضطرًا لخوض معركةٍ مَعَ غريزته الطبيعية، بل يجب أن يكون مُتصالِحًا مع نفسه ويحقق لها ما يريحها دونما تعقيد، انتهتْ زيارتي لهم سريعًا بعدها لأعود إلى بيتي الريفي وغرفتي المنعزلة، لأفكّرَ فيما قالته مدام عزة، كنتُ أعرفُ أنها مُتَحضِّرةٌ ومُتسامِحةٌ ومُنفتِحةٌ بتفكيرها، لكن ليس في أمر كهذا، سرعان ما تذكَّرتُ سامر، وكان بطل تلك الليلة، وفي زيارة أخرى لبيت صديقي كان سامر حاضرًا أيضًا، في تلك الليلة، فاجأني خروج مدام عَزَّة المباغت من البيت، بعدما همس في أذنها بضع كلمات، فابتسمتْ له وغادرتْ مُمسكةً بيدِ طفلها الذي كنتُ ألاعبه طوال الوقت، كان صديقي غائبًا، ولم يكن في الأمر ثمة غرابة، فالعائلة تعرفني جيدًا، ولم يكن هناك

تجربتك الأولى .

بانتْ على وجهه كآبة حاصرته فانداحتْ أغنيةُ المرارة العميقة في نفسه، قال :

- أمضيتُ سِنيّ عمري بعزلةٍ إرادية، كانت غرفتي مُذْ كنتُ طفلاً صغيرًا، كهفًا رخوًا رطبًا تسكنُهُ ظِلالَ أجسادٍ غجرية، استسلمتُ لرائحةِ عطر أول جسدٍ رجوليّ انقضَّ على ما كنتُ أتفنّنُ في صُنْعِه من رؤىً وخيالات، عزّزَ ما برعتُ فيه من خَلْقِ صور، فارضاً واقعَ الدمعِ والدم، في غرفتي المعزولة كانت الفتنة والغواية " ألف باء اللعبة " هكذا اكتشفتُها، كانت لحظات عاصفة قلبتْ كياني رأسًا على عقب، بطلُها خياليَ الجامح الذي التقى بصديقٍ افتراضي فأغواه، ومع الأيام كانت الآهات كالأثلام تحفرُ جدارَ الغرفة المُطلَّة على الشارع، لأمضي قسطًا من الليل برفقةِ جسدٍ فاتنٍ رأيته نهارًا فأستسلم لفحولته وأنكبُّ على وجهي فوق السرير وأجترُّ التأوّهات ...

- بعيدًا عن الخيال .. متى كان الفعل الأوّل ؟

- قبل الفعل الأول، لديَّ ما أثّرَ في نفسي، أودُّ أن أقصَّه عليك، كنتُ أزور صديقًا لي في دمشق بشكل دائم، وقد دُعيتُ إلى حفل عيد ميلاده الذي حضره العديد من أصدقائه ومعارف أهله، هناك .. انتبذتُ ركنًا قَصيًّا وبدأتُ باختيار الأغاني التي يرقصون ويهلّلون على أنغامها، لم أكن مُلتَفِتًا لأحدٍ من الحضور، لكن أحدهم انتبه

تعقيد، و ثِق بأنَّ عَرْضَ سامر للأمر لم يأتِ من فراغ، لو لم يشعر بأن في داخلك ما يماثله لما تجرَّأ على مصارحتِنا برغبته .

- لم يبقَ أمامي حينئذ إلا أن أجيبَ وأحدِّدَ موقفي، طلبتُ منهما أن يتركا لي فسحةً لأفكرَ في الأمر، عدتُ سريعاً إلى بيتي، حيث مرتع الخيال وانفلات الرؤى، قمتُ بسدِّ الفُرجة التي كنتُ أحدثتُها في الجدار، وانكفأتُ أفكرُ بسامر .

- في اليوم التالي، اتصلتْ بي مدام عزَّة لتخبرني بأنَّ سامر سيحضر مساءً ليسمع جوابي، حين رأيته، كان أشبه بعريس في ليلة زفافه، أعاد على مسمعي ما هو راغبٌ به تجاهي، فانبريتُ دونما خجلٍ لأؤكدَ له استعدادي أن أكون معه بشرط، ألا أكتشف كذبًا منه أو غشًا، وعدني، ومضينا لأيامٍ نخرج سويًا، اهتمَّ بي وبكل تفصيل يَعنيني، ولم أشأ مرةً أن أسأله عمن كان مُرتبطًا به سابقًا، وبعد مرور عدة أيام، اعتذر عن لقائي به لانشغاله مع عائلته، فخرجتُ بعد عملي لأُمضي قليلاً من الوقت ريثما يحين موعد انطلاق الحافلة المتجهة صوب قريتي الصغيرة، وحين مررتُ في زقاقٍ ضيقٍ يبعدُ عن بيت صديقي مسافةَ خديعة، رأيته في سيارته وقد جلس إلى جانبه شاب لا أُعرفه، اتصلتُ به على الفور، ردَّ بصوت خفيض مُرتبك، سألته أين هو، أجابني بأنه في السرير يشكو من صداع ممض، قلت له : لا .. أنت بسيارتك وإلى جانبك شاب، انظر إلى يسارك سامر ستراني، وحين التفتَ إليَّ ورآني، لوَّحتُ له مُودِّعًا ومضيت، اتصل بي مرارًا ولم أرد، وفي اليوم التالي اتصلتْ

مدام عزَّة، لتخبرني أن سامر يريد رؤيتي ويجب أن أحضر على الفور، ذهبتُ، حاول تبرير موقفه بأن الشاب الذي كان معه هو ارتباطه السابق وكان مُتشاجِرًا مع من ارتبط به مؤخرًا وأراد أن يساعده في حل المشكلة بينهما، ضحكتُ بسخرية، طلبتُ منه أن ينسى ما كان بيننا، وبأني لست صغيراً أو ساذجاً لأُصدِّقَ حكايته، حاولت مدام عزَّة أنْ أمنحَهُ فُرصةً أخرى ولا أخرِّب الأمر من بدايته، اعتذرتُ منها، ومضيت .

استوقفتُ يم عن إتمام حكايته، رنوتُ إلى ساعتي، اكتشفتُ أن لا مجال أمامي سوى تسع دقائق وإلا فاتتني الحافلة، فزَّ يم من جلسته كالملدوغ وخرجنا مسرعين .

أثناء قيادته قال لي وهو يُمعنُ النظرَ في السيارات أمامه ليجدَ مَخرجاً لسيارته من بينها ونتخلَّص من بطئها :

- هل أخبرتُكَ ليلةَ أمس أنَّ أدونيس كان حبيبي السابق .

بُهِتُّ .. وقلتُ :

- لا لم تقل لي ذلك .. أحقاً تقول ؟ لا يظهر عليه ذلك أبداً، إنه مختلف عنك .

استدركتُ ما أخطأتُ بقوله :

- آسف يم، إنه مختلفٌ عنكَ تماماً، ربما لو لم تصارحني بأمرك

لاكتشفتُ ذلك بنفسي، لكن أدونيس لا يظهر عليه أبداً أنه مثليّ .

- معك حق، لستُ ضدَّكَ فيما تقول، أعلمُ أني شابٌ ناعم .

- عذراً منك، ولكن ألم يضعك هذا في دائرة الشك ؟ .

- هذا أنا يا قيصر، حاولتُ، لكن لم أنجحْ في كَبْحِ ما اعتدتُ أن أكون عليه، هذا تكويني، لاشك أنني تأثّرتُ مُذْ كنت صغيراً بصحبتي للفتيات وبوجودهن حولي دائماً، افتقدتُ وجودَ الرجلِ في مراحل كثيرة من عمري، حتى في المدرسة لم يكن لدي أصدقاء، كنت أمضي الوقت كيفما اتفق، وهذا كله أثّرَ في تكويني الداخلي

- أدركُ ما تقول، أخبرني الآن .. ما قصَّتُكَ مع أدونيس وكيف انتهيتما ؟

- سأخبرك بكل شيء، لكن ليس الآن، حاذِرْ يا قيصر، كل ما أخبرك به عن أصدقاء مثليين، يظلُّ سرّاً بيننا .

- هذا بديهي .. لا تقلق .

- يبقى أن أقول لك قبل سفرك ما يوضح وجهة نظري فيما أعتبره خاصاً ببرنامجك .

- تفضل ..

- الواقع يؤكد أنه ليس بمقدور أحد إنكار وجودنا، إن كان محدوداً

ومقيداً أم مُنفلتاً وحراً، تماماً كما اللباس المطاطي الذي يرتديه من يريد الغوص في أعماق البحار، لكن العبرة في تناول الموضوع إن كان يتم في السر أم في العلن، ألا يرتدي البعض منا " الستريتش " ليأخذ الجسد حدوده الطبيعية ؟

- المشكلة يا صديقي تكمن في طريقة تعاطي المجتمع مع كل ما يتصل بشؤون أفراده، قل لي بالله عليك لماذا يتمنَّع المجتمع عن النظر في أمراضه ؟ ألم يحن الوقت بعد لمواجهة كل ما من شأنه أن يوسِّع الجراح ويعمِّق وجودها ؟ ما الذي يمنع من إظهار أمراضه السرطانية على السطح والشروع في معالجتها بدلاً من تركها تنتشر بصورة مُفجعة ؟ ما دامت تنسلُّ في الخفاء، لماذا لا نواجهها في العلن ونجد طرق الحد من تضخُّمها وما يثار حولها ؟ تلك الأسئلة وغيرها ربما تثيرها أنت في برنامجك ولكن السؤال الكبير : هل ستجد إجابة عليها وتفاعلاً مع ما سوف تطرحه ؟

- سأحاول صديقي .. قدر المستطاع، أشكرك يم، يبدو أننا وصلنا إلى المحطة ويجب أن أتوجه فوراً إلى الحافلة ..

(٨)

ولجتُ إلى العالم الافتراضي، لأبدأ الإعداد لبرنامجي الجديد .

صدمةٌ كبيرة تلقَّيتُها .. لم أصدِّق ما رأيته وقرأته على موقع تواصل للمثليين، أشار عليَّ يم بضرورة زيارته .

تنوّعٌ صارخٌ يكاد أن يسبِّبَ الهَوَس والجنون لمن يراقب عن بُعد .

أيُعقل أن ألج هذا العالم ؟!! ..

أمراضٌ مُتفشية، عباراتٌ فاضحة، صورٌ لأجسادٍ عاريةٍ يعرضُها أصحابُها وكأنهم في سوق نخاسة، شذوذٌ حقيقي عند البعض، وأحلامٌ ورديّةٌ عند البعض الآخر، منهم من يدرك ما يريد ومنهم الماجن العابث الشهواني، فيهم الصغير ومنهم الكبير، منذ متى وهؤلاء هنا ؟! كيف حدث وأمسى المجتمع بأسره هنا ؟!

صَدَقَ يم فيما قاله لي، يبدو أنَّ الغائبَ عن مصيدة المثليين حاضرٌ هنا بشكل افتراضي .

ولكنْ .. لمن يتبع هذا الموقع ؟ كيف يُسلِّم رواده بأنَّ مَنْ أنشأه لا غاية

له سوى حشرهم هنا بغاية التعارف وإقامة العلاقات فيما بينهم ؟ على ما يبدو ليس هذا الموقع الوحيد للمثليين، ربما باتت مواقعهم أكثر من أن تُعدُّ وتُحصى، كنتُ أعلم سابقاً أن هذه المواقع محظورة هنا، لكن يبدو أن الراغبينَ بولوجِها أصرّوا على إيجاد الحلول لرفع الحظر عنها، ومن ثم تُرِكَ الحبلُ على الغارب وأُتيحتْ لتكون مُتنفَّساً لهؤلاء اللاهثين لإطفاء شهواتهم .

جِلْتُ بين صفحات المشتركين لأطَّلع على محتوياتها، منهم من كشف شخصيته ونشر صوره دونما وجل، ومنهم من تخفَّى مُكتَفياً بإبراز أجزاءٍ من جسده أراد التركيز عليها لإغواء زائريّ الموقع .

تَعريةٌ لكلٍّ كَبْتٍ بين أفراد هذا المجتمع، فَضْحٌ وكَشْفٌ لكلِّ ما يَجهدونَ في إخفائِهِ ضمن الحياة الواقعية، بقدر ما هو عالمٌ افتراضيّ .. يبدو أنه أشد واقعية مما نراه بأمِّ العين على خشبة مسرح الحياة !! .

استوقفتني بعض الصفحات لروّادٍ أعضاء كتبوا في صفحاتهم عباراتٍ يندى لها الجبين خجلاً واستنكاراً من الدونيّة والانحطاط الأخلاقي، وعبارات أخرى مُنمَّقةٍ مُنتقاةٍ بعنايةٍ و بودٍّ ظاهر، أتراهم صادقون فيما كتبوا أم أنهم عابثون أرادوا الوصول لغاياتهم فقط ؟ .

أحدهم سجَّل جملةً أثارتْ فضولي : " الجميع هنا على قيد الحياة، ولكن مَنْ مِنهم على قيد الإنسانية ؟ " وآخر كتب : " لا تَبِعْ من باعَكَ، قَدِّمه هدية لغيرك، أو اكتبْ عليه : بضاعة مستعملة " وآخر دَوَّنَ على صفحته

: " الحب كذبة اخترعها روميو لكي .... جوليت " .

طفتُ أكثر فأكثر في حسابات المشتركين، مُمعِناً في مقاصدهم، منهم من تسبَّبَ لي بالنفور، ومنهم من صاغ عباراته بدقة عالية، لكن لا يمكن تقدير مدى الصدق في الكلمات، يبدو أن الكلمات هنا لها ميزانها الخاص، أحدهم كتب : " جَدَلي في الحياة أن أحبك وأكرهك، لا أستطيع ترجيح أحدهما أو إلغاءه .. أنت قدري " .

وآخر استفاض فيما تركه لروّاد الموقع فكتب : " ويبقى الأمل، يكفي أن تكون إنساناً بالفطرة، ليس لدي حب للأزمات كما لا أمتلك موهبة الخداع والتسلية، من بعد تجاربي أقول : إن سوء الفهم يمكن أن يقع بيننا لاختلاف طريقة التفكير أو القناعات والأمزجة، يجب أن نتقبّل بعضنا بعضاً، فلكلٍّ سلبيات، وهذه طبيعة البشر، آمل آلا أزعج أحداً أو يتسبَّبَ لي الآخرون بجرح، أميل إلى الرومانسية وأرغب أن ألتقي بمن يشبهني من الداخل، ولو بشكل نسبي " .

رتَّبتُ صفحتي كما أريد، كتبتُ معلوماتٍ مُقتَضَبة عن شخصيةٍ وهميةٍ لأتواصل من خلالها مع رواد الموقع الذي يجمع مثليّي العالم فيه، وما إنْ حَدَّدتُ المدينةَ التي أقيم فيها، واستكملتُ المعلومات المطلوبة لبناء صفحتي الخاصة حتى بدأت الرسائلُ تَنهالُ عليَّ كما حجارة سجّيل، ما السبب في ذلك يا ترى ؟ أهي الصورة التي اخترتُها من الشابكة ؟ أم البيانات التي حدَّدتُها ؟ أم أن الأمر لا يعدو عن هَوَسٍ بقادمٍ جديد لا أكثر ؟!!

بدأتُ بقراءة ما وَرَدني من رسائلَ على الفور، منهم من كان قريباً فعاجَلَ بطلبِ صوري لنتَّفِقَ لاحقاً على لقاء، ومنهم من كان في بلدٍ آخرَ فكانت رسالته دعوة للتواصل على برامج المحادثة التي تمكّنُ المرءَ من رؤية الآخر وسماع صوته حتى لو كان في أقصى نقطة من العالم .

سأحادثُ يم لأروي له ما يجري .

ضحك بقوة .. وقال :

- ما الذي كنتَ تَظنُّه ؟ ألم أقل لك إن هذا المجتمع واسع وعريض وربما تكتشف وجود أشخاص تعرفهم على أرض الواقع، حاذرْ أن ترسل إلى أحدهم صورتك فتُفضَح .
- ماذا تقول ؟!! وهل أنا جاد في دخولي إلى الموقع حتى أرسل صوراً لي ؟!! .
- حسناً . اكتشفْ بنفسِكَ أسرارَ هذا العالم، ربما تجد أحدًا ممن يحيطون بك في حياتك العامة، لكن لا يَجرؤ على الإفصاح عن رغباته وميوله وما يودُّ الحصول عليه لإشباعها .
- آمل ألا أعثر على أحدٍ أعرفه، لكن قُلْ لي .. ماذا أفعل بشأن الرسائل التي تَردني تباعًا ؟
- رُدْ على أصحابها واكذبْ فيما ترسله من معلومات عنك، هو عالمٌ مُتخَمٌ بالكذبِ والخداعِ والغش، للأسف نحن من جعل هذا

الافتراضي يطفحُ بكل ما هو سيء وكريه .

- خطر لي أن يكون لدى يم هدفاً آخر لقاء مساعدته لي، قلت له :

- وما الذي سأستفيد منه ؟ يم .. لا أرى فائدة من استمرار دخولي إلى هذا الموقع، كما لا أريد أن أتلاعب بأحد .

- إنْ أعجبَكَ أحدهم تعرَّف إليه، وإنْ لم يعجبك ..

- ما الذي تتفوّه به يم ؟!! على أي أساس سوف يعجبني أحدهم ؟ على كل حال، نتحدَّثُ في الأمر لاحقاً، شكراً لك .

- لحظة من فضلك .. ألا تريد أن تحضر إحدى الحفلات التي يقيمها المثليّون في دمشق ؟

- وهل يقيمون حفلات خاصة بهم ؟

- أجل يا صديقي، هذا من ضمن ما اعتادوا عليه، كما أن لهم أماكنهم الخاصة التي يرتادونها، ألا ترغب بزيارتها لترى عالمهم عن قُرب ؟

- سأفكِّرُ في الأمر، يجب أن أطَّلعَ على تفاصيلهم كاملة، لكن كيف سأفعل ذلك ؟ إنْ حضرت في أماكن تواجدهم عرّضتُ نفسي لما لا يُحمَد عُقباه .

- لا تقلق، سأجعلكَ تتنكّر، وسوف أساعدك في تغيير شكلك ولن يتعرَّف عليك أحد .

فكرتُ لبرهة فيما يقوله لي يم .. ران صمت بيننا للحظات، حَسِبَ يم أن الاتصال بيننا قد قُطع ..

- ألو .. قيصر .
- أنا معك .. كنتُ أفكر لا أكثر .
- بماذا تفكر ؟
- يمكنني حضور إحدى حفلاتهم، أرى أن زيارتي لأماكنهم غير ضرورية، التنكُّر سهل في الأولى، لكن لستُ مُضْطرًا لزيارة الأماكن الأخرى لهم .. ما رأيك ؟
- سوف أسألُ بعض الأصحاب عن حفلٍ قادمٍ لهم وسنكون هناك معاً، ربما الأحداث التي تشهدها البلد تمنعهم حالياً من إحياء أي حفل، فإن كان الأمر كذلك حدَّثتُكَ حين أجتمع بك عن الحفلات التي سبق لي أن حضرتها، لكن حينئذ يجب أن تزور الأماكن الأخرى حيث يجتمعون .
- اتفقنا .
- بالمناسبة، هبة الله تهديك التحية، أراها مُهتمَّة بك ..
- اشكرها بالنيابة عني، لا لا .. ما رقم هاتفها لأشكرها بنفسي ؟ .

(٩)

في صبيحة اليوم التالي، حادثتني ألما و دَعتني للقائها في كافيتريا قريبة من مكان عملي، التحقتُ بها، وحينما رأتني أمامها هلَّلتْ بي، ضمَّتني إلى صدرها وقبّلتني .

تحدّثنا في أمور كثيرة، أحسستُ أنَّ روحي مُنطلقةٌ في فضاءٍ لا محدود من التفاؤل والحب وقد انتثرتْ الورود من حولي، لكن اتصالاً ورَدَها من ابنتها الصغيرة جعلني أسلك درباً مختلفة غيّبتني قليلاً عنها، لكنها سريعاً ما أعادتني وهي تقول :

- بماذا تفكر ؟ هل أتيتَ لتَشْرُدَ بحضرتي أيُّها الإعلامي الجميل ؟ .

ابتسمتُ لضحكة عينيها وهمستُ :

- ألما .. لم تحدِّثيني عن زواجك، لِمَ قلتِ لي : سألحق بك قريباً ؟

أطلقتْ ضحكتها التي أعشقُ وعينيها في خطابٍ جريء وجَّهتهُ مباشرة لي :

- يا " أزعر " .

- أنا أيضاً ؟؟

- من " أزعر " غيرك إذن ؟

- صديقي يم .

ضحكنا .. أكثر ما يميز صداقتنا، أننا نتحاورُ كطفلين شَدَّهُما التَوْقُ لاختراقِ عالمٍ مجنون، وقد أخبرتني يوماً أنها مجنونةٌ في الحب، فهل جنونها الآن ما يدعوها لاختراق عالمي لتبثَّه لي وحدي أم لتفكَّ الأسر عن روحِها المقيَّدةِ ؟

لم تَكشِفْ لي ألما شيئاً عن خلافاتها مع زوجها، وهذا ما دعاني لأن أحترمها أكثر، ليس من المقبول لديَّ أن تُحدِّثَ الزوجةُ أحداً بتفاصيلِ حياتِها الزوجية خاصة إذا كانت الخلافاتُ بينهما مُحتدِمةً، اكتفتْ بالقول :

- لا أريدُ أن أعكِّرَ صفوَ جلستنا، المشاكل كثيرة وأريدُ أن تكون جلستنا خارجَ نطاق هذا الكون .

- فلنحلِّقْ معاً في سماء صافية لا يُعكِّرها ما ينشغلُ به البشر .

- ملاكَين ؟

- لِمَ لا ؟ تُدركينَ أنَّكِ قريبةٌ جداً من روحي، ومعك .. أشعرُ أنَّ لي جناحَينِ من نور .

- لكن انتبه ربما أحمل مكنسة وأختبِئُ في ثنايا شعري " فتّيشة " وأطير فوق المكنسة .

- يا للكِ من شريرة .

(١٥)

وصلتني رسالة من يم على بريدي الإلكتروني تحت عنوان " حكايتي مع أدونيس " وهذا نَصُّها :

تعرَّفتُ عبر الشابكة على أدونيس قُبَيل مجيئي إلى محافظة اللاذقية، كان مُقيماً في حلب، وعندما ساءت الأوضاع الأمنية والمعيشية هناك بعد دخول المسلحين، لحق بي، ظننتُ أنَّ حُبَّنا هو الدافعَ الأكبر لحضوره .

في اللقاء الأول، كانَ البحرُ يمتدُّ أمامَ ناظريّ حتى حدودِ الجنّة، الشاطئُ الرَّمليُّ بدا مُحرِّضاً قوياً على ملامسةِ نبضِهِ المتسرِّبِ حتى شراييني، الموجُ المنتشي بدفءِ أشعةِ الشمسِ شَجَّعَ الزَبَدَ على التقافز والرقصِ على إيقاعِ قلبيَ المشرق، حالةُ تَوحُّدٍ غريبةٍ مَعَ هذا البحر الذي أعشقُ تُسرِّبُ إلى كياني، الرَّابضِ فوقَ صخرة، إحساساً مُشبَعاً بامتلاكِ الكون، نظراتي شاردةٌ فيما وراءِ المنظور، طمأنينةٌ تَشيعُ في نفسي المحلِّقةِ معِ الغيمِ السابحِ في سماءٍ شفيفة .

كاد المنتجع يخلو من أي زائر، لكن ما دعاني للقدوم هو من جلس إلى جانبي وشاركني متعة اللحظة، كنتُ أرنو إلى عينيه فأجدهما بحراً آخرَ

لا قرارَ له، زُرْقَةُ حدقتيهما تلوّنُ عالمي بألوانِ قوس قزح، حاولتُ مِراراً الخوضَ في تفسيرِ ما أرى فيهما مِنْ دِفءٍ فلا أجدُ، أجرّبُ التجديفَ حباً بالإبحارِ فيهما فلا أستطيعُ، وقفتُ مَذهولاً مِنْ فرط ما تشيعانه من إحساسٍ بالحنان المضمّخِ برائحةِ النرجس، تبتسمانِ لي بُعَيد محاولتي فكَّ شيفرة النَّظرة الثاقبة التي تَشي بذكاءٍ مُتّقد فيهما، فأراني أُكشَفُ لأغدوَ مَفهوماً دونما حاجةٍ لأي قاموسٍ أو معجم، أُحسُّ بملمسِ أصابعه الممتدة بحنوٍ فوقَ ظاهرِ كفّي، فتسرّبُ حناناً أفتقده و جوعاً إلى ما يجعلني مُتوازناً بعد تَسرُّبِ سني عمري من غربالِ حياتي الكئيبة، أسلِّمُ لنسائم لمساتِهِ شراعيَ المبحر مع هديرِ عينيه، أبادلُهُ الابتسامةَ هامِساً بأنني لم أعد بقادرٍ على ضبطِ إيقاعي الهادئ والعومِ أكثر وسط بحرِ الرومانسية التي تشيعُ في أركان المكان ونفسي، فيضحكُ وأكتشفُ كَمْ هي رائعةٌ ضحكته، يبادرني قائلاً : خشيتي تزيدُ على ما يفوقُ قدرتكَ على ضَبْطِ نفسك، وربما إنْ بَقينا هنا أكثر تجدني لا أكترثُ بمن قد يظهر أمامنا فجأة .

أقولُ وقد عَلَتْ ابتسامةٌ خجولةٌ وجنتيَ : هيا بنا إذن ندخل الشاليه، فما عدتُ أحتملُ بُعْديَ عنك .

كانتِ الرمالُ تحتَ أقدامِنا تزدادُ سخونةً كلَّما تجاوزنا الخطوة فترسمُ شوقاً مُلتهِباً وتتسارعُ خفقاتُ قلبينا، أنظرُ إلى موقع الشاليه مُستغرباً بُعْدَه .

بعد لحظات، ولجنا المكان الذي سنبثُّ فيه أوجاعَ المشتهى، ونلقّنُ فيه درساً قاسياً للمسافاتِ التي كانت تفصل جسدينا عن لقائهما دونما

حرج، لحظات من عمرِ الزمن الذي ربما فيه ظلمتُ نفسي عندما كنتُ غير متصالحٍ معها فكبتُّها عن رغباتها، ولم تكُن طاقة الفرج إلا عيناي وما تُطلقهما مِنْ نظراتٍ فيها الشهوةُ لغة وحيدة وعقيمة بذات الوقت، والشهوةُ في النفسِ مُحرِّكٌ قوي لإتيانِ المحظوراتِ إنْ لم تجد ما يردعها، وقد كنت أفعل ذلك خلال المراحل الأولى من عمري، لكن ما قرَّرته فيما بعد أنْ رميتها في جُبٍّ عميق قاتم وكئيب، والآن .. حان الوقتِ لأُفلِتَ عن الشهوةِ عقالها وأفتِّتَ قيودَ عُمْرٍ مَرّ .

كل ما كنتُ أهواه ولم أتوقَّعُ حدوثَهُ، عشته معه، أحسستُ به على مدارِ اللحظة، وفي كل نأمة وحركة وتفصيل، مشدوهاً بقيتُ للحظات بعد أن رسمنا معاً لوحة غاية في الإبداع، الألوانُ كانت واضحةً دون ظلال، فالظلُّ يترك سواداً وإنْ خفَّ، ولسنا بمعرضِ تَرْكِ السواد في لقائنا هذا، لم أرِدْ التفكير بأي أمر، تركت نفسي لما تهواه وتريده، وأحسستُ به يغوص في بحري دونما حاجة لأي أوكسجين، ما يعتملُ في قلبينا كان كفيلاً بخلق أروع اللوحات التشكيلية، وعادت اللمسات تغذِّي الجسدَ بما يحتاجه من جرعات حنان، وهذا ما أكَّدَ لي حبه، فلستُ أداةً لبلوغ الشهوة ولن يكون هو كذلك، نظرات عينيه تبدو أكثر توهُّجاً و رِقَّة، كلامه الدافئ يبعث في نفسي وثوقًا بما هو آتٍ معه و له، أمسكتُ بكفِّه واحتضنتها، قبَّلتها وكنت في ذلك أحقِقُ حُلمًا زكيًا طال انتظاري له، وَقْعُ أنفاسهِ في أذني يزيد في إشعال ما تبقَّى من يأسٍ في روحي ليزهق روح اليأس من ملاقاة إنسان يهوى ما أهواه ويعشق ما عشت عمري أنتظره، قلت له :

- كم أعشق عينيك و زُرقتهما .
- يا سيّد زُرقَتي ومائي، سأُغْرِقُكَ وأغرقُ فيك، لتذوبَ وتصيرَ مِلْحي

وعانقني من جديد ..

لقاءٌ بهيٌّ جمعني بأدونيس، تكرَّرَ بعد أيام قليلة في شقتي، استطاع خلالهما أن يأخذني بعيداً عن أي مكان يمتُّ إلى الواقع بصلة، عانقني عناقاً حاراً، قبلاتنا كانت اللغة التي اخترناها في تلك اللحظة للبوح بما اعتمل في قلبينا طوال فترة غيابنا، حدَّثني عن عمله السابق في مكتبه الهندسي، وعن الظروف القاسية التي تعرَّضَ لها فأوقفتْ كل مشاريعه، وتسبَّبتْ له بخسائر كبيرة .

كنتُ أتوق لرؤية جسده عاريًا؛ وكان رائعًا حينما رأيته، احتضنني بشوق كبير وغمرته بدفء مشاعري وحنيني لملاقاة روحه العذبة وجسده الرجولي الذي أعشق، خُضْنا في حديثِ الجسد، الأيدي تَحارُ في أي موضع تستقر، ولا تعرف مُستَقرًا لها وسط بحرٍ غمرنا بموجه الهادر، بتنا كشمعتين تلاصقتا وذابتا وَجْدًا وهُيامًا، إحساسي به يكبر لدرجة أنني أحسستُ امتلاكه لجسدي وقد بات له وحده، رجوتُهُ أنْ يُبْقي جسده لي ولا يدع أحدًا بعد اليوم أن يدنو منه، فلا أريد لبصماتِ غيري أن تلامسه أو تستمتع بما أستمتع به، وبذات الوقت وعدته وعاهدت نفسي أمامه دون أن يطلب أو يتفوَّه بكلمة، بأن أكون له وحده، لن أترك فسحة لأي كان لكي يناور معي في هذا الحديث، قررتُ لحظتها أن أقدِّسَ جسدَهُ وأُبْقي جسدي بعيدًا عن

متناول غيره، مهما باعدت بيننا الأيام، وكان اللقاءُ بيننا طويلًا .

غازلتُ، ثرثرتُ، بما أُحبُّ ويَهوى، بهمسٍ، وبخفيفِ شهوةٍ، أسمعتُهُ ما أبقى لُغتي حيَّة لا يدركها إلا حريق الرغبة، أدركتُ أن الحبَّ حين يداهمُ القلبَ، فلا تفسير لما يتَّخذه المحب من دور، الأمر لا يتعلَّق بِرجولة كاملة أو منقوصة، ما جرى لم يَمُسَسْ رجولة أحدنا أو ينتقص منها، فالحب هو المحرك الأساسي، وحدها الرغبة تحدِّدُ أي وجهة يسلكها المحب، وأي تفاصيل يهواها دون غيرها، الأمر محسوم، لذا ما كنتُ أمارس الجنس مع أحد دونما مشاعر طاغية وقوية، وإن كانت آنيّة فيما مضى، إلا أنها مع أدونيس .. مستمرة ما دامت الأرض كروية الشكل، فيضُ الشهوةِ لم أكن لألتفت إليه إرضاء لجسدي والتعتيم على مشاعري، فالجنس الذي يخلو من المشاعر أقرب إلى الأداء الآلي أو الشهواني الذي يفرغ منه أي محتوى بمجرد انتهائه، وهذا ما كنت أصرُّ على رفضه، وعشقي لأدونيس ليس لارتباطي الجسدي به فقط، فما أكنُّهُ من مشاعرَ حُبٍّ صادقة وقوية، كان أكبر وأنقى من أن يُصارَ إلى وضعها بأية خانة مما يُثار في أجواء المثليين، لذا كنتُ متصالحاً مع نفسي، وأعرف ما أريد حتى بجزئيات الممارسة الجنسية وانعكاساتها على النفس، وما كان يريحني ولا يسمح لظلال الندم بأن تتسرَّبَ نحوي، أنَّ اعتباري للمثلية تختلف عن اعتبار الكثيرين لها، فلم أكن برجل تَنقصه ملامح الرجولة، رغم أنني شاب ناعم لكن النعومة في الحديث والتعامل، ولم تكن الرجولة يوماً بنظري في الفحولة الذكورية التي يتباهى بها معظم الرجال خاصة في مجتمعاتنا الشرقية .

التفاصيل التي كنتُ أول من بدأ بولوج عالمها معه، كانت تشكِّل كوني العذب بكل مكوناته واختلاجات نفسي المنفعلة به والفاعلة حتى أقصى حدود المتعة واللذَّة والجمال والحب .. الحب ذاك المخلوق الكوني الذي سبق وجوده خلق أي إبداع للخالق فيما تركه لنا نحن البشر لتكون لنا جولتنا في هذه الحياة ..

يومان مرّا بسرعة كا الشهب في السماء، عدتُ، كأن الحلم ما ابتدأ بعد، بل كان طيف حلم رقيق زارني بضع لحظات ليودِّعَني والدمعة تحفر مجراها في خدّي .

أدركتُ معنى أن أتحدَّثَ إلى أدونيس ويحادثني حينما عدتُ إلى صفحة الدردشة التي كانت تملأ علينا لحظاتنا قبل أن نلتقي، امتنعتُ عن محادثة أحد من معارفي السابقين إن كان برسالة أو باتصال، كنت أجده الحبيب المتعقِّل الذي يدرك ما يقول ويفعل، أدركتُ أنه كان عليَّ التمهُّل في عرض أفكار كثيرة، ما كانت لتغيب عني لولا هُيامي به وعشقي لكل تفصيل يجمعنا معًا، أحسستُ أن حبنا له المكانة المثلى في حياتي ولم أعد أرغب في شيء في الحياة إلا بوجوده معي .

كنت أخبرته ذات مرة أن الدردشة عبر الشابكة بقدر ما تحقق المتعة والتواصل الجميل، لكن تبقى قاصرة عن إيصال الانفعالات بحقيقتها، كنت أجد على الدوام أن حساسيتي في بعض الأحيان كانت مُفرطة، كنت أتأثَّر بالكلمة فأجدني آخذ كلامه على محمل الجدِ في حين كان هو

يقصد المزاح اللطيف والعفوي .

ظننتُ أن روحينا لا يمكن منازلتهما على ما يُكنّانِ من مشاعر صافية رقيقة، اعتبرتُ أنَّ الدَّاخلَ بينهما خاسرٌ لا محالة، والنِزالُ سيكون عاصفاً بقدر ما يجمعنا من حب للحياة بعدما توّجناها بعشقنا ورؤانا، كان ساحراً في عمق إحساسه باللحظة، ومُتفرّداً في لَحَظِها والاكتفاء بها عما يَليها، كثيراً ما قال لي إن الآتي أجمل، وأنا كنتُ واثقاً أن الأجمل معه سيجعل الحياة ولا أروع، وقد كان في بوحه فيما تلا اللقاء الجسدي بيننا مُختصِراً فيما أحسَّ به من نشوة عارمة جمعته بي وكلَّلتْ لقاءَنا بآمال ستمنحها لنا الأيام القادمة .

في لحظة ما، أردتُ أن أقول له : سامحني على استعجالي في بعض التفاصيل، سامحني على نَزَقي في الحب وبرّرهُ لي، فحبي لكَ هو ما دفعني لذلك، وفرحتي بك جعلتني طيرًا حرًا يغرّدُ، يرقصُ، يحلّقُ في حبك وحدك، وأنت معنى الحياة، في لحظة ما، أيقنتُ أن بداخل كل منا طفل يعوزه الكثير من الحنان والحب .

لكنه فجأة، ودونما إنذار أو تلميح سابق، عبَّر لي عن رفضه إظهار الرجل لتلك الأنثى القابعة في داخله، إن كان بتعاطيه مع الآخرين أم مع شريكه في السرير، وسواء كان التشبُّه في الشكل أم في التصرفات وأسلوب الكلام وحتى في طبقة الصوت، وما أحرجني أكثر وبدَّد آمالي، اعترافه لي أن جُلَّ ما يخشاه أن تدفعه أنوثتي المفرطة لإلغائي، وإن حدث واستمرَّتْ

علاقتنا فستكون علاقة باهتة ما لم تخضع لتغييرات ملحوظة لدي، وما كان ليجامل في هذا الموضوع أبداً .

بدأ التغيُّر يفرض واقعه على ملامح علاقتي به، ما كان بإمكاني استيعاب موقفه لأبرّره له ؟ كان صمتُه لغةً عَصيَّةً على الفهم فيما تلا من أيام، أيكون سبب الصمت هي لغةُ الحواسِ التي تَعطَّلتْ ؟ أيكون وهم الحب الجامح ليس سوى حالة اشتهاء قد تطول وقد تقصر ؟!

قضيتُ أيامًا حسبتها سنينًا، لم يكن بمقدوري أن أتصوُّر أنَّه لاهٍ أو عابثٌ أو أن ما باح به ليس سوى حجة لكي يبتعد عني، ولأُصرَّ على حضوره باستمالته للبقاء معي، تأكَّدتُ أن انجذابه لم يكن إلا حالة إدمان على التواصل عبر الشابكة .

كانت الحروف في غيابِه عني تَقطُرُ دَمْعًا، فجعلتُ من الدَّمعِ نقاطًا للحروف .

واصل النشر على موقع Facebook مهملاً وجودي، رغم مُحاكاتي له، تارةً عبر منشوراتي في صفحتي، وتارةً أخرى من خلال ما أبثُّه من رسائل فلا يرد عليها ويتعمَّد الصمت .

" هل ما كان بيننا انتهى بمجرد الوصول إلى ضفة الامتلاء أم أنه لم يكن حبًا في أصله ؟ هل ثمة من انوجد في ساحة أخرى أكثر قُربًا لك مني، أم أنَّ نعومتي تختصر المشكلة وليس هناك سبب آخر ؟ " .

تركتُ له كلماتي تلك طالبًا منه أن يحدِّدَ بدقَّة ما إذا كان يريد صداقتي أم لا، استمرَّ على ما هو عليه، يَنشرُ في صفحته، يُعلِّقُ على منشورات أصدقائه، يضحك معهم، كأنَّ أمري لا يعنيه في شيء، كانت الصدمةُ قاسيةً ومُؤلمة حين أتاني رَدُّهُ الصاعق : " آسف .. أنا شخصٌ مِزاجيٌّ ".

تساءلتُ : هل المزاجية فَصلًا من فصول شخصيته ؟ وإن كانت كذلك، فقد أرهقتْ شتاءَ عيني، ما عدتُ أحتملُ إهماله الجارح على هذا النحو، قررتُ أن أحظرَهُ كصديقٍ على Facebook .

غاب عني رغم حضوره ضمن أعضاء الشبكة، وكنتُ قد سعيتُ مُذْ حلَّ في اللاذقية على إشراكه في فعاليات ونشاطات تُخرِجه من جُبِّ الفراغ المسيطر قبل أن أساعده في العمل بمكتب هندسي، كما عرَّفته على أصدقائي

مرَّت الأيام عصيبة، إلى أن صادفتُ صفحتك على موقع Facebook وبدأتُ أهتمُ بك، بمتابعة برنامجك، بصوتك عبر الأثير، بروحك التي كنت أستحضِرُها لترافقني في لياليّ المترعة بالحزن ومن ثم .. وقعتُ في حبك .

انتهت رسالة يم ..

أغلقتُ جهاز الكمبيوتر بعدما احتفظتُ بنسخةٍ عن رسالة يم، وفردتُ أشرعتي في فضاءاتِ الروح .

ما الذي يَدعوني إلى اقتحام عالم المثليين ؟ وهل سيتقبَّل المجتمع طَرَحَ

هذا الموضوع في برنامجي الجديد ؟ قررت ألا أحسم الأمر قبل أن أنهي الإعداد، و يم هو الشخص الوحيد حاليًا الذي يعلمُ سببَ اقتحامي لهذا العالم .

كانت الكلمات مُتَّكَئاً لي في مواجهةِ عَصْفِ ريحٍ ما زارتني يومًا لكنها هذه اللحظة تكادُ تَقتلعني .. كتبتُ :

" عُذراً .. تُهمَةٌ أنتَ، وما أنا ببريءٍ مِنْك، فصولُ العَبَثِ بأوهامِ الأمل أسقَطَتني شَهوةٌ كَمَطرٍ رَجيم، شَوَّهتني .. وسِجِّيل أحدثَ اختراقاتٍ في مَراياي، ترسمُ انصياعاً لمجونِ فُرشاةِ ألوانك، بمفاصلِ سريرِ خَطيئتكَ الغافية تحت جدار .. عبثتَ فأوغلتَ، رَمَتْني في لَظى التَّشظي .. حماقاتك، بعد تجاوزِ الظِلّ، مَحوتُ على أثّاتِ روحي فتنبَّهتُ، أوجزتُ في تَلقينِ الفضاءِ بَوْحي .. اعترافاتي بريئةٌ مِنْ رِجْسِكَ، أقحمتُ العطرَ في نداءاتي لتصلَ الريح، علَّها تُنبِّهُ غَفْلَةَ النَّرجس، هل ينفعُ النَّدمُ ؟ والوحلُ شَكَّلَ صَلصالَكَ فباتَ جزءاً من جَذْرك ؟ تكاثرتُ عجينةً تنمو على مراجلِ الأثير، لطَّختُ الدَّمَ بالطين، الروحَ بالأنين، الصهيلَ بمدى الوجع وبكيتُ .. لحظةَ الانعتاقِ من قميص الجنون، لستُ أنا .. وأنتَ أنتَ، والصمتُ يقصفُني بضجيجِهْ، العُمرُ لوحة لن أُكمِلَها، أغنية جائعة لبوح الجمر، فاتَكَ تأمُّلي فافتحْ نافذتَكَ لبلوى الريح، واسْكبني لَوْناً على صبرِ السماء، خَجِلاً أبدو، حين أقوى على خمر الريح، أعلنتُ براءتي مِنْك .. أعلِنْ انفراطَ طوقِ النار " .

سَجّلتُ ظهيرة اليوم التالي ما كتبته، لأختمَ به الحلقة القادمة من برنامجي، كان صوتي مجروحًا، نزفَ حزنًا دونما إرادة منّي، وحينما كنتُ أقدِّمُ الحلقة على الهواء اتصل بي يم خلال فاصل إعلاني ليخبرني بأن أدونيس أرسل له رسالة قصيرة عبر هاتفه كتب له فيها :

" إن كنتُ قد سبَّبتُ لكَ جرحاً فقد جرحتني أنت أكثر " .. أردف يم :

- لم يشأ أن يتقرَّب مني أمام أعضاء الشبكة، لم أدرك ما الذي دعاه إلى ذلك الآن، هل اكتشفَ بعد شهرين من الفراق أنني لم أعد ناعماً في نظره ؟! بعد أن أمضى شتاءَهُ بمزاجيةٍ أرهقتْ عيناي بدمعٍ ما فارقني إلى أنْ عثرتُ عليك .

- هل رددتَ عليه ؟

- أجل، أخبرته بأن القلب بات مشغولاً بغيره، طلبتُ منه أن ينسى أمر مناقشة ما كان بيننا، فالجرحُ غائرٌ في روحي بسببه، وما عدتُ بقادرٍ على تَحمُّلِ استذكاره أو الحديث عنه .

- بماذا أجابك ؟

- طلب مني أن أرفع عنه الحظر على ليتمكَّنَ من إرسال طلب صداقة جديد لي، حَقَّقتُ له ما يريد، وحين قبلتُ به مجدَّداً، اكتشفتُ بأنك صديقٌ مشتركٌ بيننا، متى حدث ذلك ؟ حين التقينا مع أعضاء الشبكة لم تكن تعرف أدونيس ولم تتبادلا حديثاً

جانبياً معاً .

- مهلاً يم .. ما الذي تقصده بكلامك هذا ؟ إخبارك لي بأنه مثليّ الجنس لا يعني أنني أرسلت له طلب صداقة عبر **Facebook** على العموم لا أريد مناقشة أي أمر معك الآن، لابد من لقاء بيننا لأخبرك رأيي بما أرسلته لي عن حكايتك معه، انتهى الفاصل الإعلاني ويجب أن أعود .. عِمْتَ مساءً .

ختمتُ حلقة اليوم من برنامجي بالقول :

" غالباً .. حين يقع الفراق بين حبيبين، ينقلب الحب إلى كراهية وحقد، ويصبح من كان حبيب الأمس عدواً أشد فتكاً من المجتمع الرافض لهما وما يربطهما معاً .

إنْ ضَغطتَ على خيار الحذف لا يعني أنك وصلتَ عتبة النسيان في قاموس الإنسان، لكنك بلا شك حققت ما تريد في عالم افتراضي تصرُّ عليه " .

أثارتْ عبارتي تلك و " التُهمة " موجة من التعليقات والاستفسارات على حسابي في **Twitter** و **Facebook** عما أقصده بالتحديد، لم أردّ على أحد، كعادتي حين أُثير إشكالية معينة، وبعد إذاعة الحلقة انهالت الاتصالات مُطالِبةً بإعادتها .

قُدتُ سيارتي عائداً إلى بيتي، الشوارع تكاد تخلو من كائن بشري، ما

خلا العناصر المرابطين على حواجز الجيش التي عجَّ به خط سيري، كانت سرعتي تتجاوز ١٠٠ كم/ساعة وقبيل وصولي إلى كل حاجز أتفاجأُ به، أدوسُ على الفرامل، فتصدر العجلات صوتاً قوياً ليكون عناصر الجيش الذين تنبّهوا إلى سيارتي قُبيل وصولي تجمَّعوا وقد أشاروا إليَّ بواسطة أجهزة الضوء التي يحملونها للتوقُّفِ إلى جانبهم، كنتُ أبادرهم قبل أن يتحدَّثوا إلي قائلاً " تفاجئونني بحواجزكم وقد أسرعتُ لخلو الطريق " وحين يرون بطاقتي الشخصية أمرٌ وقد ارتسمت الابتسامة على مُحيّاهم طالبين مني أن أقود برويّة تَحسُّباً لأي حادث بعد أن يقوموا بتفتيش صندوق السيارة الفارغ .

أسئلةٌ تتبارزُ في رأسي تبدو كإشارات المرور الحمراء التي ما كانت توقفني :

هل اقتحمَ يم عالمي الافتراضي ومن ثم الواقعي لكي يساعد نفسه على تجاوز إخفاقه مع أدونيس ؟ هل كان الحزن لَبوسَ روحه وأمِلَ أن أساعده في الخروج من جُبِّه ؟ هل كان همّهُ أن يخرج من حالة فَقْدِ الأمل، ليبثَّ في روحه جرعةً قويةً من التفاؤل، وارتياحاً بتقبُّلِ ذاته ليغمر قلبه بما كاد يفتقده ؟ والأهم : لماذا يبدو لي يم يوماً بعد يوم غير متوازنٍ نفسياً وبأنه يكذب بشأن تصالحه مع ذاته ؟ ولماذا يستمر بأنوثته التي يُغلِّفُها بقول " ناعم " ما دام يدرك أنه غير مقبول من الكثيرين ؟ .. .. أي يم هذا ؟!!

يبدو أن مجتمعَ المثليين غريبٌ، يسكنون معنا في بيت واحد وسط

هذه القرية الصغيرة، ولا نعرف عنهم شيئاً .

" لَذّة الرّغبة تَتبدّى لنا لأننا ننصاعُ إليها صَاغرين، وفي أعماقِنا نُدرِكُ أننا نَلهو كما الأطفال، لنكسرَ ألعابنا لحظةَ الرّحيل " .. كانت فلسفة آخر الليل، انكسر صوتي على عتبة هذا العالم، وغفوت .

(١١)

عالمٌ قائمٌ بذاته، لا يدري ما يكتنفُ هذا العالم سوى من دخل إليه، حينما كنت أحيا بعيداً عنه، لم أكن أدري ما يمكن أن تكون عليه الحال فيه، كأي إنسان يجهل طبيعة وطريقة الحياة في كوكب آخر .

عالمٌ .. فيه ما في عالمنا من جمالٍ وقبح، من حب وكراهية، عالم مكشوف ومنكشف لمن دخله، ومشوَّه وكريه لمن لم يدخله أو لم تكن له معرفة به .

عالمٌ ما أردتُ ولا تَصوَّرتُ يوماً أن ألجه، قررتُ الدخول إليه بإرادتي، رغم ما يتصارع في داخلي من رغبة تُبقيني حيناً وتُبعدني أحياناً أخرى، ما يُجمِّلُ الصورة لأكملها وما يُقبِّحها لأستغني عنها وأنهي كل مَسّ عليَّ منها .

فاجئني يم بقدومه إلى دمشق ظهراً، قال لي بكل بساطة :

- أتيتُ لأتحدَّثَ إليك، أزعجتُكَ البارحة ولابد من التحدُّثِ بالأمر
- وهل انزعاجي منك يستحق أن تُعرِّضَ نفسك للخطر بالسفر والأوضاع الأمنية سيئة ؟ كان من الممكن أن نناقش الأمر عبر الهاتف، ما حال الطريق أثناء سفرك ؟

- استطاع الجيش السوري في وقت سابق تأمين سلامة المسافرين بعد استهداف المجموعات الإرهابية المسلحة للمنطقة المحيطة بـ " تحويلة " حمص، لكن الوضع في حرستا بمدخل دمشق خَطِرٌ للغاية، قبل استهداف الباص رأيتُ آثار الدمار، الكثير من السيارات المارّة تم استهدافها، احترقتْ وتناثرتْ على جانبي الطريق، الجثث متناثرة هنا وهناك، يبدو أن أحداً لم يستطع الاقتراب منها ليسحبها خشية تعرُضه للقنص أو استهداف المنطقة بالقذائف، صورٌ تَقشعِرُ لها الأبدان و .. .. بكى يم .

بانوراما من صور الحرب تدورُ في رأسي : جثثٌ مُشوَّهةٌ ومحروقة، أشلاءٌ بشريةٌ التصقتْ بجدرانِ وبأسقفِ الجسور والسيارات، ذَبْحٌ وتقطيعُ أجسادٍ، رَمِيٍ الجثثِ في العاصي، تفجيراتٌ كبيرة في ساحات وشوارع المدن، طلابُ جامعاتٍ ومدارسَ يُستَهدفونَ في مقاصف الجامعات وصفوف المدارس وباحاتها، خَطْفٌ وسَلْبٌ وقتلٌ واغتصاب، والتكبير .. صوتٌ للإرهاب المنظَّم وتبريرٌ لارتكاب الجرائم تحت عباءة الدين الإسلامي، أي جنون هذا وكيف سينتهي ؟!!

قلت لِـ يَم بعد أن ازدردتُ ريقي ومسحتُ دمعي :

- كيف تم استهداف الباص ؟

- تعرَّضَ للقنص، انبطح جميع الركاب على أرضية الباص فور استهدافه، استشهدتْ فتاةٌ تدرس في جامعة دمشق .

- هل كنتَ قادماً من طرطوس ؟
- لم يتسنَ لي الحجز من اللاذقية مباشرة فاضطررتُ للسفر إلى طرطوس ومنها قَدِمتُ إلى دمشق .
- يا الله .. ارحمنا ونجِّ البلد من شرورهم، الحمد لله على سلامتك يم .
- هل تخاف عليّ .. قيصر ؟
- ما الذي تقوله يم ؟!! أنت صديقي .
- لم يكن بمقدوري تحمُّل انزعاجك مني أو سخطك علي، أرجوك قيصر، لا تنسى أنني أحبك .
- سأعدُّ القهوة ومن ثم نكمل ..

توجهتُ إلى المطبخ بحجة إعداد فنجانين من القهوة لأتخلَّصَ من نظراتِ يم المفعمةِ بالحب والشوق، فتبعني ..

كيف يمكننا نحن البشر أن نشهد كل هذا الموت من حولنا ونقوى في الحياة على أداء أهزوجةٍ يوميةٍ تَصمدُ في مواجهته ؟ هل نُصِرُّ على ذلك لنؤكدَ لأنفسنا أننا قادرون على صنع الحياة ؟ أم أننا نفرز خلال الحرب أبشع ما يمكننا طرحه بفوضى قاسية ولئيمة لا تتناسب البتَّة مع ما يشهده الآخرون من ويلات ونكبات ؟! .

عدتُ بتفكيري إلى يم الواقف إلى جانبي، وتساءلتُ مُجدَّداً كيف يمكن ألا أجعله يتمادى بمشاعره نحوي، في ذات اللحظة همس لي يم قائلاً :

- اشتقتُ إليك كثيراً ..

أردتُ استفزازه مُستغرباً قدرته على تجاوز ما تعرَّضَ له أثناء قدومه إلى دمشق :

- يم .. هل تُحبّني أم تحب أدونيس أم تراكِ عاشقًا لسامر وعصام وعبد الله وجورج وفادي و ... ؟!

قاطعني وقد بُهتَ مما تلفَّظتُ به وعلتْ وجهه غيمة داكنة لا تُبشِّرُ بخير :

- على مهلك .. أوَ تظن أنني كل يوم أقع في الحب أو أوقع نفسي به وهماً وكذباً ؟

- ما ألاحظه أن الحب لديك مجرد "كبسة زر" .. يم، من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟ .

- أريد أن أحقق لك السعادة وإن لم تكن معي، هل أثارتك قصتي مع أدونيس إلى هذا الحد ؟ .

- وهل تعتبر أن ما بينك وبين أدونيس كان حبًا ؟!! أم أنك تقصَّدتَ كتابة قصتك معه بلغة رومانسية مُلفِتة لتحقق أهدافًا أخرى معي ؟ لِتُريني كم أنتَ مُحبٌّ ومِعطاء وكم تتفانى من أجل

من تحب، وكيف لحب بنيته يوماً أن يزول بكل هذه البساطة ويتحوَّل إلى شخص آخر ؟ يتحول إليَّ أنا .

- كيف لي أن أصدِّق كل هذا منك وقد دخلتُ إلى مواقعكم ورأيتُ عالمِكُمُ البغيض وعلاقاتكم التي تُبنى على أوهام بغرض الوصول إلى إشباع اللذَّةِ وإطفاء الشهوة التي تَتملكُكم لا أكثر، وحين تحقِّقون غايتكم تلتفتون إلى صيدٍ جديد، ووهم أحمق ؟! مُفارَقات صَنعتَ بها قصصَكَ من دونَ حَبكة، حينَ التقينا، أردتَ أنْ تحبكَ بي فواصلَ قصنصك لتبدأ مِنْ جديدٍ قصةً جديدة، لأكون مجرد رقم في قائمة عبثك .

أطرق يم مُنكسِرًا مَهمومًا، بدا كأنه خارج للتوّ من مدخنة مدفأة فاضتْ بما فيها بعدما اخترقتها ريحٌ ساحقة، أمسك مفتاح فمه ليُطلِقَ حروفَ الكلمات دونما أجنحة، والأجنحة أنثى تخلَّى عنها وما تخلَّتْ عنه فارتدته حروفًا :

- كيف استطعتَ أن تقسو عليَّ هكذا وأنا أحبك بكل صدق ؟

تفوَّه بما لم أكن أتوقعه منه، فعلا صوتي صارخاً بوهمه المجنون :

- لا تقل إنك تحبني، الشاب لا يمكن أن يحب شاباً بهذا الشكل، أفهمُ إنْ عَبَّرتَ لي عن محبتك بطرق مختلفة، كا أي رجل يكون حينما يحب من هم حوله من الرجال، فيترجم حبه لهم بأفعال لا بأقوال لكي يثبت حبه، قلتُ لك سابقاً إنك لن تستطيع معي

صبرا، وأنت تدرك كم ....

صَمتُّ وما عدتُ بقادرٍ على قول : كم أقرف من أنوثتك وأنت رجل .

خرجتُ إلى الشرفة، فكرتُ وتألَّمْتُ، كيف استطعتُ أن أضيِّقَ الخناق على يم وأقسو عليه بهذا الشكل ؟ أُدْرِكُ أن له طبيعة خاصة، ولن يستطيع تغييرها، كما أنه في بيتي الآن وليس من المقبول أن أقسو عليه، وقد تحمَّلَ وعثاء السفر وخطورته لأجلي !! .

دخلتُ الغرفة لأجد يم يهمُّ بالخروج، استوقفته وقلت له :

- يم .. تمهَّل قليلاً، ألم نتفق على أن نكون صديقين ؟
- أفخر بذلك، وأتمنى أن تكون مرآتي التي تصدق معي .
- صورتك في مرآتك، لا زيف فيها إلا بقدر ما تسمح له أن يمتد، وحدك ترى ما بداخلك، المرآة للآخرين ولك ما بداخلك، يم .. كُنْ أنت، عيناك والعقل .
- معك حق .
- يم افهمني، ستخسر كل من هم حولك، المجتمع لن يرحمك، سيلفظك كوباء، ويهرسك كحشرة، آسف .. ربما أقسو عليكَ بكلامي، لكنها الحقيقة التي يجب أن تعيها وإلا فأنت تدمِّرُ حياتك، حين تؤيدني فهذا يعني أنكَ مُخطِئ، والخطأ يجب أن يتبعه الصواب، كن مُنطقياً يا رجل مع نفسك، ما الذي تريد

الوصول إليه ؟ أنا ؟ لن تصل إليّ، ها أنا أقولها بفمٍ ملآن، لن تصل إلي، لن أكون إلا صديقاً لك، وما دمتَ تريدني صديقاً يجب أن تستمع إلي وتفكر بكلامي، إنك تحفر قبرك بيدك، لأن المجتمع لن يكون مُتساهِلا معك، وبعيدًا عن حال المجتمع، ألا ترى أن طبيعتك مرفوضة ؟ هل تُحسِن التعامل مع الرجال على أنك رجل مثلهم ؟ أم أنك ترى نقصًا في رجولتك تُبعِدُكَ عنهم ؟ .

رماني يم بنظرة سخرية مَزجَها باستعلاءٍ مفضوحِ اللون بعدما تفوَّهتُ بسؤالي :

- وأين هم الرجال في زماننا ؟
- قيصر .. التفتْ إلى برنامجك الجديد ولا تُتعِبْ نفسَكَ بعد اليوم بالتفكير في أمري .. أرجوك .

استفزَّتني نظرته بعض الشيء وطريقة محاولته إنهاء الحديث دون أن يعي ما أرمي إليه :

- سحقاً لبرنامجي .. ما عدتُ أريده ولن أفكر فيه، ما يعنيني اليوم هو أنت، لو لم أجدك إنساناً تستحق الأفضل لما نطقت، أتعلم .. بِتُّ أفهمك أكثر مما تفهم نفسك، وبتُّ أعي من هم حولك أكثر منك، ألم أنبّهك حين زرتُكَ في بيتك ممّن تعتبرهم أصدقاء ؟ ألم أقل لك إن أكثرهم يستغلّونَ طيبة قلبك لتكون مَطيّةً لتحقيق ما يريحهم من أعبائهم ؟ وقد قلتَ لي لاحقاً " معك حق يا قيصر "

والآن تكرّر ما قلته بشأنك، ما الفائدة ؟

همس يم وقد انكسرتْ نظرة عينيه :

- أذكر ولم أنس كلمةً تفوّهتَ بها إليّ يوماً .

- وما الفائدة ؟ إنك تغرق فيما أنت فيه، لم تعِ مشكلتك بعد لتتخلّصَ منها، تعيش كيفما اتفق، تحب كيفما يأتي به الهوى إليك، تبني علاقاتك على مساحات فارغة وأنت توهم نفسك أن هناك دعائم وأساسات متينة، وهي رخوة باهتة في حقيقتها، أتظن أن من هم حولك لا يعلمون بمثليتك ؟ سبق أن سألتَكَ هذا السؤال، هل تظن أنك تُحسنُ إخفاءَ حقيقتك ؟ مقارنتي بينك وبين أدونيس لم تكُن عن عبث، ولا لغاية المقارنة معه أو مع غيره، قلتُ لك ما قلت لأنبِّهكَ إلى ما أنتَ تغفل عنه أو تتغافل، حتى أدونيس، لم تنظر إليه يوماً إلا من واقع هُيامك به حسب تصوراتك، وتوقك إلى مشاركتك له السرير .

- لا أبداً، أنت تعلم أنه عضوٌ في الشبكة ولازلتُ أتعامل معه على هذا الأساس بغض النظر عما كان بيننا .

- لكنك قطعتَ سُبُلَ التواصلِ معه كصديق، وتتجنّبه كعضو في الشبكة، تستغني عنْ معرفته وخبرته في اختصاص عمله وفي نشاطات الشبكة، هذا واضح يم، ما بين الشبكة والشابكة أضعتَ نفسك قبل أن يضيع منك أدونيس .

- ولماذا قَبِلَ بي في البداية ومن ثم رفضني ؟ لماذا كان يتوق إليّ ولم يرَ أنوثتي كما ادَّعى ومن ثم تحكَّمتْ به مزاجيته، هل تصدِّق أنت هذا الكلام ؟

- ما الحقيقة إذن ؟

رمقني بنظرة واثقة لم تستطع ريح الشك هزَّها :

- يريد التغيير، مَلَّني واكتفى بي مرتين في السرير، وانتهت الحكاية، كنتُ مُغفَّلاً حين أحببته وصدَّقتُ أنه أحبَّني، المزاجية قد تتحكّمَ بك لحظات، ساعات، أيام قليلة، لكن ابتعاده عني كان لأمر آخر مختلف عما أخبرني به، وحين طلب مني أن أرفع الحظر عنه كان يريد استعادة شيء فقده وبفقده له أحسَّ بخسارة وما اعتاد أن يخسر شيئاً، أنا أفهم أدونيس أكثر منك، أنا مَنْ تعاملَ معه في الحياة لا أنت، أنا من قضى شهوته معه لا أنت، لماذا تُصِرُّ على إفراغي مما حققته في حياتي من نجاحات ؟ بحجة أن أنوثتي طاغية، وبأنني مرفوض من قبل الرجال، هل تعلم أن الرجال يأتون إلي وأرفضهم ؟ هل تعلم أن الكثيرين منهم يطلبون أن أكون معهم رجلاً في السرير ويخلعون بدورهم الرجل الذي يتلبَّسهم لتظهر الأنثى دونما استحياء ؟ .

- أيُّ عالمٍ تعيش فيه يا يم ؟

يبدو أن ثورة نفسه جعلته بلحظة يقصف ظِلَّ الاستكانة لما أقول له فانتفض يرميه برصاصه .. قائلاً :

- كفاكَ تقريعاً لي، هذا عالمنا الذي نعيش فيه وأنت لا تدرك بعد ما نعاني منه من قبل بعضنا البعض قبل أن نعاني من المجتمع الرافض لنا، الأمزجةُ مُتحكِّمة والشهوة سلطانة، أوَ تكون وصمة عار أن أكون مِثْليّاً ؟ أجل أنا مِثْليّ ولستُ خَجِلاً من مِثْليَّتي، سأجد حبي يوماً ما، إن كنت ترفضني أو سبق ورفضني أدونيس لسبب أعلمه فليست بمشكلة .

- ما هو سبب رفضه لك ؟

أجابني مُتحدّياً .. واثقاً :

- لا شأن لكَ في ذلك .

- معك حق، لن أتدخَّلَ بعد الآن بأمر يخصُّك، انتهى دوري، ولا أريد الاستمرار في الحديث أو مناقشته معك بعد الآن، أنت حرٌ مني يا يم إنْ كنتُ قيداً، أنت حرٌ في قناعاتك وأسلوب حياتك ولم أفرض عليك رأياً .

- أنتم مُملّون، تظنُّون أنكم تُحسِنون التَّستُّر عمّا تقترفونه وكل من تجدونه ضعيفاً تجعلونه مطيّة لكي تخفوا موبقات ما ترتكبون، ادخل أيها الصديق إلى مواقعكم أيضاً وصِفْ لي ما ستجده فيها، فضائحُ مُكوَّمة كالجثث المهشَّمة، يبدو أنكَ تحيا في كوكب آخر ولستَ على درايةٍ بحالِ المجتمع الذي تنتمي إليه، في مجتمعك أيها الإعلامي الخبير أزمة كبيرة وخطيرة لا بل تعدَّتْ الأزمة منذ زمن طويل وباتت حرباً ضروساً هي حرب أخلاق، المجتمع ينهار

من حولكم وأنتم تهاجموننا، المجتمع يتواطأ بصمته، يفقد قيمه، يغرق في أتون الرذيلة، وأنتم تجهرون بالطُهر، وفي السرِّ لا شيء إلا العهر، تتشدَّقون وتتنطَّعون وتتبجَّحون بما يثبت استعلائكم علينا .. أزمتنا أزمة أخلاق يا سيدي .

كانت يداه مُتصلِّبتين، وجهه مُكفهِر، عيناه منفتحتين على اتساعهما، حادَّتي النظرة، حسبته في هذه اللحظة .. مارداً عملاقاً، أتبع على الفور بقوله لي وصوته يرتجف :

- هل ستجد الآن انفجاري هذا استفزازاً رخيصاً لك ؟!! .

رويداً .. هدأ يم، كنتُ أمعن بتمزيق الخيوط الواهنة لما تفنَّنَ العنكبوت بغَزْلِه في داخلي .

استسلم لنوبة بكاء عصفت به، دنوتُ منه، قبَّلْتُهُ على جبينه، رجوتُهُ أنْ يُسامحني على قسوتي، وطلبتُ منه أنْ يبقى الليلة عندي، فالقصف مستمر منذ ساعات، ودمشق تعاني من النزف كما هي روحي .

حينما هدأت روحه، قدَّم لي مجموعة شعرية لهبة الله أرسلتها معه لي، وفي الصفحة الأولى كتبتْ إهداءها :

" آهٍ من إحساس اللحظة، آهٍ من ذاكرة مُتعَبة حدّ القصف، آهٍ من قلبي .. وقد تضرَّجَ ببعده عنك، لم يُرِدْ يوماً إلا أن يحطَّ رِحاله في .... " .

ابتسمتُ .. وقبَّلتُ روح هبة الله .

(١٢)

يحلو للبعض ارتداء الأقنعة فوق الوجوه، لكن يحلو لي خلعها .

واليوم، سوف أرتدي قِناعاً لأُخفي شخصيتي، أهو انتحال شخصية أخرى وفق عِزف المثليين أم هو الأمر الطبيعي الوحيد الذي يجعلونه حقيقياً في حياتهم وما اعتادوا عليه ؟!

للمرة الأولى في حياتي سأتنكَّرُ، وسأخفي الوجه الحقيقي لقيصر .

لم يَدعْني يم أرنو إلى المرآة حتى أكملَ عمله، كان يحدِّثني طوال الوقت الذي استغرقه في تغيير ملامحي عن الحفل الذي سنحضره معاً بمناسبة ارتباط مِثليَّيْن أرادا إشهار ارتباطهما أمام ثُلَّةٍ من الأصدقاء، ألزمني بإطباق في دون أن أنبس بكلمة، وانهمك بعمله بسرعة فائقة أذهلتني .

رنوتُ إلى وجهي في المرآة، ذُهلتُ .. أيُّ وجهٍ هذا الذي أرتديه ؟!! لقد أبدعَ يم حقيقةً في إخفاء ملامحي، حتى كدتُ لا أعرفُني، وما رأيته أكاد لا أصدقه .

شعر مستعار، صبغة بلون البرونز فوق بشرة الوجه والرقبة، عدسات

لاصقة بلون البحر، شامة على الخد الأيمن، قرط ناعم في الأذن اليمنى، كحل غطّى الفراغات الفوضوية في شعر الذقن لتعجَّ بالسواد، أما اللباس فقد قدَّمَ لي قميصاً أزرق اللون ياقته كجناحَيْ طير، شفَّ قماشه ليكشف تفاصيل الجزء العلوي من جسدي، وبنطلوناً ضيّقاً من الجينز الحِبري، أمعنتُ النظر بشكلي للحظات، اكفهرّتْ مَلامحُ وجهي، قطّبتُ ما بين حاجبيّ، لم أُطِقْ ما رأيت، فكيف سأحتملُ رؤيةَ وجوهٍ خَلَعَ عنها أصحابُها أقنعةً سبقَ أنْ جَعلتني أتقبّلهم وفق ما كانوا يَبرعون في اختيارِها، لأراهم اليوم عُراة منها، لستُ أدري ما تخفيه الساعات القادمة لكني بلا شك متوجِّسٌ وقَلِق، في حين كانت عينا يم ترصدانِ حركتي بهيئتي المعلَّبة وهو يضحك بحبور، خرج إلى الصالة رافعاً طاقيته وملوِّحاً بها بصورة دائرية في رقصةٍ مِغناجٍ .

في طريقنا إلى مكان الحفل، أيقن يم أنني مُرتَبِكٌ ومُحرَجٌ، أكّدَ لي بأنَّ الحفلَ مُقتصِرٌ على عدد قليل من المثليين، نظراً للظروف السائدة، وشرع يحدِّثني عن الحفلات التي سبق له أن حضرها والشخصيات المرموقة في المجتمع التي التقى بها وكانت تحضر تلك الحفلات لا بل وترعاها إطفاءً لشهواتها وملذّاتها، واستجابة لمطالب من ترتبط بها من المثليين، يبدو أن الحفلات كانت مَلاذاً لهم من الكَبْتِ وثقل الأقنعة التي يرتدون في حيواتهم العادية .

شعرتُ بأن نبضي يفوق سرعتي في قيادة السيارة، وبأنَّ وجهي تتبدَّلُ ألوانه فتختلط ألوان شارات المرور وتزيد .

ضحك يم بقوة وهو يراني مُتردِّداً في خَطوي حين ولجنا البناء المقصود، همستُ له :

أُحسُّ أن ثمة خيانة تُرتكَب مع ما يشهده البلد من فظائع، فكيف بهؤلاء يجتمعون غير مكترثين بما يحدث حولهم ؟! أتراها شهوة القتل تستعمر البعض، وشهوة الرذيلة والمجون تحتلُّ جُلَّ اهتمامات البعض الآخر ؟! الحياة لم تعد كما سابق عهدنا بها وبأنفسنا، شهوةٌ مُستَبِدَّة تُشوِّهُ الحياة، يا لسخريتنا بقيمتها، نحن البشر اللاهثين وراء المتعة، والموت يتجوَّلُ في مدننا، يحصد الآلاف، يسلب من أرواحنا وهج الحياة وحقيقتها، ويقولون : أين مراكز القرار كي تصنع المعجزات وتعيد للوطن ما افتقده ؟ لا بل ما أفقدناه نحن إياه .. !! عارٌ علينا ما جرى ويجري ونحن في خُسرانٍ أكيد .

تنبّهتُ إلى ما يقوله يم محاولاً أن يَشُدَّ من أزري، هي المرة الأولى التي أراهُ فيها مُتماسِكاً، يعرف ما يريد وما وجهته، و يبدو مرتاحاً لما هو مُقدِمٌ عليه .

كيف لي أن أَلِجَ عالمهم هذا ؟ وهل ثمة مخاطر من حضوري الحفل ؟

تكاثفت الأسئلة في رأسي كالبخار، لكن .. يجب أن أراهم، يجب أن أؤدّي الدور بلا تردُّدٍ أو استنكار ظاهر، ها أنا أدخل اللعبة للمرة الأولى لأرى بأمّ العين ما يفعلون في حفلاتهم، وإن كان هذا الحفل على نطاق ضيق لكنه سيعرِّفني بما أجهله .

وصلنا الشقة وقد علتْ أصواتُ المحتفين داخلها، طرق يم الباب وحفَّزني على التماسك أكثر، يبدو أن مؤشر الاضطراب قد علا مع وصولنا الشقة .

أحدثَ من يقف خلف الباب فُرْجةً صغيرة ليتبيَّنَ له هوية القادم الجديد، وسرعان ما فتحه على مصراعيه لنلج سريعاً ويُطبِق الباب خلفنا ويقفله، استقبلتنا هتافات الحاضرين وزغاريدهِم، الضحكات تتعالى كأن ليس ثمة ذَكَرٌ في المكان، تناهى إلى سمعي وسط صخب المُستقبلين ما ينمُّ على اعتباري و يم مشروع ارتباط، كأني و يم مُحتفى فيهما أيضاً، يبدو أنني حضرتُ لكي يتعرَّفَ أصدقاؤه عليّ، أيُّ يم هذا ؟!! .

الجميع يُهلِّلُ ويصفِّق ويضحك بطريقة هستيرية كأنَّ المكان مَلهى ليلي، كل من أمدُّ له يدي لأرد السلام يضمّني إلى صدره ويزرع وجنتيّ بسيلٍ من القبلات، وجوهٌ صُبِغتْ بكل ما يخال للمرء أن تجمعه الطبيعة من ألوان، شعورهم طويلة ومُصفَّفة بأشكال غريبة وقد صُبغت هي الأخرى بألوان قوس قزح، فساتين قصيرة سترتْ الأجساد مجازاً لتُظهِر عريها بطريقة أو بأخرى، أظافر ملوَّنة، لمحتُها أثناء تحريك الأجساد لأيدٍ فاضت الأنوثة فيها ما جعل الأجساد تتلوَّى في حركات ماجنة مفضوحة، و يم ... يم أمسى جزءاً لا ينفصل عن هذه الكتلة المعجونة بلُعاب الشيطان، جسدي لم يعد لي، فقد تناهبته الأيدي والشفاه، لا أدري كيف خلَّصته منهن ..

انتبذتُ مكاناً في زاوية أكاد لا أُرى فيها، رجوتُ الله أن يبعدني عن

المكان سريعاً، فقد اكتفيتُ بما رأيت، لا بل أُصبتُ بتُخمةِ الرؤية، حتى كاد ما رأيته أن يصيبني بالعمى، لا أسمع إلا الأسماء المؤنثة تتردَّد، القهقهات تتعالى والقفزات تتوالى، الأجساد تتمايل وتتماوج وتمتزج في حركات أنثوية وأخرى ذكورية تنسجم مع بعضها البعض برقصات تتجدَّد مع أنغام الموسيقى الصاخبة، كؤوس الخمر تتنقَّل بين الأيدي، بالونات تتطاير هنا وهناك، حين دقَّقتُ النظرَ استرعى انتباهي وجود شبّانٍ ورجالٍ لا يمكن للمرء أن يتصوَّرَ وجودهم في هذا المكان، استعادَ بصري شيئاً من توازنه بوجودهم في هذا المكان، فأطلتُ النظرَ إليهم لأستعيد ما كدتُ أفقده، أرى ما أراه وأقول في نفسي : " كل هذا الجمع والحفل على الضيق، كيف لو كان بغير مكان أو زمان ؟! .. لطفك يا الله " .

ضقتُ ذَرعاً بما أرى، فكَّرتُ بالانسحابِ فوراً من دون أن أخبر يم، حيث أراه مُنسجِماً مع المجموعة ومُطلِقاً قهقهاته وزغاريده، وما إن تبادر إلى ذهني الهروب، حتى استقبل جسدي كائناً هوا في حضني فاستطاب له المكوث، كأني بتُّ أرضاً له أو غيمة تحمله لتهدهده وتحتفي به، ضَمَّني بكلتا يديه محاولاً تقبيلي على شفتيّ، أبعدتُهُ عني طالباً منه أن يدلَّني إلى الحمّام، بنى طوله بغُنْجٍ وقادَني من يدي وسط الجَمْعِ وهو يتلوّى كأفعى رقطاء كأنه عثر على بقية باقية من متعة أزلية كادتْ تفرُّ منه، استأذنتُ منه واعِداً إياه أن ألحق به إلى غرفة داخلية مُتحدِّثاً إليه بحزم، فما كان منه إلا أن أطلقَ ضحكةً ماجنةً أتبعها بقوله : " يؤبرني شو رجّااااال " وغاب عني وهو يصرخ متابعاً : " ناطرتك جوا حبيبي " .

توجَّهتُ حيث أشار إليَّ، فكدتُ أصطدم بجسدينِ تلاحما في وضعيةٍ مشبوهةٍ خلف ستارة من ورائها يقع الحمّام، كدتُ لحظتها أن أتقيأ، تماسكتُ واتجهتُ فوراً نحو باب الشقة، أدرتُ المفتاح وفتحت الباب مهرولاً لا ألوي على شيء سوى الوصول إلى السيارة، وأنا أشتمُ يم، وأحلم بالوصول إلى بيتي .

أيُّ عالمٍ هذا ؟!! كيف حدث ووطئتُ هذا المكان ؟!! أي مجنون أنت يا يم ؟!! لا بل أنا المجنون .. !!

فور وصولي إلى المنزل، دخلت إلى الحمام لأريق الماء على جسدي ربما أتخلّص مما علق به من درن المجون .

(١٣)

مضتْ أربع ساعات، عاد بعدها يم وبرفقته " أسامة " .

يبدو في العقد الثاني من عمره، تأكَّدتُ أنني لم ألمحه في الحفل، فقد كان يرتدي لباساً عادياً وجميع من رأيتهم في الحفل كانوا يعانون التهاباً مزمناً في أدمغتهم سبَّبَ انحساراً في طول القماش الذي ستر جزءاً يسيراً من أجسادهم، لكن أسامة حدَّدَ حاجبيه, وصبغ شفتيه بالأرجوان, ووضع الكحل على رموش عينيه, فبدا أشبه بالفتيات .

عبَّر يم عن سعادته بحضوره الحفل وقد ساءَهُ خروجي مبكراً، لكن سعادته رجَّحتْ كفَّةَ الميزان بفارق كبير، برَّرتُ باكتفائي بما رأيتُ واستغرابي، شرع يحدِّثني عن أجواء الحفلات الكبيرة وما يحدث فيها، كيف تكون ومن يحضرها، وأي رقابةٍ تُفرَض عليها، ومن كان يرعاها ويؤمِّن الحماية للحاضرين بعدم التعرُّض لهم، فإن لم يكن هناك ترخيص لإحياء الحفل على أنه سيقام لمناسبة اجتماعية تخصُّ أحد الحاضرين، كان الداعي إليه يحرص على تواجد إحدى الشخصيات المهمة التي يكفل حضورها غَضَّ الطَرْفِ عن حفله .

أكَّد أسامة أنه لم تكن لتنتهي حفلة من حفلاتهم تلك إلا بمشكلة تتسبَّبُ بمشاجرة عنيفة غالباً ما تقع إثر تَعدٍّ من قبل أحد الحاضرين على شخص مُرتبطٍ بآخر، فيثور مَن اعتُديَ عليه لتجاوز الخط الأحمر بمشاكسة من يَرتبط به أو محاولة إغوائه لممارسة الجنس معه رغم وجود ارتباطه معه في الحفل، فتُشْعِلُ نار الغيرة وقود ما يجري في عروقه ويهبُّ ليدفع من تجرَّأ عليه فغازَلَ ارتباطه أو تمادى عليه بكلمة أو فعل، لتبدأ علقة ساخنة يحدث فيها تبادل اللكمات بقبضاتٍ كانت للتوّ أنثوية وناعمة، لكنها وما إن يبدأ العراك حتى تتحوَّل إلى قبضات رجولية قادرة على سحق كل من يتطاول عليها، مُشاجراتٌ تُستخدَمُ فيها السكاكين لتُراقُ الدماء، وتُنزَع الشعور المستعارة، وتُلقَى بعض الأجساد في المسبح إن كان الحفل مُقاماً في فيلا أو مزرعة، وكل ما يحدث، ما كان ليحدث إلا بسبب تعاطي أغلب الموجودين للماريجوانا وإسرافهم في شرب الكحول مما يتسبب بفقدان السيطرة على النفس ليأخذ الصراع النفسي مع الذات صوراً تعبيرية لا حدود لها وبأشكال قهرية وجنونية واضحة، حركات هستيرية يرافقها بكاء شديد، تقيؤ، غياب مسيطر لأي وعي أو إدراك، وقد كانت السُحُب الكثيفة من الدخان المتصاعد في فضاء المكان بعد تعاطي الماريجوانا يدلُّ عناصر الأمن إلى مكان تواجدهم، فيهرعون ليتدخَّلوا وينهوا أي إشكال حاصل، وقد حدث ذات مرة أنْ وشى أحدهم بسبب عدم دعوته للحضور من قبل صاحب الحفل، فتمَّ اقتحام المكان فجأة، وكان بعض المتواجدين يمارسون الجنس في الغرف الداخلية، وفي زوايا قصيَّة

مُعتمة، فاقتيدوا، وتمت إحالتهم إلى القضاء بجرم ارتكاب الفعل المنافي للحشمة .

صدمةٌ كبيرةٌ تَلقَّيتها بعد وصف يم وأسامة لحفلات المثليين الماجنة، أضافت إلى ما شهدته بعينيَ شعوراً مضاعفاً بالقرف والاشمئزاز، لم أعلِّق بكلمة، نهضتُ لأعدُّ القهوة، طلب مني يم أن أبقى مرتاحاً وهو سيتولى إعداد القهوة، أردتُ أن أتفوّهَ بكلمة، لأتأكد من استمرار قدرتي على النطق بعد كل ما مرَّ بي اليوم، وما سمعته الآن .. قطع أسامة حبل الصمت ليقول :

- أخبرني يم أنك بصدد إعداد برنامج إذاعي عن المثلية الجنسية، وقد رغب بأن أحدِّثك عن نفسي ..

- أجل .. أشكرك أسامة، منذ متى وأنت مثليّ ؟

- لا أذكر بالضبط، مُذْ وعيتُ وأدركتُ ما تعنيه كلمة جنس .

- بم تتميز تجربتك في عالم المثلية أسامة ؟

- أنا أهوى الرجال العاديين ولا أمارس أبداً مع المثليين .

بُهتُّ .. وقلت لأسامة رانياً نحوه :

- كيف ذلك ؟! وهل تلقى تجاوباً من الرجال العاديين وقَبولاً منهم في ممارسة الجنس معك ؟

- بالطبع، ولِم لا ؟ ليس من السهل الإيقاع بمن يعجبني منهم، لكنني أتدبَّرُ أمري .

- كيف يحدث ذلك ؟ ... أخبرني .

- أمارسُ الغواية، أجذبهم بشكل أو بآخر، ثم أطلب منهم ممارسة الجنس معي، أغلبهم يتمنَّع بداية الأمر، أستغلُّ رغبتهم في إطفاء شهوةٍ تتطلبها حاجة ملحَّة لأجساد تتوق إلى ممارسة الجنس، ولو لم تكن هناك رغبة أصيلة في نفس من أغويه ما كان ليستجيب، ويحدث ذلك، نمارس الجنس مرة أو مرتين، لأجده فيما بعد هو من يطلب مني ذلك، ويصرُّ في مرحلةٍ لاحقةٍ على تبادلِ الأدوار بيننا، ومنهم من أمارس معه مرة أو مرتين ليختفي بعد ذلك ولا أراه، الأمر يختلف من شخص لآخر .

- كثيراً ما تعلَّقتُ برجالٍ رُمْتُ وصالهم وأحببتهم، لكنهم لم يستجيبوا لنداء القلب، أرادوا ممارسة الجنس لأجل الجنس دونما التفاتٍ لمشاعري، بذريعة أن الرجل لا يمكن أن يهوى رجلاً مثله، هناك مصاعب كثيرة تواجهني ومشكلات كبيرة أقع فيها جرَّاء ذلك .. لكن هذا ما أهواه .

- مشكلات من أي نوع ؟

- تعرَّضتُ مِراراً للسرقة، ومرةً لمحاولة قتل، ومراتٍ للاحتيال .

- تبدو مُعارِكاً قوياً لتصل إلى غايتك .. فهلا حدَّثتني عن محاولة

القتل أولاً ؟

- كنت أسيرُ في زقاقٍ ضيّقٍ مُظلم، لفتَني وجود شاب يقف عند باب داره، كان جميلاً، غمزته بعيني وأكملتُ سيري، وصلتُ لآخر الزقاق ومن ثم عدتُ لأمرَّ من أمامه مُجدَّداً، أَدركَ ما أُريدُه منه، قبضَ على يدي وشدَّني نحوه قائلاً : " من لا أستفيد منه، أترك عليه أثراً " كانت بيده الأخرى خنجراً صوَّبه على يدي فسال الدم غزيراً، انشغلتُ بيدي لأرى ما حلَّ بها وقد آلمني الجرح، حاولتُ تخليص نفسي من قبضته، فسارع إلى طعني في بطني طعنة خفيفة، لم أشعر بألم ولم أره وهو يصوِّبُ طعنته، أفلتُّ منه وركضتُ بعيداً، حينها شعرتُ بحرارة في بطني، كان ينزف، لكن الطعنة لم تكن قوية، اتصلت على الفور بصديقي، أخبرته بما جرى وطلبت منه أن يحضر سريعاً إلى بيتي، من هناك أسعفني إلى المستشفى.

- ما الذي أخبرتهم به في المستشفى ؟ من المؤكد أنك لم تقل الحقيقة

ضحك أسامة وهزَّ برأسه نافياً، في هذه الأثناء كان يم يُقدِّم لنا فناجين القهوة .. أتبع أسامة قائلاً :

- طبعاً لم أخبرهم بالحقيقة، قلتُ لهم إنَّ غريباً هجم على شقتي وحاول سرقتي وحين قاومته طعنني، و فرَّ هارباً .

- هذا الرجل رفض إغوائك له وممارسة الجنس معك، لكن ما حال من سرقك ؟ يُفتَرض أنهم مارسوا معك الجنس وانصاعوا لرغبتك

- هذا مؤكد .. كانوا بعد ممارستهم الجنس يحملون معهم ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، أجهزة هاتف محمول، ذهب، مبالغ نقدية، كاميرات، أجهزة كمبيوتر محمول، ومرة سرق أحدهم جهاز التلفزيون والفيديو أثناء وجودي في الحمام ولم نكن قد مارسنا الجنس بعد، أحدهم بقي في بيتي شهراً كاملاً وقد أتى من محافظة أخرى وحين غادر .. سرقني .

- كيف كانت علاقتك مع والدك ؟

- كان قاسياً عليَّ، ومجرماً بحق، كثيراً ما كان يضرب والدتي، كنت أحاول إبعاده عنها بجسدي الصغير فكان يهجم علي ويوسعني ضرباً مبرحاً، أمسكني مرةً من رقبتي وجرَّني إلى الحمام كالنعجة التي تساقُ للذبح، وضع رأسي في فوهة الصرف الصحي، ثم قام بجَلدي .

دُهِشْتُ وقَطَّبتُ ما بين حاجبيِ، رأيتُ تلك الروح الطفولية وهي تُعذَّب بتلك الطريقة الوحشية، وتُحرق بنار لا تخمد، لم أعِ أنَّ دمعةً انهمرتْ من عيني حتى اقترب مني يم يَشدُّ على يدي هامساً :

- قيصر .. أرجوك تماسك .

عدتُ لأراهما أمامي .. أسامة و يم ، قلتُ :

- ما عمله ؟

- كان ضابطًا في جيش صدام .

- أنت عراقي الجنسية إذن ؟ .

- أجل .

- كان أبي مكروهاً من زملائه في العمل، أرادوا " تكسير رأسه " فخطفوا أخي، لكن أبي استطاع تخليصه قبل أن يقتلوه، وهربنا جميعاً إلى سورية بعدما هدَّدوا أبي بخطفي وقتلي .

- هل تعتبر أن وجودك في سورية يحقق لك الأمان أكثر ؟

- بالطبع .. أهلي عادوا إلى بغداد، صحبتهم لفترة، لكن الأوضاع سيئة للغاية في العراق، هناك جماعات مُتطرِّفة تعارض وجودنا وتسعى لمعاقبتنا والنيل منا لمخالفتنا الشريعة وتَشبُّهِنا بالنساء حسب زعمها، ارتداء الجينز الضيق، إطلاق الشعر وربطه للخلف، تحديد الحواجب واستعمال الماكياج، كما أفعل أنا الآن، كل ذلك يعتبر خطيئة كبرى تستوجب القتل والتنكيل .

- كيف كان التعامل مع المثليين سابقاً قبل احتلال العراق ؟

- كانوا يتمتعون بحرية أكبر خلال حكم الرئيس صدام حسين، لكن العديد من وسائل الإعلام تَصِفهم بالشاذّين جنسياً ما جعلهم لقمةً سائغةً بيدِ الجميع، خاصة أنهم يفتقدون لأي تعاطف اجتماعي أو إعلامي .

- إذن .. فالأمر لا يقتصر على محاربتكم من قبل الجماعات المتشدِّدة فقط بل يشمل المجتمع بأسره .

- أجل هذا صحيح، لكن مع وجود تلك الجماعات، وغياب أي نص قانوني واضح حالياً يحدد طبيعة التعامل مع المثلية الجنسية، فقد بات الأمر يخضع للاجتهادات الشخصية، القانون أتى على ذكر خَرْقِ العُرْفِ الاجتماعي أو الديني وعاقبَ عليه، لكن هناك تعتيماً إعلامياً، وتواطؤاً رسمياً، على جرائم القتل التي طالت عدداً كبيراً من الشبّان بتهمة التشبُّه بالنساء والمثلية الجنسية التي يُصرُّونَ على اعتبارها شذوذاً جنسياً .

- ما العقوبات التي يتلقّونها بالشكل العام ؟

ابتسم أسامة بمرارة .. بدا وكأنه يستذكر صوراً مؤلمة قائلاً :

- عقوبات ؟!! قُلْ جرائم غاية في البشاعة يَندى لها الجبين، فمن القتل بكافة طرقه وأساليب تنفيذه إلى تشويه الأعضاء التناسلية بمواد لاصقة حارقة ينتهي بالموت، إلى التعذيب بكافة صنوفه وكسر الأضلاع، ناهيك عن الاعتداءات المبرحة والتعرية أمام الناس، والسخرية من المتشبِّهينَ بالنساء، هناك خَرْقٌ صارخٌ للحقوق الشخصية والحرية الفردية التي يكفلها ويراعيها الدستور العراقي، لكن الحكم على الأرض يتخطّى أي قانون وضعي .

- أسامة .. ما دراستك ؟ وكيف انتهى بك الأمر في العراق قبل مجيئك إلى سورية ؟

- درستُ علومَ المصارف، لم أستطع تَحمُّل الوضع هناك فَعُدتُ، أهلي يعرفون أني مثليّ الجنس وقد رفضوني وأنكروني، خاصة أنني كنتُ على علاقة جنسية مع أحد الغوغائيين في العراق، علم أبي بأمري فاشتدَّتْ قسوته عليّ إلى أن تركتُ المنزل وسافرت .

- وكيف ترى حال المثليين هنا في سورية ؟

- لا خطرَ يتهدَّدهم ظاهرًا، لكن حالهم في الحقيقة ليس مُرضيًا، ومَرَضيًا بذات الوقت، هم منبوذون ومكروهون، يتلقَّونَ القسوة والعنف أحيانًا من المجتمع، لكنهم يُقاوِمون، نحن نحيا في عالم مجنون .

- هل سمعتَ من خلال علاقاتك حادثة تُروى أو حكاية لمثليّ يجدر تناولها أو التطرُّقِ إليها ؟

- يُحكى أنه منذ سنين خلتْ أقدم أهل منطقة في الريف هنا على قتل شاب بعدما علموا أنه مثلي فقطعوا رأسه وأرسلوه إلى أهله .

- أكاد لا أصدِّق، قلت لأسامة والحروف تطعن الهواء المحيط :

- هل أنت متأكد من ذلك ؟

- لا .. لستُ متأكداً من صحة ما ذكرت .

شردتُ .. هكذا إذن، إنْ كان هذا صحيحاً فما نراه حالياً ومنذ بداية الأحداث الدامية في سورية من مقاطع فيديو تُنشَر عبر Youtube لم يكن

وليد الأزمة، ومن هم يُشرِّعونَ لأنفسهم محاكمة الأبرياء الآن، الآن، بقتلهم وجزِّ أعناقهم وسَحْلِهم وتقطيعِ أجسادِهم وفصلِ رؤوسِهم عنها ما هو بجديد .. لكنه ربما التعتيم على ما كان يجري من جرائم لم يشأ أحد أن تتوسَّع دائرة العارفين بها، كيلا يكون لها الأثر السلبي على المجتمع، لكن أولئك المجانين دائماً لديهم ما يبرِّرُ لهم أفعالهم حسب مُعتقداتهم وما يدَّعون ارتكابه باسم الدين .. والله .

سحقَ أسامة برهة الصمت التي مَرَّتْ قائلاً :

- أعلم بحادثة قتل القنصل المثليّ الذي قتله أربعة رجال أراد ممارسة الجنس معهم، لكنهم قتلوه وسرقوه، كما سمعتُ بجريمة قتل مثليّ أراد الإيقاع برجل مرتبط بمثلي آخر لم يستطع تحمُّل ما كان يمارسه ذاك الذي قُتل من غواية فأرسل إليه من رماه من شقته الواقعة في الطابق السابع .

- ألا تجد بعد كل ما ذكرته .. أنك في خطر دائم ؟

- ربما .. لكن ما ذنبي إنْ خُلِقتُ وأنا أهوى الرجال ؟

- الأمر ليس بيدي ولم أختر أن أكون مثلياً، المجتمع يحاكمنا بسواطير التخلف والجهل، لمجرد أننا لم نُظهِر ما يناقض دواخلنا، وإلا كيف أفتِرُ قبول رجلٍ عادي بمضاجعتي وهو طبيعيٌ بنظر نفسه والمجتمع ؟

- ولكن .. أنتَ من يقومُ باستدراجهم وغوايتهم يا أسامة ! .

- ها ... وهل أُجبرهم على ممارسة الجنس معي ؟!! من رفض منهم ذلك طعنني، أما البقية فكانوا يمارسون الجنس معي بمتعة كاملة، هم كاذبون ومنافقون، يُظهِرون نقيض ما يُسِرّون، أستاذ أدونيس، هذا المجتمع الرافض لنا هو مَن يدفعنا باتجاه حلبة مصارعة، هم يتشاطرون بقذفِنا بالبرتقال فقط في معاركهم .

قهقه أسامة فانفلتتْ ضحكةٌ ماجنةٌ من يم ذكَّرتني بما سمعته في الحفل الذي حضرته .. قلت لأسامة :

- قل لي ما حكاية معركة البرتقال ؟
- ألم تسمعْ بها أيضاً .. أين أنت يا رجل مما حدث ويحدث ؟
- يبدو أنني مُغيَّبٌ عن الوجود .. قُلْ وأتحِفنا .

التفتَ أسامة إلى يم طالباً منه أن يقصَّ عليَّ الحكاية ليتسنى له ارتشاف القهوة، شرع يم يحدِّثني بحيوية قائلاً :

- المثليّون عادةً يا صديقي لهم أماكن يجتمعون فيها، من بينها حي الشعلان، يجتمعون في السوق الرئيسي كل مساء، يُغنُّون، يُهلِّلون، يرقصون، البعض يقود سيارته ويجوب السوق، يعني .. يمارسون حريتهم بتواجدهم في هذا الشارع، وقد حدث مرة أنْ حضرتْ دوريّة من الضابطة الشرطية وقذفتْ المثليين بالبرتقال، فاختفوا خلال لحظات .. فقط هذا ما حدث .

- أعلم أنهم يجتمعون هناك وأراهم أحيانًا حين أمرُّ بسيارتي، لم أعلم بهذه المعركة الطاحنة، لكن السؤال : ألم يقدِّم أهل الحي شكوى بحقهم ؟ بصراحة صَخَبهم لا يُحتمل، ومظاهرهم غير مقبولة، هل تُصدِّق أنني أتجنَّبُ المرورَ في الشارع إلا في حال كنت مُضطرًا ولا سبيل آخر أمامي ؟

انبرى أسامة بالرد عليّ، عندما خرج يم للردِّ على مُتَّصلٍ به وقد بدا أنه أحد الحاضرين للحفل .

- لم يشتكِ أحد من الأهالي فقد اعتادوا على حضورهم، ربما كنتَ مُحقًّاً كونهم يَتسبَّبونَ بإزعاج قاطني الحي لكن أين يذهبون ؟ .

- أرأيت .. هناكَ تَغاضٍ نوعاً ما عنهم ومعركة البرتقال كانت مجرد مزحة .

- لا أنكر ذلك، ولا أدافع عمَّن يُحدِثُ الفوضى أو الصخب .

- أخبرني .. ما نوعية الرجال التي كنتَ تصطحبها إلى بيتك ؟

- لستَ منهم اطمئن ..

ضحكنا ثلاثتنا بعد أن انضم يم إلينا من جديد، فاستأنف أسامة قوله :

- لا أستطيع أن أحدِّدَ لك، أي رجل يعجبني كنت أحاول إغواءه وأصطحبه إلى بيتي، المهم أن يحقق لي المتعة التي أنشدها .

- كونكَ تلقَّيتَ قسوة وعنفًا من والدك .. هل انعكس ذلك على

طريقة ممارستك للجنس ؟

• أظن ذلك، فأنا أهوى من يضربني ويكون عنيفاً معي أثناء الممارسة، كما أكون عنيفاً في بعض الأحيان

• توقَّعتُ ذلك، هل يعرف أهل الحي حيث تسكن، بمثليتك ؟

• أظن ذلك أيضاً .

التفتَ أسامة إلى يم ليحدِّثه قائلاً :

• لم أخبرك .. البارحة أتاني شابين في مقتبل العمر يريدان أن أمارس معهما الجنس، طردتهما فورًا، لكنني أحسستُ أن أحدهما كان خائفاً ومُرتَبكاً وكأنه أُجبِرَ على الحضور مع صديقه .

قبل أن ينطق يم بحرف .. قلتُ لأسامة :

• انتبه أسامة، ربما كانا قاصرَين، حاذرْ من التورُّط مع صغار السن، واتقِ شرَّ مَنْ تَعْرِض عليه من الكبار أيضًا، أرى أنك في خطر ويجب أن تنتبه جيدًا، هل تريد أن أستضيفك في برنامجي حين نبدأ بإذاعته ؟

• أجل وبكل تأكيد ..

(١٤)

يوم المرأة العالمي، احتفيتُ به في برنامجي، أجريتُ اتصالات هاتفية مع الأديبات السوريات كوليت خوري، أنيسة عبود وسهام الشعشاع، وقرأتُ أجمل ما كتبته الأديبة غادة السمان، تلقيتُ اتصالات كثيرة من متابعي البرنامج، كان الاتصال الملفت الذي استدعى شريط ذكريات مُمضَّة لي .. من روزالين :

" اشتقتلك قيصر .. بدي أسمع غنية " أخاصمك آه " لنانسي وشكراً إلك " .

اعتذرتُ منها لعدم اختصاص البرنامج بتلبية طلبات المستمعين من الأغاني، ووعدتها بأنْ تُذاع الأغنية في وقت آخر ، ختمتْ هبة الله فقرة الاتصالات بشكرها لما تم تقديمه في هذه الحلقة، وقد سرَّبتْ عبر اتصالها كلمات تعبق بالحب، متعمِّدة توجيه رسالة خاصة إليّ .

حين خرجتُ من الأستوديو ألفيت ألما تقف في بهو الاستقبال بمبنى الإذاعة، تحمل باقة من الجوري الأحمر، قدَّمتْها لي مع فيضٍ من كلمات الشكر .

في مطعم " ديليس " بالصالحية، قرأتُ بوضوح عشق ألما، كشفتْ لي عن قصائدها الليلية وأقاصيصها، وما كانت تخطُّهُ بحبر أحاسيسها ليلاً، فتحتفي به روحها في صباحات أيامها لتغزل شالاً من أمل يعينها على تَحمُّلِ حاضرها .

تحدَّثنا طويلاً عما تحلم بتحقيقه بعد عَصْفِ ريحٍ كادث تطيح بكل ما يربطها بالحياة، أخبرتني عن زوجها حازم، وكم قاستْ لتتزوج به، كم عاندها القدر وكم ناكفته لتظفر به زوجاً، اختلافُ الدِّين بينهما ما كانت لتستسلم له فتخسر حبها، عارض أهلها زواجها وقاطعوها سنين، لكنها أصرَّث على توفير الحد الأدنى المقبول من التواصل بما لا يحرم أولادها من بيت الجَدّ، رغم أن والدها وحتى هذه اللحظة يبدو مُحتفِظاً ببرودٍ يُخفي سعيرَ نارٍ تتأجَّجُ في داخله ناحية إظهار ودِّه وقبوله بتواجدها في بيته، كثيراً ما تفاجأث به يلاعب أطفالها ويغني لهم ما كان يبرع في غنائه لها حين كانت صغيرة، ضبطَته غير مرة يروي لهم القصص، وكان حين يلمحها يعود لوقاره المتعمَّد مرتدياً ثوباً من الجليد فينقل صقيعه إليها بنظرة، ورغم أنه بات يستقبل حازم في بيته لكنه نادراً ما اهتمّ لوجوده أو بادر بسؤاله عن أحواله، قبلتْ بذلك واعتبرته تقدُّماً كبيراً قياساً لما عانته في سنيّ القطيعة .

لكن حازم هو من يُؤرقها الآن، ويضيِّق عليها الخناق، بعدما تبدَّلث أحواله، وخفَّ بريق الحب الذي كان يكنُّه لها لا بل أمستْ تراه ينعدم أمام لوثة أصابته منذ سنتين، إثر وعكة صحية ألمّث به، فابتعد عنها،

وابتعدتْ عنه، باتت تنام في الصالة كضيفٍ اضطرَّ للمبيت عنده، انقلب على عواطفه واستلَّ خنجر الصمت ليطعن به صخب الحياة التي كانت تتَّسع لفرحهما وضحكهما، تحوَّلَ تدريجياً في بثِّ مشاعر الحب نحوها لتقرأ في نظرات عينيه حكايات البُغْضِ والنفور، واستطردَ في تعبيره عمَّا يُشعِرُها بضحالتِها، مُبالِغاً في تقريعه، مُرابِضاً فوق تخوم أناه، لدرجةٍ باتَ يَعتبرها مُهمَّشةً في مجتمعها بدونه، مُهمَلة من دون سطوة حضوره، وفارغة من أي محتوى إنساني وعقلاني، كثيراً ما ردَّدَ على مسامعها جملة " أنا من صنعَكِ وبيديَّ هاتين أستطيعُ تحطيمكِ " ترافَقَ همسها لعبارته تلك مع استسلام دمعها لحزنها المقيم .

كنتُ أُنصِتُ لها دونما مقاطعة، لم أرِدْ أن أكون موتاً يهاجم بوح روحها فيلبسها كفن الصمت .

وكنتُ قريباً منه ومنهما .. ألما و روزالين، أُبعِدُ عني ظلَّ الصوت، لأفسح المجال لصوتٍ قادمٍ مِنْ جهةِ الأزرق .

حين تحيك الروح ثوب الانعتاق لا ترى في الموت موتاً، يغدو الكلام لغواً، ونُصِرُّ على اعتباره ترياقاً، فنُكثِّفُ إحساسنا بجدواه، نُصرُّ عليه دونما طائل، لكني الآن استأثرتُ به، حين استرجعتُ لغة الموت .

و ألما .. بجملة حازم دفعتني لأناور بتهدئة خاطرها علَّها تستكين وروحي، بعد فوات الظن بذاك الحزن، أحيثُ توقَ اليقين .

لمستُ ظاهر كفِها بأصابعي، راجياً روحي أن تمدَّها بطاقة إيجابية تَسلبُ منها ما تكدَّسَ من حطام، ضممتُ كفَّها بحنو، سلَّمتُ أصابعي دفَّة الحديث، و لعينيَّ ناي الطمأنينة والتأمُّل، انتبذتُ ركناً عصيَّاً على الرؤية، فترنَّحَ الحزن في عينيها وغاص في قشعريرة الخيال .

حَدَّقتُ في وجهها .. كان شاطئ عينيها يدعوني للإبحار في زُرْقةٍ اختارتها لتلوِّن بها حدقتيهما .. فاستجبتُ .

رجاني مَبسمُها لأُفرجَ عن ابتسامةٍ كادت تتلاشى أمام بوحها المتراجع .. فلبَّيتُ .

شعرها المنسدل على كتفيها دونما قيد يمنع نسائم الليل من التغلغل فيه لتشرِّدَني فألاقيه مَرْجاً لجموح أحصنة روحي المتوثِّبة عالياً وصهيلها يكاد يُفْطِرُ قلبي .

ما رأيتُ في ألما في تلك اللحظات امرأةً من طين، ألفيتُها روحاً تُعانِقُ روحي لتُنهي ما يدور في رأسي من جَدَل، ما عانقتها إلا بإحساسٍ رَهيف، وما ضممتُها لصدرِ رجلٍ ليكون مِطواعاً أمام غوايةٍ بشريةٍ حسيّة، صارحتُها، فلقَّنتْ حروفي دَرْساً في الصمت لتُسكِتَها عما اعتاده البشر ولم تَعْتَدْهُ هي وما رضيتْ به خاتمة لسهرتنا معاً، فودَّعتُها تاركاً في روحها أغنيةً عصيَّةً على الفهم .

فكَّرتُ ملياً بحالة ألما .. عُدتُ لأجدها تنتظرني على موقع **Facebook**

..كتبتُ في صفحتي :

" أُقصيكِ عن مَحْلي، أذودُ عن كثرتِكِ في روحي، أجنحةُ البرقِ تَصفعُ صَخَبي، نوافذُ فجرِكِ تُنجيني مِنْ حُفَرِ الفراغ، أراني .. مُمتلِئاً بصباح " .

تَنشَّقتُ عبيرَ روحها فيما يكتبه قلبها، لكن أردتُ حسمَ الأمر من بدايته لكي لا أجلب لها التعاسة، ولا أزيد في حزنها، امتشقتُ سيف الصراحة وجعلتُ أُدمي أوهامَ الخيال، أحببتُ روحها، لكن ما يجعلني أصدُّها عما تستغرق في إظهاره نحوي أقوى وأكبر ما تجهد في إغراقي في بحره، ولستُ بمعرض كشف سبب إصراري على أن نتحدَّى بروحينا ما يهزمنا من الداخل في هذي الحياة، بَثَّتْ لي شكواها من حازم مُجدَّداً، إثر مشاجرة ليلية أعقبتْ دخولها المنزل، حاولتُ أنْ أُثنيها عما تفكِّرُ فيه، ذكَّرتُها بأولادِها وبماضي حبها لحازم، قرأتُ اندهاشاً لديها من موقفي، ذكَّرتُها بروزالين، وبما تركته في روحي، لستُ بمستصرخٍ أعواد صمتها لأشعلها بعد الآن، يكفي أنني اتخذتُ قراري بالانفصال وأنتهزُ الفُرْصَةَ حالياً لأطرح الموضوع بشكل نهائي .

ركَّزتُ في حديثي معها على حوار الروح للروح، عن أواصر تقوى من دون أن تتسبَّبَ بانهزاماتٍ تفرضها الحياة المادية والحسّية، لكنها أمعنتْ أكثر في لغةٍ تريدها لتعوِّضها عن إخفاقاتها مع حازمٍ، وهذا ما كنتُ أبتعد عنه، وأنأى بنفسي عن الولوج فيه معها، لأسباب عديدة، ما بُحتُ لها منها إلا بما يتوافق مع فكرتي التي ركَّزتُ عليها، فاتَّضحَ لي أن لغتها قوية

مُستنفِرة، وهذا ما أثارها، بعدما تثبَّتَ لي أنها تعتبرني الواحة التي ترتاح إليها في كل ما تواجهه مع حازم، وهو ما أرهقني وبثُّ أمقته في حواراتنا، إذ لم أسعَ لأُنهي زواجي بروزالين، لأتزوَّجَ قضية معاناة ألما مع زوجها، ولأقتحمَ حياةً لستُ قريباً منها، ولا يد لي فيما يزيدها كُرْهَاً له واحتقارا .

لغتها ليستْ غريبة عني، وإن كنتُ لستُ بناطقِ حروفها معها، لكن هذا لم يمنعني من استخدامها مع أخريات، ولستُ بصدد التذكير بذلك، أو بموضع الاعتراف، هذا شأن يعنيني وحدي، لكنها لم تعِ ذلك، رغم محاولاتي المتكرِرة لإصلاح ذات البين مع حازم، لكن دونما فائدة، فالقلبُ في فضاءٍ آخر ليس له، وأراهما لا يتشاركان في وجهة نظر واحدة لإيجاد ما يجمعهما معاً .

ما رسمتُهُ من صورةٍ لحازم وفق ما نَقَلته لي عنه، قبَّحَهُ، شوَّهَهُ، وأرداهُ صريعَ الإنسانية التي يجهل، وهذا ما استفزَّني لأعبِّر لها عن رغبتي بالتعرُّفِ عليه، ربما أكتشفُ لغة خاصة يحتاجها ليتفاهما بعدما ضرب الشقاق بينهما قلب الوفاق فابتعدا كلٌّ في واد، وقد عَرَفني بحُكْمِ عَمَلي في الإذاعة وما تُوليه هي من اهتمامٍ بما أُقدِّمه، لذا كان من السهل علينا أن نلتقي يوماً، وهذا ما كان، حين دُعينا إلى مسرح الحمراء بدمشق، رأيته أمام عيني للحظات قبل دخولنا لحضور العرض المسرحي، كان الحشد الجماهيري القادم لحضور الحفل مُذهِلاً وجميلاً، كأن الدِّمشقيون في حنينٍ جارفٍ لاستعادةِ نبض الحياة الطبيعية الخالية من بقع الدم وسيرة الموت

والحرب، ألفيتُ حازم رجلاً غامضاً لكنه لم يكن بالقبح الذي صوَّرته ألما، رجلاً جَدّياً لكن ليس من الصعب التفاهم معه، وقلتُ ربما، لا بل إنه لن يُبدي لي ما يُخفيه من شخصيته، إذ ليس من المنطق أن يكشفها لكل من يتعرَّف إليه، كان حازم رجلاً طويل القامة، ضخم الجثة، طفولي الملامح، لكني قرأتُ حزناً في عينيه، وضياعاً في روحه، وبؤساً في نبرة صوته .

تناهى إلى سمعي أثناء دخولنا المسرح هَمَساً بين اثنين يَبثُّ أحدهما للآخر خشيته من استهداف المسرح بقذيفة هاون أو بعبوة ناسفة تقضي على من حضر، ليكون الموت هو المخرج الحقيقي للعرض بكوميديا سوداء اعتاد أن يرغمنا على أن نكون "كومبارس" في مسرحيته السَمِجَة، تلقَّيتُ لكْزَةً مِنْ أحدهم أثناء هبوطي الدرج المفضي إلى المقعد المخصص لي، التفتُّ وسرعان ما غبتُ في أحضان شخص لم أتبيَّنه إلا حين أعتقني، سعيد، صديقي منذ أيام الدراسة، كانت مصادفة جميلة أن ألقاه بعد كل هذا الزمن الذي مر، لمحتُ دمعةً تَفِرُّ مِنْ عينه حين اتخذنا مكاننا في الصف الأول، رُفعت الستارة .. وبدأ العرض :

قدمانِ تتسلَّلانِ فوق خشبةَ المسرح، تبدوانِ في جاهزيةٍ كاملةٍ لأداءِ دورٍ يبدو أنه يعتمد على حركةٍ ابتدأتْ بتمهُّلٍ ورتابة، ثم ما لبثتْ أن تبدَّلتْ فسيطر الوَجلُ والتردُّد على إيقاعها، تراجعتْ وانكفأتْ، إلى أن وصلتْ مرحلة الحركة المنعَدِمة، حركة دونما حراك، أشبه بظِلٍّ مَيْت .

ثمة شخصية تصنع الحدث عبر نصٍّ يُصوِّرُ الواقعَ الموتور، يدمج الحدث

الحقيقي بالخيال المنسرح مع أنغام المقطوعة الموسيقية الساحرة " حب في دمشق " للموسيقار رضوان نصري، صوت " لينا شاماميان " الآسر يرافق الموسيقى ويرفق بنا بـ " يا ليل " أما العين فها هي تتابعُ وتنسج مِنْ دَمْعِها حَبْلَ قَهر .

الموسيقى ترافق وَقْعَ الخطوات على الخشبة، بدا لي أنه من المبكر البحث في ماهية هذه الخشبة، ربما كانت مُتشكِّلة من نجيع، ربما من أغصانٍ جَفَّتْ عروقها على يباسِ الروح، ربما من أحلامٍ فرَّتْ تاركةً الهشيم عنوان الحكاية، المشكلة لا تكمن هنا، ربما تكون خشبة الحياة بكل ما فيها، خشبة مُهتَرِئة نَخَرها السوس وقذف بها نحو غريقٍ وسطَ بحرٍ احترقتْ أمواجه، بدتْ لي الموسيقى الداخلية للبطل والإضاءة مُسلَّطة عليه وحده أشبه ما تكون بنواحِ الريح في ليلةٍ ظلماء، عدسة كاميرا مُخفيَّة تَظهَرُ بضع ثوانٍ فتُظِهرُ الأبعاد الخاصة لتكوين الحكاية من ألفها إلى يائها، وتختفي لتندمج " أنا " الرائي مع مسار كل تفصيل أراده المخرج فأبدع، صارمة توجيهاته في تحديد مسار الخطى وتَعرُّجاتِها لاستنباط حالة فريدة لا تشبه حتى ذاتها، لكنها تتطابق مع ما يخلقه في أرواحنا، إرادة مسلوبة في رسم نهاية المشهد الذي يعود إلى زمنٍ مُثقَلٍ بالهزائم .

جَلَبة يُحدِثُها خليطُ أصواتٍ لأشخاص يظهرون فجأة فوق الخشبة، يتوسَّطهم رجلٌ مُسِنٌّ يرفل ببياض كالضمير

قدمان غريبتان عن المسرح وَطِئَتا خشبته مع الطلاب، كان جالساً

بجانبي للتو، سعيد، الذي أخبرني أنه أتى لإعداد دراسة نفسية عن أداء الممثلين، كأطروحة لرسالة الماجستير التي يُعِدُّها حول تماهي شخصية الممثل مع الدور الذي يؤدِّيه ومدى تأثير كل منهما في الآخر .

يبدو أن الإيقاع الذي جسَّده الطلاب في الأداء التمثيلي كان مُفاجِئاً له أكثر من غيره، فقد جسَّدتِ المشاهد ما تركه الزمن محفوراً في ذاكرته، وهي ما أعادته على ما يبدو إلى سنين مضتْ .

ضَبْطُ الإيقاعِ المتواصِل، كان كفيلاً بنقله من خشبة المسرح هذه إلى بيته في ذلك الحي المضطَّرب على أطراف المدينة التي هُوجِمَتْ من قبل رجال مُدَجَّجِينَ بالسلاح في ليلٍ حالكٍ تركَ لفجرِ اليومِ التالي، الأحمر القاني هديَّةً للجدران، شهادةٌ حَيَّةٌ لزفراتٍ عانقتْ النجيعَ لتتركَ بُقَعَاً في الرُّوح لم يستطع الزمن إزالتها، طائر اللقلق يحومُ بحزنٍ فوق رأسه .

بعد الصخب المحدَثِ عَمْدَاً في فضاء المسرح، عاد نبضُ الإيقاعِ الموسيقي يَتسارعُ مُرافِقاً لتسجيلٍ مَرئيٍّ على شاشة عَرْضٍ كبيرة، أُعِدَّ لمرافقة المشهد التالي في المسرحية، سورية وما تواجهه من محاولات التقسيم، حرب قذرة أتت على البشر والحجر والشجر، تهريب آثار، مُتاجَرة بالأعضاء البشرية لمخطوفين، والكثير من العناوين التي مرَّتْ على شاشة العرض من دون صور، صمت .. صمت أطبق سطوته على المكان، مع تركيز في الإضاءة على قَدمي سعيد، فاجأه الصمت، دَهمَهُ، حلَّ فيه كضيفٍ ثقيل الظل بعنفٍ مُقيم، تقهقرَ راجعاً ليجلسَ على كرسي هَزَّاز في زاويةٍ شَحَّ عنها النور، وقد

استشاطتِ الدماءُ في عروقه موتاً، ها هو يرى نَصْبَ عينيه قصَّةَ والده وأخيه تتجسَّدُ تمثيلاً على خشبة المسرح أمامه، تسارع وجيب قلبه مع تواتر الإيقاع والمشاهد المؤدَّاة، أحسَّ بالعرق يتفصَّدُ مِنْ جَبينه :

" دِمْ دِمْ تَكْ تَكْ دِمْ دِمْ تَكْ "

قطراتٌ تَنزُّ من جوف الجدران المحتقنة بأنفاس الضياع في رُدُهاتِ الغضب المتحكِّم بتلافيف الجراح .

" دِمْ دِمْ تَكْ تَكْ دِمْ دِمْ تَكْ "

قبضاتٌ قويةٌ تُمسِكُ بِياقة الذكريات لتستدرجها، فتحضر مُذعِنة لنداء عصيٍ على نكرانِ أثر، الأثر تضخَّمَ واستحالَ كوناً بحجم الكون .

" دِمْ دِمْ تَكْ تَكْ دِمْ دِمْ تَكْ "

جسدُ شابٍ كان واقفاً يغسل وجهه بعد نهار شاقٍّ أمضاه في تعليم الأولاد الصغار، لكنْ الرجال الملثَّمين جاؤوا من الزاوية الأخرى، كما أتوا أولئك المجرمين، يوم كان سعيد طفلاً صغيراً، ليلقِّنوا الواقفَ أمام المرآة دَرْساً في كيفيةِ تَناثُرِ الدماء على جدران البيت، بعد إفراغِ بِضْعَ رصاصاتٍ في رأسه .

" دِمْ دِمْ تَكْ تَكْ دِمْ دِمْ تَكْ "

عينا الوالد المتهالك تشيانِ بالعمى، بعد فاجعةِ مَقْتَلِ ابنِهِ البِكْر

أمامه، لكن هؤلاء الرجال قَدِموا لا ليكتفوا بقتل ابنه البكر أمام عينيه، بل لجعله جثة هامدة، بعدَ أنْ تَذرفَ عيناهُ الفجيعةَ بمرارةٍ مُمضَّةٍ في آخرِ عهدٍ لهما في الحياة

" دِمْ دِمْ تَكْ تَكْ دِمْ دِمْ تَكْ "

كان طفلاً غَضّاً تَمَّ رَمْيَهُ فجأةً في مَفازاتِ الفَقْدِ، وأتونِ الإرهاب، ليشهدَ نومَ الظِلِّ بَعْدَ سَحْقِهِ، فمضتْ به السنون وظِلُّ الموتِ ظِلُّهُ المغشيّ لا يُغادِره قَيْدَ نَفَس .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

جسدٌ مُتهالِكٌ في الأربعينيات من عمره الافتراضي، حسب روزنامة التاريخ المهدور، وهو المجني عليه ينتفضُ إثر سماعه ذلك الإيقاع الدموي الجاني .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

تدهمه موجة " كهرَ قهرية " تسلب ما اختزنته نفسه المعذَّبة في بُؤَرِهَا المغشيِّ عليها، فتحيلُ أطرافَهُ إلى مَعْقَلٍ تجمَّعتْ فيه آلافُ الصورِ الدامية فتنتفضُ، تهتزُّ، تَرتجفُ، تُخيفُ كلَّ مَنْ كانَ حاضِراً، ترافقها صرخات وأنّات و دَويُّ انفجاراتٍ داخليةٍ مُتتابعة .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

حصارٌ من صنوف التعذيب القسري للذات، ينفلتُ من أسرها، في لحظة لم تكن في الحسبان .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

بحظتْ عينا الحقيقة في ومضةٍ رَقَّتْ لها عيون الحاضرين فصاغتْ من البكاء وشاحاً .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

أورامٌ خبيثةٌ تنفردُ بصُنْعِ مشهدٍ لم يُؤَدَّ قبلاً ولم يُعهَد لمخرجٍ قط .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

جسدٌ مُتهارِكٌ على خشبة المسرح ورسالة الماجستير تقطر دماً من أذني مُعدِّها .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

تاريخٌ مِنَ التَّعذيبِ، تَنْفَلِتُ قيوده في لحظةٍ شاردةٍ عَنْ عَقارِبِ اللؤم .

" دَمْ دَمْ دَمْ دَمْ "

انتفاضةُ رُوحٍ والظِلُّ مَغشيٌّ عليه والجسد بااااارد .

" دَمْ دَمْ دَمْ "

أيادٍ كثيفة تحملُ جَسَداً خواره يتعدّى السماء لتصل سيارة إسعاف على الفور .

" دَمْ دَمْ "

نبأ عن ولادة جديدة بارتعاش صوت لوليدٍ انزلق للتوّ .

" دَمْ "

تصفيق، تصفيق، تصفيق يتسبَّبُ بعدوى لدمشق التي تشهد العرض الأول لهذه المسرحية وسط الموت الذي تشهده بتفجيراتٍ واغتيالاتٍ واستهدافٍ بقذائف هاون .

" تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ "

انتهى العرض ....

خرجتُ من المسرح، لستُ بقادرٍ على النطق، هنَّأتُ سعيد على نصِّهِ ومشاركته تمثيلاً في هذه المسرحية وقد أخفى عني مشاركته بعدما تبيَّن له أنني لم أقرأ " بروشور " العرض المسرحي .

عدتُ إلى بيتي، ولجتُ سريري، تكوَّرتُ كجنينٍ لا يريد الانزلاق من رحمٍ يبكي ماء الحياة .

في مساء اليومِ التالي، خصصتُ فقرة من برنامجي لأجري اتصالاً مع مخرج العمل ومؤلّفه .. صديقي سعيد .

اتصلتْ بي ألما تسألني عن سبب اختفائي بعد العرض، ولتخبرني أنها قريبة من الإذاعة، راجيةً رؤيتي .

التقيتُ بها، سرنا في طريق يكاد يخلو من المارة، كانت ترتدي لباس الرياضة، وقد خلا وجهها من أي صبغة تجمِّل بها وجهها، حتى أحمر الشفاه لم يكن له أثر على شفتيها، صُدمْتُ قليلاً وحاولت ألا أُشعِرها بذلك، سرنا معاً نتحدَّثُ فيما استدعى خروجها في هذا الوقت لتطلبَ رؤيتي، كانت قد تشاجرتْ مع حازم، وتركتْ له البيت، التصقتْ بي أثناء سيرها وقد لفَّتْ خَصْري بيدِها وأرختْ برأسها على زندي، كان المساء في دمشق ساحراً، لكن لم يكن أحد ليعلم إن كان ذلك سيستمر أم أنَّ تَفجيراً هنا ربما يحدث، أو قَصْفاً هناك سوف يقع، لذا كان من الخطر أن تخرجَ ألما في هذا الوقت، مررنا في شارع تعبق فيه رائحة الياسمين الدمشقي الساحر، فانهمرتُ عليه كالندى، وبتُّ أرجوه أن يُقبِّلَ يدي ليفوح عطره من روحيَ العطشى، ضَممتُ باقةً صغيرةً وقدَّمتُها لها، فبادرتني تقول :

- كم تعشق ياسمين الشام !!
- أجل .. لا أتصور أنَّ الشامَ شامٌ من دون قاسيون والياسمين .
- أحبك ..
- ألما .. أرجوك، لا أريد أن تتعلَّقي بي، أنتِ امرأة متزوجة، ولا أريد أن أؤثِّر على حياتك الزوجية فتهدميها كُرمَى لحبك لي، كما أنني لم أتخلَّص بعد منْ قيد روزالين، أفهمُ مَشاعرك ولا أستطيع ثَنْيَكِ عنها أو دعوتك لكَبْحِها، لكن ...
- لا أريد منك شيئاً، لم أطالبك بشيء، فلا ترهق نفسك وترهقني

معك، إبقَ لي في حياتي فوجودك يعينني على تحمُّل قسوتها، وربما لو لم تكن موجوداً بقربي لأنهيتها .

• تَرفَّقي بنفسك، وفكِّري بأولادك، لا أريدُ لهم حياة يَشيعُ فيها التفكُّك الأُسَري، ربما تستغربين حديثي هذا وكل محاولاتي السابقة معك، لكنها الحقيقة التي يجب أن تدركيها، لا مستقبل لنا معاً، لن أتزوج مُجدَّداً وإن تخلَّيتِ عن حازم .

قهقهتْ بشدة، والسخرية مطر يتبع بَرقَ ضحكتها التي ضجَّتْ في المكان :

• ماذا تقول ؟!! ومن قال لك إنني أريد الزواج مُجدَّداً بعد طلاقي من حازم ؟

• لا أريدُ أنْ تُسيطرَ عليكِ هذه الفكرة وأطلبُ منكِ مُعاودةَ التفكير فيها لأجلِ أولادك إنْ لم يكن لأجل حازم وحياتكما معاً .

بُهِتَ لونُ وجهها وانسحبَ جارّاً أذيال الخيبة ..

• لا تَقُلْ هذا الكلام الآن، دعني أستمتعُ باللحظة معك، ما رأيكَ أن نسافر معاً إلى بيروت ؟

• ماذا ؟!! إلى بيروت ..

• أجل .. ليوم واحد أو يومين فقط .

ضحكتُ من فكرتها، وقلتُ بسخرية :

- ونحجز في الفندق جناحاً أو غرفتين ؟

- جناح واحد، أو يكفينا غرفة بسرير واحد، أو .. لا لا لن ننام أصلاً فلا داعي لحجزنا، نقضي الليل على شاطئ البحر، ما رأيك ؟

- أنتِ مجنونة .

- ألم أقل لك إنني مجنونة في الحب ؟ .

- أخشى عليكِ .

- نعيش الحياة مرة واحدة فلماذا نُرهِقُ أنفسَنا فيما لا طاقة لنا به ؟ .

- وحازم ؟

- يووووووه .. ما الذي تريده من حازم ؟ لماذا تقتل كل تَصوُّر جميل بيننا ؟

- قلتُ لكِ سابقاً .. أنا لستُ كباقي الرجال، ما يُفكِّرونَ فيه ويَشتَغِلّونَهُ بعيد عن تفكيري .

- فهمت، والله فهمت ..لكن ما المشكلة إذا سافرنا معًا إلى بيروت ؟

- فلنؤجل الحديث في هذا الموضوع .. يجب أن تعودي الآن .

(١٥)

كنت أقود السيارة في طريق عودتي من مقر الإذاعة، حين اتصل بي شهيد ليعلمني أنه سينتظرني في ساحة الأمويين عند مدخل حديقة تشرين قادماً من مشروع دمر، كان كلامه مُقتَضَباً أثناء حديثه معي، بدا صوته مخنوقاً بالكاد سمعته لا مِنْ سوءٍ في شبكة الاتصالات بل مِنْ حُزْنٍ كَثيفٍ غَصَّتْ به روحه، كأنَّ أمراً جَلَلاً أصابه، لم يَرِدْ أن يطمئنني عنه عبر الهاتف، اكتفى بالقول : حين نكون في البيت أخبرك .

بقي طوال الطريق واجماً ساهماً، بدا الإرهاق والتعب قد نالا منه، اكتفى بالصمت جواباً يتيماً على أسئلتي المتوالدة إثر اكتشافي التغيرات الطارئة عليه، أردتُ كَسْرَ الصمتِ اللعين بدعوة جوليا لتحضرنا وتغني :

" بتعرف شو الحلو فيك، إني كل ما بلاقيك، بتحلا كتير بعيني، وصادق مية بالمية، عندك طلّة وتأثير، إحساس وزوء كبير، من قلبك بتصارحني، لا بتكذب لا بتجرحني، ولا بتخجل من ماضيك، هيدا آه هيدا الحلو فيك "

لم أستطع صبراً فكرَّرتُ طرح أسئلتي بأسلوب جديد، لكنه لم يُجِبْ .

بدا شهيد نحيلاً أكثر مما كان بكثير، مُسمرَّاً داكناً، حاولتُ استنطاقه، لكنه أبى أن يتكلم، أطلتُ النظرَ إليه أثناء قيادتي للسيارة، كان يرنو نحو الأمام وكأنه ينظر إلى العدم، بدا ساهماً وقد خلت ملامح وجهه من أي تعبير سوى الأسى والقنوط، تحشرج صوته وهو يقول :

قُدْ سيارتك دون أن تنظر إلي، ما بالك يا رجل !

تساءلتُ في نفسي وقد أصابني الذهول، ما الذي تغيَّرَ بشهيد ولماذا غاب عني كل هذه الفترة ؟! كان يلاحقني ويؤنِّبني حين أغيب عنه، وكلما اشتاق إلي يحدِّثني عبر الهاتف ليخبرني أنه في طريقه إلي، إنْ كنتُ في مَقرِّ الإذاعة أو في البيت، الآن يبدو إنساناً آخر ..

كعادته .. دخل المطبخ حيث يحبُّ أنْ يجلس، سارعتُ بإعداد القهوة لأجلسَ أمامه فقال :

- "كنتُ مُختَطَفاً" .

دُهشتُ، تَلعثمتُ، حارتِ الحروفُ فتكدَّست ككومةٍ من اللحمِ المعجونِ بالدم :

- - ماذا تقول ؟!!! متى حدث ذلك ؟ كم بقيتَ مُختَطَفاً ؟ لماذا لم تخبرني ؟ من هم أولاد القحبة الذين خطفوك ولماذا ؟ ما الذي يريدونه منا يا الله ..

كلمة "خَطْف" كانت تُؤَثِّرُ بي أيما تأثير، كلمة خطف كانت أشد وَقْعاً عليّ

مِنْ أيّ فِعْلٍ إجرامي آخر، لأن الإنسان يموت آلاف المرات بين أيدي الخاطفين .

- هل عرفتَ الجهة التي اختطفتك ؟ وكيف استطعتَ الإفلاتَ منهم ؟ أرجوك أخبرني ..

- لا أعلم مَنْ هُمْ .. بَقيتُ مُحتَجَزاً لديهم ثلاثة أيام، لو لم أدفع لهم المال لما خرجت، كانوا ثلاثة رجال وكنتُ عائداً من مطعم " إشبيليا " حدث ذلك على الطريق العام في جرمانا بعد ساحة البلدية، تقدَّمتْ مني سيارة سوداء، تحدَّثَ إليَّ من كان يقودها مُستفسِراً عن مكان المطعم الدولي، وقبل أن أنطق بحرف كان السلاح مُوجَّهَاً صوبي من ثلاثة آخرين أحاطوا بي ودفعوني نحو السيارة، أدخلوني فيها عنوةً وعصبوا عيني، المسافة التي اجتازوها قصيرة، كان المكان مُقفِراً، أنت تعلم، جرمانا محاطة بالبساتين، بقيت ثلاثة أيام بلياليها .

- هل عذَّبوك ؟ من هم ؟ هل أخبرت الشرطة ؟

- لم أخبر أحداً، ولا أعلم من هم .. حتى الساعة لا أصدِّق أنني ما زلت حياً .

- هل عذَّبوك ؟

- في اليوم الأول لم يقتربوا مني، لكنهم منعوا عني الطعام، وحين تناوبوا على حراستي فيما بعد، جَلَدني أحدهم بعنف .

استنفرتُ واقفاً لأكشف عن ظهره وأرى ألوان التعذيب وخطوطها الممتدة حتى الروح، أردف شهيد :

كان الشاب مخمورًا، وسرعان ما انضمَّ إليه البقية، تشاجروا فيما بينهم، عندما حاول من جَلَدني قتلي، تصدَّى له شاب امتلأ وجهه بالجروح المندملة، رفض ذلك بحجة أن المال الذي يريدونه قد سُلِّم لهم، لحظة كانت تفصل بيني وبين الموت، صوَّب الشاب المخمور مسدسه نحو رأسي ولقَّمه، رأيتُ عمري ينسرب مني في تلك اللحظة، لكن الشاب الآخر أبى أن أُقتَل .

- لعنهم الله جميعاً، الحمد لله أنك بخير شهيد .
- لا بأس .. مَرَّتْ على خير .
- كم قبضوا وكيف دفعت لهم المبلغ ؟
- طلبوا بداية الأمر مليوني ليرة سورية، أبيتُ أن أدفع لهم المبلغ وحلفت أني لا أمتلكه، دفعت لهم ستمائة ألف ليرة، طلبوا مني أن أتصل بأحد أصدقائي ليترك لهم المبلغ في مكان اختاروه .
- إذن .. هم ليسوا من المجموعات المسلحة الإرهابية .
- لا أظن ذلك، وإلا ما كنتُ نجوتُ منهم .
- هم عصابة إذن تمتهن الخطف لأجل الابتزاز وسلب الأموال، لماذا لم تخبر عنهم الشرطة أو الأمن ؟ .

- لأنني عرفت من كان وراءهم .

- من هو ؟ وكيف عرفت ؟ ما الذي أسكتَكَ إذن بالله عليك ؟!!

- كل الدلائل تشير إلى شخص واحد فقط، وجميع من عرف قصتي أكد لي أنه .... أنه

- قل شهيد .. بربك قل لي من هو ؟

- أحمد ..

- أحمد !!! أحمد ؟؟

- أجل ..

- لماذا ؟!! أنت وضعت حاتم الطائي في جيبك حينما كنتَ تساعده وقد صرفت عليه وعلى أهله وابنه أكثر من مليوني ليرة سورية كما أخبرتني سابقاً .. لماذا ؟

- كان يُصِرُّ علي في الفترة الأخيرة أن يرافقني إلى العراق ليعمل عندي في معرض السيارات، عندما رفضتُ، تغيَّرتْ أحواله معي، أسرَّ لأحدهم مرة وكان قد أسرف في شرب الخمر مع بنات الليل أنه سوف يجعلني أندم على رفضي .

- كنتَ مأخوذاً بحبكَ له، أخبرتُكَ مراراً أنك مسحور، لم تكن علاقتك به طبيعية، شهيد .. قل لي ما الذي أسكتكَ عنه ؟

- كنتُ أحبه يا قيصر، وأنت تدرك ذلك جيداً .. لا أستطيع أن أضرَّهُ .

- تحبه ؟! كنتَ دائماً تقول لي " إن لم ينتج عن الكذب ضرر .. كان مقبولاً " فماذا تسمّي فعلته تلك ؟ ألم يُصِبْكَ الضرر جرَّاء كذبه عليك في حبه ؟ وهل أحبَّكَ بالأصل كما أحببته ؟ أنت تعلم أنه استنفدكَ حتى آخر رمق، وكان يستغلك أيّما استغلال، كنتَ راضياً بذلك وقابلاً بنفاقه وخداعه مقابل أن يستمر معك في علاقة تشوبها الريبة وتلوِّنها الظنون بالسواد .

تنبّهتُ إلى أن شهيد لم يكن ليسمح بمناقشة أمر صداقته مع أحمد فاستدركتُ قائلاً :

- المهم الآن أنك بخير .. لا عليك، لا عليك، الحمد لله أنك بخير لكن اسمع ..

- صَوَّبَ نحوي شهيد نظرة يأس تماوج فيها ظلال غضب، قلتُ في نفسي " لابد أنه واقعٌ تحت تأثير سحره " وأكملتُ :

- اسمعْ .. لن تطأ قدماك جرمانا بعد اليوم، ستبقى هنا، معي في بيتي، لن أسمح بأن تُعرِّضَ نفسك للخطر مرة أخرى، هل فهمت ؟

- وزوجتك ؟؟ ستعود إليك، وسأعود إلى جرمانا .

- لن تعود يا شهيد، قررنا أن ننفصل، فكَّرتُ مليّاً بالأمر وحادثتُها منذ يومين، سأبدأ باتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة، شهيد ..

اسمعني جيداً، لا أريد أن تُصاب بأذى، ابتعد عن جرمانا، هذه المرة نجوتَ منهم لكن من يضمن أن تنجو مرة أخرى لا سمح الله ..

- " قل لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا " والحمد لله على كل حال .

- لا أعارضك في ذلك، لكن " اعقلها وتوكل " يا أخي .

- إنكم تخرِّبونَ بلدكم يا قيصر، لا أريد أن أرى سورية التي أعشقها حتى النخاع باتت عراق ثانية، حدث ما حدث في العراق وأنت تعلم أني خرجت منها بُعيد مقتل الرئيس صدام حسين في ٢٠٠٣ وقضيت في سورية أكثر مما أمضيته في بلدي، سورية لا تستحق كل هذا الخراب، بات القتل لديكم على الهوية .

- أنت تُذكّرني الآن بما كتبه المخرج السوري جود سعيد في صفحته على Facebook كتب ما يُلخِّصُ القضية وبما معناه : سورية تقاتل إسرائيل وعَرَبَها، سورية التي ورثَتْ مع قِلَّة من الشعوب العربية المقاوِمة الحضارة في المنطقة العربية، لقد انتهت الكذبة المسماة الصراع العربي الإسرائيلي وانكشف العهر بأقبح صورة .

- قل لي الآن : متى تم اختطافك ولماذا لم تخبرني فوراً ؟

- منذ أسبوعين تقريباً، لم أشأ أن أقلقك عليّ، وكنتُ بحاجة لقضاء فترة مع نفسي، لكي تهدأ روحي وأستعيد توازني .

- لا بأس الآن .. المهم أنك بخير، واعتبر يا أخي أن بقاءك معي

عامل إيجابي مساعد لكي تنسى أحمد، لا تقل لي إنك تنوي التواصل معه بعد كل ما حدث لك ..

- لا .. لا لن أتواصل معه البتة، أنا تعبت وآن لي أن أرتاح .

- شهيد .. رغم محبتك الكبيرة لأحمد لكنك الوحيد الذيَ يعرف سلبيات علاقتك به .

- قيصر ... افهمني أرجوك، لم يسبق لي أن بُحتُ لكَ بتفاصيل علاقتي به ليس لأني أخجل بها، فوالله لا يوجد فيها ما يُخجِلُ، هناك شيء ما في داخلي كان يُسكِتني في كل مرة ويمنعني من البوح بما يخص علاقتي به .

- حتى الآن .. إن لم تكن ترغب بالتكلُّم عنها فلا أريد معرفة تفاصيلها .

- لا .. لا ، ثمة جبل فوق صدري وأريد إزاحته، أريد أن أفضفض لك لكي أرتاح .. قيصر، أنا أحببت أحمد وتعلّقتُ به تَعلُّقاً غريباً، كنتُ لا أحتملُ غيابه عني لحظة واحدة، أنت تعلم ما هو عمله، إنه طبّاخ عادي في مطعم " إشبيليا " وأنا زبون دائم في المطعم، وبشير صاحب المطعم أمسى صديقي، استغرب بشير كيف أتخذُ من أحمد صديقاً لي، كان مُهمِلاً لنفسه وأهله وزوجته وابنه، وقد تمكّنَ بفترة قياسية وبذكاء خارق من التسلُّلِ إلى حياتي والاقتراب مني لدرجة أنني لم أعد أطيق الحياة من دونه، عَلِمَ ذلك منذ البداية، استغلَّ محبتي له فبتُّ أصرف عليه وعلى أهله، لم أطق

بعده عني، لازمته في كل وقت وبكل مكان، أصبح كا ظلِّي، لا أردُّ له طلباً، ولم أكن أريد منه شيئاً أكثر من أن يبقى معي، بتُّ أنام إلى جانبه في مطبخ إشبيليا وعلى الأرض، هل تصدِّق ذلك ؟

• ألهذا الحد ؟!!

• وأكثر من ذلك، في الشتاء الماضي، امتنعتُ عن السفر إلى العراق مدة شهرين، لم يكن بمقدوري أن أغيب عنه، أهملت عملي، وتشاجرت مع أبي بسبب بقائي هنا في سورية وأوكلتُ لأخواني مهمة متابعة شؤون العمل في صالات البيع، وبقيتُ هنا إلى جانبه ..

قاطعته مستفسراً مندهشاً :

• متى اعتبرتَ نفسك أنك قادر على التفكير على هذا النحو بما يخص علاقتك به ؟

• بعد أن تم اختطافي، قبل ذلك، كنت لا أفكر إلا بحاجتي له .

• والآن .. ؟

• بتُّ أراه الشيطان بعينه، لم يبقَ أحد من أصدقائنا إلا وقال لي إنه وراء اختطافي وقد كشف نفسه من خلال اتصاله بأحدهم وإعلامه عن خطفي قبل أن يعلم أحد بما تعرَّضتُ له .

• قل بالله عليك .. لماذا لم تراجع الجهات المختصة ؟

- لم أستطع أن أردَّ له الإساءة .

- هل تعتبر أن ما أقدم عليه بمواجهتك مجرد إساءة ؟!! إنها جريمة مُنظَّمة يا شهيد .

- انتهى الموضوع والحمد لله أنني بخير الآن، لكن ما يُؤَرِقُني حالياً أنني بِتُّ أسترجعُ كل موقف معه وكل كلمة، في كل لحظة وفي أي حدث يعيد إليّ ذكريات الأمس معه، لا أجد نفسي إلا رجلاً مُغفَّلاً وقعَ تحت سطوته بشكل لا إرادي، بجنون، كانت حالة هستيريا حقيقية، كيف .. لا أدري، وهذا ما سوف يقضي عليّ إن بقيتْ الذكريات تتداعى في رأسي، قل لي بحق الله مع من كنت أتعامل ؟!! مع شيطان ؟ أنا متأكد أنه من نسل إبليس .

- ليس أمامك إلا أن تُشغِلَ نفسك لكي تنساه، يجب أن تتخلَّص من سحره، لازلتُ على قناعتي أن سحراً ما أعدَّه لك وهيَّأه كي تكون خاضعاً له، مسلوب الإرادة أمامه، تُحقِّقُ له ما يريد .. لكنه حين طلب منك مرافقتك في السفر إلى العراق للعمل لديك هناك لكي يتخلَّصَ من واقعه البائس هنا ورفضتَ ذلك، لم يبقَ أمامه إلا الاحتيال عليك وسلبك مالك فاشترك مع ثُلَّةٍ من أصحابه وقاموا بخطفك .

- هذا تماماً ما قاله لي بشير ..

- لا تهتم الآن بأي أمر يخصه، انقطع عن " إشبيليا " .. هل اتصل بك بعد حادثة الخطف ؟

- أجل .. لكنني لم أرد على اتصالاته، إنه يتصل بي كل يوم أكثر من مائة مرة، ويبعث لي برسائله عبر المحمول وبرنامج الدردشة لكني لا أرد عليه .

- ماذا يقول لك في رسائله ؟

- يرجوني أن أدعه يراني، أمسى ذليلاً .. خانعاً ويكرر عبارات التوسل والرجاء، لم أخبره بالطبع عن مكاني ولن أخبره .

- دعه وشأنه .. إنسَ أمره ولا تضعف، سيحاول مراراً أن يستجديك ويصوِّر لكَ نفسه أرضاً لكي تمشي عليها .

- هذا ما كتبه بالضبط في إحدى رسائله .

- سوف يكتب الأقوى تعبيراً، لكي تصفح عنه وإن لم يعترف بفعلته، ولن يستطيع الاعتراف بالتأكيد وإلا قضى على نفسه .

- علمتُ من بشير أنه طلَّقَ زوجته، انقطع عن أهله تاركاً ابنه لهم، بعدما هجرته زوجته، وقد صاحَبَ بنت هوى واستقر معها في بيتها، وغدا الخمر رفيق لياليه .

- دَعْكَ منه الآن واسترخ، هذا هو مستواه الحقيقي الذي لم تكن لتراه قبلاً، قلت لك مراراً : " عاشر الكبير بتكبر .. وعاشر الصغير بتصغر " .

- لا بأس عليك يا شهيد، احمد الله أنك بخير الآن .

(١٦)

" لستُ كما تظن، يأخذني ظَنُّكَ في دربٍ وَعِرةٍ أُدركُ خطورتها ... لستُ ممسوساً ولا السحر بقادرٍ على جعلي مجنوناً ... أطلبُ منكَ فقط أن تعاود التفكير فيَّ يا قيصر " .

أذكر ما قاله لي شهيد ذات مرة، ثبتَ لي بعد مرور عدة أيام على إقامته في بيتي أنه كان يحدِّث نفسه ويؤنِّبها .

لم يكن شهيد ليخرج من البيت كثيراً، جُلّ وقته كان يمضيه بمحادثة أصدقائه على برامج الدردشة، يقضي الليل في ممازحتهم ومحادثتهم، أشاركه في سهراته وقتاً قصيراً وأنام، لالتزامي بعملي الذي يفرض علي أن أستيقظ باكراً، أودِّعه وهو يصارع النعاس مُتَّجهاً نحو السرير لينام، وأعود من عملي لأجده يغطُّ في النوم أو خارجاً للتو من الحمام، إذا خرج من البيت أطمئنُّ عليه كل نصف ساعة، وإن كنتُ في مقر الإذاعة أطلبُ منه أن يمر لنعود معاً إلى البيت، لم يستفزّني عدم اكتراثه بالوقت، قدَّرتُ أن انشغاله مع أصدقائه على الشابكة، تسلية لا أكثر، لكن خشيتُ أن يُمسي إدماناً حقيقياً ويتسبَّب له الفراغ بلوثة في عقله، خاصة بعد أن أعلمني بما

يقاسيه من كوابيس .

السَوْطُ يُقحِمُ الدَّهشةَ في غياهب الفراغ، قاتلاً يغدو عندما يفرض سطوته على النوم، يعلن المصدوم قيامته ليرتاح .

نسي شهيد اهتمامه بالألوان وعشقه للفن، كما لم يكن عمله يتطلَّب منه بذل وقت أو جهد فيما يؤديه، هذا ما استغربته، إذ قلَّما أراه يتحدث مع أحدهم في عمله، ساعدته مرة في طباعة بيانات خاصة بأسعار السيارات حسب نشرة أسعار السوق في دمشق، وأرسلها عبر البريد الإلكتروني، كما تضمن الجدول الذي طبعته قائمة صغيرة بما يمتلكه من عقارات مؤجرة والاستحقاق المالي لكل عقار على حدة، لم أشأ أن أتدخل بأمور عمله، لكنه بُعيد مساعدتي له، أخبرني أن عمله يتركز في سوق دمشق وعمان وبغداد، بشكل رئيسي، لكن الأحداث في سورية أثَّرت سلباً على أرباحه التي يجنيها من عمله ليقوم بتحويلها فوراً إلى سوق عمان وبغداد، ولا يبقي معه من المال سوى ما يحتاجه لمصروفه الشخصي .

شهيد .. تاجر يشغل وقته بالدردشة، تجارته تأثَّرت في ظل الحرب الدائرة، وتجارٌ آخرون يُمعِنونَ في قَنْصِ قُوْت يومنا، فغدا كل تاجر عرَّاب الحياة، وأضاع بتجارته حياة الناس، وجدوها مرسومة بألوان ناتئة على أفواه مفتوحة على الجوع، والدم يخطُّ أغنيته على إسفلت الخديعة والحقد، والموت .. بقعة زيت تمتد على ثوب الوطن، والوطن يبكي .. وتجار الموت يضحكون ويسكرون من خمره المهزوم .

حين أردتُ إيقاف تشغيل جهاز الكمبيوتر المحمول لشهيد، لمحتُ صورة فتاة بهيّة الطلعة على سطح المكتب، بادرتُ بسؤاله عنها، أخبرني أنها خطيبته السابقة، استشهدتْ في بغداد جراء تفجير عبوة ناسفة وُضِعَتْ على الطريق العام، لحظة مرور السيارة التي كانت تُقلُّها وأخيها وأمها، قُتلتْ خطيبته، وأُصيبَ الأخُ إصابات بالغة ما اضطرَّ الأطباء لبتر ساقيه، أما الأم فقد نجتْ من موتٍ مُحتَّمٍ بأعجوبة، حدث هذا يوم أرادا تسجيل واقعة الزواج في المحكمة، وكان شهيد يقود سيارته خلفهم، كانت العبوة أقرب إليهم منه .

صور هي ما يبقى من الإنسان، وشريط ذكريات يخصُّ من يبقى حياً، لكأنَّ الحياة بكل ما فيها ليست سوى مزحة ثقيلة، هذا ما تفوّه به شهيد عندما رنا إلى صورة خطيبته قبل أن يوقف جهازه، كان الألم مسيطراً على ملامحه تلك اللحظة، أردتُ إزاحة الحزن جانباً، بادرت أسأله عن جيجي

- جيجي فنانة استعراضية، تحمل الجنسية الليبية، كانت متزوجة من عازف موسيقي قُتل أيضاً في ليبيا منذ عشرة أعوام، وكانت تحمل في أحشائها جنيناً، لم تكن على وفاق مع أهل زوجها، قَدِمتْ إلى دمشق واشتغلت في المقاهي الليلية، جُلَّ ما تهتم به طفلها الوحيد، فقد تربَّتْ يتيمة وتدرك تماماً أي عذاب سيلاقيه لو لم تكن موجودة، لذا تراها تعمل بكدٍّ لتحصل على لقمة عيشها، وهي مُرخَّصة فيما تزاول من عمل، تعرَّفتُ عليها حين قدمتُ إلى دمشق عند سقوط بغداد، أعلم عنها الكثير فهي صديقتي وتحدِّثني

في كل أمورها .

- ألم يؤثِّر عملها على نظرتك لها ؟

- لا .. حاولت كثيراً أن تجد عملاً آخر لكنها لم تفلح، وتعرَّفت على صاحب ملهى ليلي في الغوطة فاضَّطرت للعمل عنده، حين بدأت الأحداث هناك قَدِمت إلى مطعم إشبيليا وعملت لدى زياد .. أنت تعرفه كم هو طيب القلب وقد ساعدها كثيراً في تأمين مسكن لها ولابنها، ومن ثَمَّ فَما مِنْ خيار آخر أمامها .

- وما سِرُّ اهتمامها بك ؟

- لا سِرَّ في ذلك، قلتُ لك إنها صديقتي، وعملها لا يثنيني عن الاهتمام بها، خاصة أنها تقدِّم فقرتها وتغادر المطعم فوراً، لكن ما لكَ وجيجي .. حدِّثْني أنت الآن عن ألما، أنت " أزعر " تُحسِنُ طَرْحَ الأسئلة والإصغاء وتراوغ حين تُسأَل عن حياتك الخاصة .

- هذا يمكن حدوثه مع الغرباء وليس مع صديقي شهيد" الدرويش " .

- ضحكنا معاً .. نهضتُ لأعدَّ فنجانين من القهوة ومن ثم أفتح لشهيد ملف ألما .

- بعد أن استمع إليَّ عما رويته له عنها .. قال :

- قبل أن أناقشك بما يخصُّ ألما .. هل لي أن أسألك عن روزالين ؟

- ما بها ؟ .

- هل انتهتْ في داخلك ولم تعد قادراً على الاستمرار معها في الحياة ؟

- لم يبقَ أي أثر لها سوى طيفها الذي يتراءى لي كل حين في البيت، سيزول ذلك قريباً ويختفي، أصرّتْ أن تكون السلاح الأمضى لِقَتْلِ كل جميل في روحي تجاهها .

- بدا شهيد مستوعباً وجع روحي، صمت برهة وهو يحوم في المكان، ضرب كفّاً بكف وأتبع قائلاً :

- أظن أنها مجنونة .. ألما .

- أخبرتني بذلك .

- في الحياة .. وليس في الحب فقط .

- ماذا تعني ؟

- هل نسيتَ أنكَ تكره أن تأتي زوجة على ذكر الأمور الخاصة بعلاقتها مع زوجها ؟

- لم أنسَ بالطبع، لكن ألما جرفتني معها في سيل مشاكلها مع حازم، لا أخفيك أنها مُتعِبة في تَرصُّدِها لي أنّى كنت، وقد سئمتُ أُفهِمُها طبيعة علاقتي بها .

- هذا من وجهة نظرك التي لا تتطابق مع عشقها لك. ما بالك يا رجل ؟ هل أمسيتَ جاهلاً بأمور العشق والهوى ؟

- لا لستُ جاهلاً، لا أنكرُ أني أعشق روحها. لكن ..

- لن تستوعب منك هذا الأمر، فهي عاشقة، والعشق حين يحلُّ يفكُّ أسرَ العقل من الجسد فيطير، لكن قل لي بصراحة هل تعجبك ؟

- ليست من النساء اللواتي يثِرنَني .

- هل قلتَ لها ذلك بطريقة غير مباشرة ؟

- بالطبع لا .. لا أريد أن أجرحها يا شهيد، أدرك أن ثمة غرابة في عشقي لروحها واكتفائي بذلك ..

- لا غرابة بالأمر، الغريب أنها عشقتك، ما الذي أعجبها بك يا رجل ؟

- هل تعلم أنها تغار منك ؟

- هاااا .. ولماذا تغار ؟

- تقول لي إنك ضرّتها، وقد بات الغيظ يتحكّمُ بها كلما أتيت على ذكرك .

- إذن لا تذكر اسمي أمامها .

- وأنت ممن تغار يا " درويش " ؟ .

- من " السمرا " ..

- " السمرا " من أصدقاء Facebook ؟ .

ضحك شهيد وأتبع قائلاً :

- أنت تمزح .. ما بالك يا رجل ؟ هؤلاء أصدقاء العالم الافتراضي وليسوا معي في الحياة .

- هل تعلم أنني اعتدتُ عليك ؟

- لكنني سأسافر إلى العراق وسأغيب عنك طويلاً، أعلم أني خفيف الظل، ومحبوب، وجميل المظهر، وأقدِّر تمامًا غيرتك ..

- أنت محتال، وفي قمة تواضعك .. درويش .

قهقه شهيد ونهض ليُعِدَّ الطعام وهو يغني : " هي السمرا .. شوكولا .. شوكولا " .

(١٧)

لماذا حين نَدَعُ للآخرين فُرجَةً صغيرةً للاقتراب منا، نراهم يُغرِقوننا بتفاصيلهم الصغيرة وبمشاكلهم التي ترهقهم حتى تمسي معاناتنا كمعاناتهم ؟

تساءلتُ بامتعاض حين أرهقتني ألما بملاحقتها لي، بتتبُّعِ تحركاتي عبر برامج الشابكة وعبر الهاتف الثابت والمحمول، باجتهادها في نقل كل ما يدور بينها وبين حازم، وبمناقشاتها مع أبيها الذي علم مؤخراً بواقع علاقتها بزوجها، في أي ساعة من النهار أو الليل، تتصل بي، لتبكي تارة، وتفضفض تارة أخرى، ولتحلم أغلب الأحيان بأن نكون معاً، بات الحديث معها مُقتصِراً على ما تحياه من عذابات وإرهاصات وأطياف أحلام .

أومن بأن الأصدقاء يتعايشون مع بعضهم البعض في التفاصيل، لكن .. أمام مصاعب الحياة وهمومها، بات الإنسان غير قادر على تحمُّل المزيد من المتاعب والهموم، لذا كان لابد لي من التطرُّق عبر برنامجي لهذا الموضوع، ربما تعي ألما ما تُقحمني فيه فتتراجع أو تخفِّف من وطأة إشراكي في مشاكلها خاصة مع حازم، وبعد إذاعة الحلقة، كان لابد سن ترجمتها لاستيعاب هذا الأمر، فقامت بزيارتي في بيتي .. .. ..

لم يكن أمامي فرصة لرفض زيارتها، مُذْ دَخلتْ أصابتها الدهشة، أبدتْ إعجابها في ترتيب الأثاث، وفي توزيع اللوحات الفنية على جدران غرف البيت، في انتقاء ستارة غرفة النوم وملاءات السرير، في صورتي التي تَتصدَّر غرفة الجلوس، وإلى جانبها لوحة كُتبَ عليها عبارة كتبتها يوماً ولم أدعها لرحمة النسيان :

" مَنْ يُخرِجُكَ مِنْ بِئرِ البراءةِ العميق .. لن يُقدِّمَ لكَ ماءَ الحياةِ الصافية "

استوقَفَتْها العبارة طويلاً، رأيتُها تذهبُ بعيداً في تحليقها، وبعد لحظات أتى سؤالي ليعيدها إلى أرض الواقع .

- هل أعجبتك ؟
- من هو الفيلسوف الذي كتب هذه العبارة ؟
- أنا .. لكني لست فيلسوفاً .
- أحقاً ما تقول ؟
- أجل .. هل أعجبتك ؟
- رائعة .. رااائعة .
- شكراً .
- لكن .. لماذا اخترت للبراءة البئر لا الفضاء ؟

- لأننا من تراب .. وإلى التراب نعود، والبئر في جوف الأرض وفيه الماء، ماء الحياة، ما يجب أن يحافظ عليه الإنسان : الماء والبراءة، وإلا فقد خسر حياته .

- أنت رائع قيصر .. لكن اسمح لي أن أُثني على ذوق زوجتك في انتقاء أثاث البيت وترتيبه واختيار ما يناسب كل غرفة وكل زاوية .. يبدو أنها فنانة، لكن أين صورتكما معاً ؟ .

ابتسمتُ ساخرًا .. ولوّحتُ بكفي بإشارة وداع قائلًا :

- أخفيتُها، بل مَزَّقتُها ولم أُبقِ عليها، والبيت .. بكل موجوداته، أنا من رتَّبه وأسَّسه واختار كل ما ترينه أمامك، روزالين مثلما أتتْ .. غادرتْ، لم تترك بصمة ولم أدعْ لها أي أثر .

دنتْ مني .. ضمّتني، قبّلتني على صدري، وقفتْ على رؤوس أصابعها وشرعتْ تقصُّ لشفتيَّ حديثاً تتوق إليه، شَدَّتْ بيديها عليّ كأنها لا تريد أن تفلتَ منها اللحظة .. وأنا .

غمرتُها بإحساسٍ مشوبٍ بالحنين، استسلمتُ لخدرٍ لذيذ فأغمضتُ عينيّ وسُقْتُ قطعانَ النشوةِ في مفازات اللذّة وغُدْرانها، لن أترك اللحظة تفرُّ دونما إمضاء على تضاريسِ جسدٍ يعشقني، وإن لم أعشقه .

تناهى إلى سمعي طرقاً خفيفاً على الباب، أدركتُ أنه شهيد، امتعضتْ ألما كعادتها، وانتبذتْ مكاناً لها في الشرفة، رمقني شهيد فور فتحي للباب،

مُتسائِلاً عما إذا كان حضوره أزعجني، همستُ له .

- لا .. أبداً. سنشرب القهوة فهل تشاركنا ؟ .
- " أزعر " .. هيا لجالسها وأنا سأعدُّ القهوة .

حملتُ بيدي تفاحة شهية، واتجهتُ لأجالس ألما، رمقتني بنظرة ثاقبة وهي تقول :

- تناولها أنت وشهيد .. تفاحتي لم تنضج بعد .
- إذن سآتي إليك بعصير التفاح لأحرق المراحل .
- " غليظ " .. دعني أذهب الآن .
- نشرب القهوة ومن ثم تغادرين .
- لا .. لا أريد أن أشربها مع شهيد .
- كما تريدين .. سأوصلك إلى سيارتك .

في صباح اليوم التالي، اتصلت بي ألما لتخبرني بما أسرَّ لها صديق لها دون أن تسمّيه لي، باح لها أنه مثلي الجنس، فبادرتُ أسألها :

- ولِمَ أفصَحَ لكِ عن مثليته ؟ ما الذي يريده من إعلامك بهذا الشأن الخاص به ؟
- لا أدري .. استغربتُ الأمر .

- وما رأيكِ أنت ؟
- هذا شأن خاص به، ما دام لا يؤذي أحداً بمثليته .
- جميل .. لم أتوقع منك ذلك .
- أحترمه كصديق، وأقدِّر له صراحته .
- الإفصاح عن الأمر ليس هيِّناً، ولا أتوقع أن يكون بتصريحه لكِ عن مثليته خالي الوفاض من هدف ما
- لا أعتقد ذلك، لأنه طلب رأيي بالأمر وناقشته بعدة نقاط تخصُّه في هذا الموضوع .
- لا بأس .. تبقى هذه التفاصيل بينك وبينه ولا أريد التعليق أو التدخُّل، ربما في وقتٍ لاحقٍ، أطلبُ منكِ التعرُّف إليه .
- لماذا ؟ أظن أن ذلك سيحرجه إنْ أحسَّ أنني أفشيتُ سِرَّه لأحد
- إذن .. لماذا تخبرينني الآن ؟
- لا أدري .. إنسَ أنني أخبرتك بأمره، هل أنت مشغول ؟ .
- سأنام قليلاً .. لماذا ؟
- سأزورك بعد قليل، أريد أن آكل تفاحتي .
- راحت عليكِ .. التهمها شهيد .

- اوووف مِنْ شهيد .. سأجلب معي بعض التفاح .

- ألما ..

- ماذا ؟

- لا شيء .. لا شيء .

- إذن .. سأكون معك بعد ساعة من الآن .

لماذا امتنعتُ عما أردتُ الحديث عنه ؟

لستُ مرتاحاً من زيارتها السابقة، ولا أريد أن تتعلَّقَ بي أكثر، يبدو أنها ماضية فيما تريد الوصول إليه، ولن يثنيها فراغ ثلاجتي من التفاح ما دامت ستجدب معها التفاح الناضج .

كانت حائرة مستسلمة لموج الحيرة حين همست لي بعد لحظات من لقائنا :

- ما الذي يمنعكَ عني ؟ ألا تشعر بانجذاب إلي ؟ إلامَ سأبقى أنتظر مُبادرتك في اقتحام عالمي المجنون ؟

- سبق أن أخبرتكِ ألما، أحبُّ روحك ولا أريد الاستغراق معك في تفاصيل حسِّيّة بعيدة عن مساري معك، إن لم يَرُقْ لك ذلك، أفضِّلُ أن نبتعد .

- ألا ترى فيَّ امرأة ناضجة ومثيرة ؟ ألا تعنيكَ أنوثتي ؟

- لم يسبق أنْ دخلتْ بيتي امرأة متزوجة، ولولا احترامي وتقديري لكِ لما كنتُ مضطراً لاستقبالك ولستُ ممن يجامل في أمر لا يريده .

- قيصر .. ما الذي تريد إقناعي به ؟ هل تريد أن أصدِّقَ أنك لا تقيم علاقات مع الفتيات بغياب روزالين عنك ؟ .

- هذا شأن خاص بي وحدي، فردوس .. لم لا نُقيمُ وزناً لما يرسمه الآخر من حدود، نَتطفَّلُ ونَقتحمُ مساحاتٍ ليستْ لنا، ونتجرَّأُ على الآخر دون أدنى احترامٍ لخصوصياته ؟ .

أحسَّتْ ألما بحرجٍ شديد كنت أقصد رميها فيه، تلفَّتتْ حولها كأنما لتهرب، بادرتْ تقول :

- صحيح لم تخبرني بما قررته بشأن زوجتك، آه نسيت، يجب ألا أتدخَّل بشؤونك بعد الآن ؟

- وكّلتُ محامياً لينهي إجراءات المخالعة، سأدفع المؤخر وأنتظر صدور قرار القاضي الشرعي لينهي زواجنا

- وأنا .. متى يحين موعد دخولي غرفة نومك من دون أن يفاجئنا شهيد ؟ .

- ربما حين تنتهي أزمة سورية .

- كم أنت مُتعقِّلٌ يا رجل !!

- أتحكَّمُ بمفردات حياتي، وأصوغ الهوى كا أريد لا كا يريد قلبي، وحين أقول لك إنني أهواك بروحي، فالأمر مُحدَّد سلفاً .

- لم تقنعني .

- لابد أن يحين الوقت لذلك .

انفرجت أساريرها وضحكة من عينيها لاحتْ فبرقتا :

- رائع .. أنا بالانتظار .

- الوقت الذي أقصده هو ما يلزمك للقناعة وليس لما تودِّين الوصول إليه، أخبريني الآن .. ألا تريدين فتح آفاقٍ جديدة مع حازم ؟ .

قَطَّبتْ ما بين حاجبيها، بدوتُ كمن اغتالَ فرحتها، حاولتُ كَبْتَ ضحكتي فما استطعت، وجَّهتْ ألما قبضتها إلى كتفي وأجابت بلؤم :

- ما الذي يدعوكَ لتذكيري به الآن ؟

- " غلاظة " ...

دنت مني تقرصني وتدغدغني محاولة إثارتي بملامسة جسدي :

- أنصحك ألا تحاول إقصائي عنك، بي رغبة جامحة فيك ؟ هل تظن أنك تُحسِنُ صُنْعاً إنْ حاولتَ تذكيري بحازم ؟

أدخلتُ صوتي في بيت نار الضحك لأُخرجَ قهقهاتٍ سريعة :

- يبدو أنك تتأثرين بوجودي في حياتك فيما يتعلق بعلاقتك مع زوجك، ولن تستوعبي الأمر الآن .

- زوجي ؟!! .. قل أخي يا رجل ولا تتردد .

- ذكّرتني بروزالين .

قهقهتْ ألما فبانت اللثّة مُتراجِعة إلى حدٍّ كبير .. قالت :

- أكانت أختك أيضًا ؟ .

- ها .. لا .. لم أقصد ذلك أبدًا . " زعرا يا هالسمرا " .

أطلق جوالي أغنية " عندي ثقة فيك " كانت هبة الله، وحين حدَّثتُها برقّة امتقعَ وجه ألما، أومأتْ لي بضرورة خروجنا .

(١٨)

مر أسبوع لم أرَ ألما خلاله لانشغالي بالإعداد لبرنامجي الجديد .

اتصلتْ تعاتِبني، تذرَّعتُ بالنسيان، أتبعتُ حِجّتي بانشغالها أيضاً بشأن انفصالها عن زوجها ومراجعتها لعدد من المحامين لكي يبدأ أحدهم باتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة للانفصال عنه .

اتفقنا على اللقاء في مكان قريب من مقر الإذاعة لنحضر معاً أمسية موسيقية دُعيت إليها، اقترحتُ على شهيد أن يوافيني إلى دار الأوبرا في ساحة الأمويين، اتصل بي قبيل موعد الأمسية بدقائق ليخبرني أنه خرج من البيت وقد نسي جواز سفره، اتصلتُ بـ ألما وأخبرتُها أنني سأتأخر قليلاً لأتمكَّنَ من الذهاب إلى بيتي لأحضر جواز السفر لشهيد، فما كان منها إلا أن ثارتْ عليّ وحلفت يميناً معظَّماً ألا أفعل ذلك :

- إنْ رغبَ بالقدوم فليأتِ بلا جواز سفر، اقترب الموعد وإن توجهتَ الآن إلى البيت ستفوتك الأمسية .
- سأعاود الاتصال به إذن وأخبره أن يحضر حالاً ويتجنَّبَ المرور على الحواجز كيلا يوقفونه أو يحدث مكروه معه .

- ولماذا أنت حريص على حضوره معنا وتخشى عليه ؟ دعه وشأنه .

- ألما .. لا تنسي أنه صديقي كما أنت صديقتي .

- هل تقارن بيني وبينه ؟

- لستُ أنا من يقارن .. لكنك تُصرّين على مناقشتي بأمر يعنيني وحدي، لم أهمل يوماً شؤون صديق لكي أهمل الآن شهيد، استوعبي هذا الأمر .

- حاضر .. أنا آسفة .

كانت أمسية جميلة، مَرَّتْ وألما طوال الوقت مُمسِكةً بكفّي، تحتضنها .

كنتُ مُصِرًّا بعد انتهاء الأمسية على توصيل شهيد إلى بيتي، إذ ليس من المقبول أن أدعه في الشارع عِرْضَة للتوقيف من قبل الحواجز المنتشرة في دمشق، ومن ثَمّ توجَّهتُ إلى مقرِّ الإذاعة لتسجيل بعض فقرات الحلقة القادمة من برنامجي وPromotion جديد خاص بالإذاعة، كانت برفقتي ألما الثائرة .

حين سمعتُ صوتي أثناء التسجيل راقتْ بشكل تدريجي، وقد انخفضتْ نسبة الأدرينالين إلى المستوى الأدنى .

في ظهيرة اليوم التالي، اتصلتْ بي ألما بعد خروجي من الأستوديو، وقد

أصرَّتْ على رؤيتي في البيت وليس في مكان آخر، فما تريد التحدث فيه لا يمكن أن يكون خارج المنزل، أخبرتُها أنَّ شهيد في المنزل ولا أستطيع أن أطلب منه الخروج إن لم يكن لديه موعداً أو عملاً، أصرَّتْ على طلبها وأكَّدتْ على عدم وجود شهيد .

دخلتُ البيت وأخبرتُ شهيد بما طلبته ألما، همَّ بالخروج فوراً فاستوقفته مؤكداً على ضرورة وجوده، حيث أنني أتوقع ما تريد طرحه عليّ، وبتُّ مُتأكِّداً من جنونِ ما تُفكِّر فيه، أراد شهيد أن يعلم ما أتوقعه، رفضتُ ذلك وطلبتُ منه أن ينتظر لأرى ما بجعبتها .

جلستْ ألما وقد غَصَّتْ بدمعها، بدتْ متوترة، زائغة العينين، كأَن ما يشغل فكرها مازال يحثُّ الطمأنينة في روحها، بادرتْ فوراً بسؤالي عن شهيد ..

- إنه في الداخل .. في غرفة النوم، لم أستطع أن أطلب منه الخروج من المنزل .

رمقتني بنظرة كادتْ تمزِّقني بِنَصْلِها :

- أكَّدتُ عليك أن نكون وحيدين في المنزل .

- لا عليكِ .. أعلمته بحضورك وطلبت منه ألا يغادر غرفة النوم، ما بك ؟ أخبريني ما الأمر ؟ تبدين قلقة ولستِ على ما يرام .

- لم أنم الليلة .. هل أنت متأكد أنَّ صوتَنا لن يصل لشهيد ؟

- قطعاً لا .. أنت تعرفين أن غرفة النوم تبعد عن مكان جلستنا هذه سبعة أمتار وهناك ثلاثة أبواب مُغلَقة بيننا وبينه .. أخبريني ما الأمر ؟ .

أطرقتْ هنيهة .. ثم أتبعتْ والحيرة باب لا تريد الولوج منه :

- أنا متردِّدة جداً فيما سأقوله لك .. لكن لابد لي من الحديث معك بالموضوع .

كاد صبري ينفد .. زفرتُ بعمق وقلت :

- أي موضوع ؟ ولماذا تمهِّدين له ؟ قولي ما الأمر .

توترها بادٍ في حركة أصابعها، وانغماسها في تأليبِ وجعٍ يكاد يقتلها، لكنني لجأة قرأتُ تأكيد عزمها على الإفصاح عما تريد قوله :

- ما العلاقة التي تربطك بشهيد ؟

تجاوزتْ بسؤالها ما كنتُ أتوقع سبب حرصها على وجودنا وحيدين في المنزل، كما حدَّثتُ شهيد، فاق ما تفوَّهتْ به تَصوُّراتي، رنوتُ إليها مُندهشًا وبتُّ أبحث عن حروفٍ أركِّبُ الكلمات بها وكأن الثمانية والعشرين حرفًا ولَّتْ هاربةً أمام فجور الفكرة التي طرحتها ألما ...

- ماذا ؟!! ما الذي تقصدينه ؟

- كما سمعت .. ما طبيعة علاقتك بشهيد ؟

- هل تدركين ما معنى سؤالك ؟

بدتْ مُتيقِّنة مما تطرحه عليّ، واثقة من حقيقة تراها وحدها غير مَشوبة بظن أو خطأ :

- أدركُ جيداً، وإن كان بينكما علاقة ما .. فلماذا أردتَ أن أكون بينكما ؟

سؤالها .. أعفى اندهاشي من شرك التخمين، وأنهى رقصتها على جمرِ ما كانت تتحسَّبُ من قذفه في وجهي :

- هل جُننتِ ألما ؟ إن أخذتُ كلامك الآن على محمل الجدّ فهذا يعني أنني مثليّ الجنس .

- هذا ما أخشاه .

- وكيف فكرتِ بالأمر ؟ ما الذي رأيته لكي تظنّين بي هذا الظن ؟

- ليس ظنّاً .. بل حقيقة، إحساس الأنثى لا يُخطِئ .

رمقتُها بنظرة استهزاء ..

- وهل حِسّك الأنثوي دفعك نحو هذا التفكير ؟ هل تعتبرين أن تهمة كهذه من الممكن أن أتقبّلها منك وأناقشها معك ؟

بدتْ مُترنِّحةً في رقصتها على جمر البوح، ودمعها على حافة السقوط :

- قيصر أرجوك افهمني .. أنا أعشقك، هل تدرك ما معنى أن تعشق امرأة رجلاً ما ولا تستطيع أن تقترب منه لمراوغته في التواصل معها كما أي رجل يكون مع امرأة ؟

- وهل أقبل بفكرتك تلك لمجرد أنني لم أعمل مسحاً لتضاريس جسدك كما ترغبين ؟ انظري إلي .. قلتُ لكِ مراراً إنني أعشق روحك ولا أريد لعلاقتنا أن تتطور لتغدو الشهوة هدفاً لها وغاية، لكن يبدو أنك لم تستطيعي مجاراتي في الأمر لاختلاف هدفك عما أبغيه منك، والآن تحضرين لكي تتشدَّقين بتُرَّهات سخيفة، انظري .. لم أعتَدْ أن أكون كغيري من الرجال في تعاملهم مع النساء، لم يكن الجسد هدفاً لي في يوم ما، كما لم تكن الشهوة غايتي من الأنثى، يبدو أن لغتك الخاصة لم تمازج مع لغتي، لن أثور عليكِ، وسأعتبر أنك لم تنطقي بحرف، وما جئتِ الآن لتلقينه على مسمعي سأعتبره كأن لم يكن، سوف أنسى ما حملته لي بزيارتك الآن من تفاحٍ عَفِنٍ، ولن أكون بحاجة للاستماع إلى المزيد من كلامك هذا ولا بمبررات ما دفعك لقوله .

كان دمعها قد شوَّهَ كحل عينيها حين فرغتُ مما قلت :

- قيصر .. افهمني أرجوك، كل الإشارات تدفعني إلى التفكير في هذا الاتجاه، اهتمامك بشهيد المبالغ فيه، خوفك عليه، حرصك على رضاه، كرمك الزائد معه، رَدَّةُ فعلك حين خرج من بيتك ولم يأخذ معه جواز سفره واضطرابك من أجله لحين وصوله إلى دار الأوبرا .. وبالمقابل إهمالك لي وتذرُّعكَ الدائم بانشغالك، مرَّ

أسبوع لم تفكر خلاله بالتحدث إلي والاطمئنان عني أو سؤالي عن سبب غيابي عنك، هل تظن أن انشغالي كان عائقاً حدَّ من إمكانية لقاءنا معاً ؟ لا .. أنت تعلم أنني أهبُّ مسرعةً إليك في كل مرة وأنت لا تسأل عني، وكأني آخر من تهتم لأمره، كل هذا ألا يكفي لدفعي نحو التفكير فيما قلته الآن برأيك ؟

شبكتُ أصابعي، رانيًا إليها، مُسلِّمًا أمري لحقيقةٍ بَثَّتهما عيناي، وفي لغة العيون إشارات أدق من حروف الأبجدية حين أريد :

- كفى يا ألما .. لا أريد سماع المزيد لكيلا تشوّهين صورتك لدي، لوَ انك فهمت قيصر وعرفته حق المعرفة لما انجررتِ لهذا الدرك من الظن بالسوء، ولا يوجد أي مبرر لطرحك هذا، وإنْ سلَّمتُ معك بظنِّك فأين قناعتك باعتبار هذا الأمر حرية شخصية كما أوهمتِني حين تحدَّثتِ عن صديقك المثلي ؟ أم أن حكايته تلك من نسج خيالك لكي تكون مُقدِّمة لما تطرحينه الآن ؟
- لا لم تكن من نسج الخيال .. (قهقهتْ ثم أتبعتْ) وأنت أردتَ التَعرُّف إليه، سأجمعك به، ربما يروق لك .

تأكدتُ أنها لن تستوعب ما أريد تأكيده لها، سيل ظنونها جرفها بعيداً عني، ولا أتوقَّعُ أن ثمة تلاقٍ بيننا في الفكرة، وفي أمور أخرى بعد الآن، كنتُ قد وصلتُ إلى شاطئ الراحة والسكينة التي حاولتْ إبعادي عنه لأخسرهما، قلتُ :

- لقد تجاوزتِ الحدَّ المقبول في مناقشة الأمر معي، وها أنتِ تشوِّهين صورتك التي أحببت، ما عدتُ براغبٍ في سماع المزيد من جنونك وعبثية تفكيرك وظنِّكِ الأحمق بي ..

- ألما .. فلتصمتي الآن لا أريد سماع المزيد، وتأكدي تماماً أن رجلاً آخر مكاني الآن لما ناقشك بأي تفصيل في الأمر واكتفى بفتح الباب لك ..

وَثِقتْ من خطورة ما أنا عازمٌ عليه، عادتْ لتركب موج المخاتلة فهمستْ :

- جئتُ إليك لكي أرتاح من عبء التفكير بالموضوع لا لزيادة إرهاقي به .

- يبدو أن مشكلاتك مع حازم قد أثَّرتْ عليكِ حتى في علاقتنا معاً، أنصحك بالسفر أو بمعالجة نفسك بنفسك، لن أقول لك بمراجعة الطبيب، يبدو أنك استنفذتِ مشاجراتك مع زوجك وتبحثين الآن عن مشاكل أخرى مع من تدَّعين محبتك له .

- هل تريد أنْ تُفهِمني أنَّ لا علاقة بينك وبين شهيد ؟ هل لي أن أفهم لماذا التجأَ إليك دون غيرك من أصدقائه ؟

- افهمي يا امرأة .. أي عاقل حين يعلم أن شهيد إنسان تَعرَّضَ للخطف، وبقي مُحتَجَزاً ثلاثة أيام بلياليها في خِضمِّ ما نشهده من أحداث و ويلات، يدرك أنه من الطبيعي أن يجد من يقف إلى

جانبه يخشى عليه ويحرص على تقديم كل عون ومساعدة له، لستُ مسؤولاً فيما إذا كنتِ لا تفهمين هذه اللغة، لغة الإنسانية التي تجعلني أقفُ إلى جانب صديقي، وإن كان هناك ثمة جنون فيما أتيتِ لتلقينه على مسمعي فهو أنت بكيانك وتفكيرك ومجون فكرتك ومبرر طرحها، يبدو أنني كنتُ مخدوعاً باعتبارك مختلفة ومتميزة عن غيرك من النساء في طريقة التفكير، ويبدو أن حازم ليس مريضاً كما صوَّرتِهِ لي، أنتِ المريضة ..

انهارتْ ألما تبكي بحرقة، لم أشعر نحوها بالشفقة، فما من عاقل يرضى بما تتَّهمني به، فجأة .. حَدَّقتْ بي ونظرة التحدي تبرق في عينيها .. قالت :

- هل تنكر أن يم مثلي الجنس وهو صديقك ؟ هل تنكر أن عبد الله الذي التصق بك في دار الأوبرا مثليّ أيضاً ؟ لماذا يتواجد المثليون من حولك ؟ وبعد كل هذا تريدني أن أقتنع بأنكَ لستَ مثلياً، أحضر إلى بيتك فلا تلمسني، وإن حدث فبدافع مني وتحريض، ولا يتعدَّى بضع قبلات باردة .

- أوَ تقولين بضع قبلات باردة ؟!! ثم من قال لك إن يم مثليّ الجنس ؟

- صديقي الذي أسرَّ إلي بمثليته ؟

- أها .. وما شأني بصديقك وبـ يم، وإن يكن، فهم فئة موجودة في المجتمع شِئنا أم أبينا، وعبد الله الذي ذكرتِ، رأيته بالصدفة لأنني سبق واستقبلته في برنامجي بُعيد حصوله على لقب عالمي وهذا من

ضمن فقرات ما أقدّمه في الإذاعة .

رمقتني وابتسامة صفراء تلوح على محياها رغماً عنها قائلة :

- لا تبدو مُقنِعاً لي ..

صوَّبتُ نحوها نظرةً كادتْ تقسمها نصفين .. ولأول مرة أصرخ في وجهها :

- هل تريدين مني أن أكشف لك سبب عدم اقترابي منك لترتاحي وتكفّي عن هذيانك وجنونك ؟

لحظتئذ .. بدتْ ألما في محاولة جدّية لِمَسْكِ دفَّة الخشب التي تقترب منها في لُجَّةِ البحر التي رمتْ نفسها فيه .. صلبة وقوية ومُستنجِدة بذات الوقت بطغيان الرحمة في قلبي :

- أجل .. أخبرني بالله عليك سوف أُجنُّ إذا لم تقل لي .

ضربتُ كفّاً بكف، وقد أزلتُ غبار الخشية على مشاعرها نحوي فقلتُ الحقيقة التي أخفيتُها عنها وها هي تدفعني لأنطق بها :

- لأنك لا تُغريني .. لستِ المرأة التي أهوى مشاركتها السرير، هل فهمتِ الآن ؟ جسدي ليس للبيع ولا للمتاجرة وأنت تدركين كم يوجد حولي من نساء وفتيات عاشقات، أحببتُ فيكِ الروح فلم تقبلي، عشقتُ فيكِ ما أكدتُ على ضرورة نقائه وبعده عن الجانب الحسي لدى البشر فما اقتنعتِ، لأنكِ من الداخل مختلفة

عني، لكنك أوهمتِني أنَّ روحَكِ طفلٌ يعشق النقاء ولا يعرف لغة سواه يحاكي بها الطبيعة وبعض البشر .. هل فهمتِ الآن واستوعبتِ سبب عدم رغبتي بجسدك ؟

فَغرت فاها .. تقوَّسَ ظهر غوايتها، تحشرج صوتها وهي تقول :

- لم أكن أتصوَّرُ أني بهذا القبح في نظرك .. أو أنك مُدَّعٍ للشرف إلى هذا الحد !! .

- لستِ قبيحة .. لكنك الآن قبَّحتِ روحك قبل كيانك وجسدك

- لوَ انك تستمعين جيداً إلى برنامجي وما أقدِّمه، لوَ انك تجيدين قراءة ما بين السطور في علاقتي معك .. لكنتِ استوعبتِ، وليس في الأمر ادعاء ... " انتهى الدرس يا غبي " .

- لو لم أكن أحبك لما أفرغتُ بما أفكر فيه، لو لم أعشق الأرض التي تمشي عليها لما تجرَّأتُ وبُحتُ لكَ بما يعذِّبني .

- هذا ليس حباً، هذه ذروة الأنانية، ما اهتممتِ إلا بنفسك وما تهوى، لم تلتفتي إلا لإشباع نهمك وشهوتك من جسدي لترتوي بما حُرمتِ منه مع حازم، سأقولها لك أيتها العاشقة : كنت أحضِّرُ لبرنامج جديد أردتُ من خلاله أن أسلِّطَ الضوء على هذه الفئة التي لم تعد تشكل ظاهرة في مجتمعنا بل تجاوزت حد المقبول وباتت تمثل شريحة واسعة من المجتمع الرافض لها، وهو نفسه يرتكب في السر ما يعاديه في العلن في أغلب شرائح المجتمع كما

أنك تعرفين أن بالمقابل يوجد فتيات ونساء يمارسن المثلية، وربما أستفيد منك في هذا الجانب فما رأيك ؟

• أنا ؟!!

• لِمَ تستنكرين عليّ ما أتفوّه به الآن ؟ ألم يكن لديكِ مبررات سخيفة وتافهة للظن بي ؟ ثم لماذا تُبدين تناقضات عجيبة في هذا الأمر ما دمتِ تقبّلتِ صديقك المثلي الذي يساعدني صديقه يم في كشف خفايا هذا العالم ومعرفة أسراره ليؤدي برنامجي الهدف الذي أطمح لتحقيقه ؟

انفلتتْ ضحكةٌ هستيرية من ألما .. وسارعتْ بالقول :

• ذكّرتني بإحداهن، من الممكن أن أحدِّثك عنها، ولستُ أنا الأنانية أيها الإعلامي الجميل النرجسي .

• ألما .. أرجوكِ، ليس لدي المزيد من الوقت لكي أضيّعه أكثر من ذلك معك، كما أنني أحرص على ألا تغيبي عن بيتك وأولادك وزوجك وهم أولى بك مني .

• ما معنى كلامك هذا ؟ هل تطردني ؟ .

• معاذ الله .. أحرص عليك لا أكثر، ولن أقول للحديث تتمة، فلا أريد أن نفتح الموضوع مرة أخرى، كما أنني قلت ما لديّ، ثقي تماماً أنني لو كنتُ مثلياً لأخبرتُكِ مُذْ تعارفنا، ولا تنسي أنني

كنت متزوجاً رغم معرفتي بالكثيرين من المتزوجين ومع ذلك ينفرد الرجل بالرجل، وتكتفي الأنثى بالأنثى .. إلى اللقاء أملا .

(١٩)

مُحرِّكُ السيارةِ يَهدرُ كا الرَّعد في كانون، يثيرُ أشجاني ويذكِّرني بصوت أنيني في آخر عهدٍ لي بالنوم، أهوى الليلَ للسهر لا لنومٍ أُجبَرُ عليه فيترك ثقوباً تتسرَّبُ منه أوجاع الزمن السحيق، لأستيقظ كل صباح مُرغَماً للتوجه إلى عملي، شغَّلتُ المذياع لأستمع إلى فيروزيات الصباح وتحية هيام حموي لمناطق سورية ومحافظاتها ..

هيام : صباح الخير يا مزة .

كنتُ مارَّاً لحظتئذ من أوتستراد المزة حين همست هيام بتحيّتِها الملائكية، أصواتُ القذائف تَقضُّ مَسمعي فأزيد من السرعة، قريبةٌ مني هيام، وقريبةٌ أيضاً أصوات القذائف المتزامنة مع تحيّتها .

أرى في مرآة سيارتي دخاناً كثيفاً يتصاعد من بعيد، ربما كان من المعضمية أو من مفرق داريا .

" يا ريت .. أنت وأنا بالبيت .. شي بيت أبعد بيت .. ممحي ورا حدود العتم والريح .. والتلج نازل بالدني تجريح .. يضيّع طريقك ما تعود تفلّ .. وتضلّ حدّي تضلّ .. ويزهر ويدبل ألف موسم فلّ .. وتضلّ حدّي تضلّ

حدّي تضلّ وما يضلّ بالقنديل نقطة زيت .. يا ريت " .

هيام : صباح الخير يا صالحية .

أتجاوز الحاجز المحاذي لمكتبة الأسد الوطنية بعد أن دقَّق الجندي بطاقتي الشخصية وفتَّش صندوق سيارتي، مُشيراً إليّ بمتابعة السير .

طرقات دمشق وشوارعها تغيَّرتْ، بتنا بحاجة إلى خريطةٍ يوميةٍ لِنَصلَ المكان الذي نقصد، الموت المجاني غَيَّرَ من ملامح المدينة الكثير وبقي هو الثابت الوحيد، تكاد لا تتعرَّف على دمشق بعدما عجَّتْ فيها السواتر الإسمنتية والحواجز وأكياس الرمل، وقد مُنِعَ السير في بعض شوارعها، حتى ساحاتها الرئيسة لم تبقَ على حالها، منها ما أُغلقَ أو قُيِّدَ خشية استهدافها أو استهداف مقرَّاتٍ حكوميةٍ تقع على أطرافها، حتى عَبَقُ الياسمين اختلطَ برائحة الدم والقذائف والبارود، وما عاد عطر دمشق الأوحد، تلاشى .. أو كاد، صدح صوت فيروز ليعانق الشام :

شامُ يا ذا السَّيفُ لم يَغِبِ يا كلامَ المجدِ في الكُتُبِ

قَبلَكِ التَّاريخُ في ظُلْمَةٍ بَعْدَكِ استولى على الشُهُبِ

وصلتُ مقر الإذاعة وأنا أردِّدُ :

تلتوي خصراً فأومي إلى نغمةِ الناي ألا انتحبي

أنا فيِ ظِلِّكَ يا هُدْبَها أحسُبُ الأنجُمَ في لُعبي

كِدْتُ أبكي وأنا أترنَّمُ بما يُبقيني في دمشق الساحرة حيًا:

أنا صوتي مِنْكَ يا بردى مِثلما نَبعُكَ مِنْ سُحُبِ

فاجأني اتصال يم بي .. أين أنت يا يم ؟

كاد يبكي حين سمع صوتي، حدَّثني عن حاجته لرؤيتي أو مُحادثتي مُطوَّلاً على الهاتف، لأمرٍ يريد إعلامي به، وعدته أن أحادثه ليلاً وطلبت منه ألا يفكر بالسفر في الوقت الحالي .

أخبرني بموجز ما يريد قوله، تعرَّفَ إلى شاب يحاول استغلاله، ويريد النصح مني، اختفى صوتي، لم أشأ أن أعكِّرَ صباحي بما يزعجه، ويثير حنقي، خاصة أني سأكون على الهواء بعد دقائق، أقفلتُ جهازي والدهشة تزحزح يم من موقعه لدي، احترتُ في أمره، أيمكن لعاقلٍ أن يهوى ثلاثة رجال في وقت واحد ؟ هل هذا جنون أم فرط عاطفة وأحاسيس أضاعت دروبها في الحياة، فابتلى بالوهم مرضاً رئيساً يعاني منه ؟ تساءلتُ كثيراً عما يربطه بهذا العالم وما يبقيه على تحمُّل كل ما يعانيه، وما وجدتُ جواباً .

على عجلٍ كتبتُ ما أردتُ أنْ أفتتحَ به برنامجي اليوم، ناسفاً ما كنتُ قد أعددته :

" تُرتَكبُ كل لحظة جريمة شرف بحق المجتمع، ولكن أي مجتمع هذا

الذي يرزح المتعافون فيه تحت وطأة الكبت، في حين يُسحَقُ المرضى تحت عجلات ألسنة الكلام - النار التي يصوّبها نحوهم المتعافون، فيبدو هذا المجتمع في دنو مستمر من جُبِّ الرذيلة، ويَتستَّرُ على جرائمه بالإفصاح عن رفضه عما يتمرَّغ فيه، جرائم الشرف في كل اعتداء على قيمة خُلُقية وُضِعَتْ لتكون البوصلة، جرائم الشرف تُرتَكَبُ في كل ما يؤدي إلى اختراق الإنسان "

ختمتُ برنامجي بما كتبته خلال الفاصل الإعلاني :

" لا تأخذ بأناقة الأقنعة وجمالها، ولا تُبهَر بفتنة ما تراه في الظاهر، اكتفِ بإشاراتِ ما تحمله سطور صفحات الوجوه التي تقابلها، أغمِضْ عينيك عن الأقنعة واجعلها صفحات تخفي إشارات مختلفة، احرصْ على رسم إشارة الاستفهام والتَّعَجُّب في صفحة وجهك " .

رغم أنني كنت أضمِّنُ في كل حلقة من برنامجي ما يعكس مجريات حيوات الكثيرين ممن هم حولي، وما يتعرَّضون له أو يواجهونه من مصاعب أو آلام، إلا أني وللمرة الأولى أفرد ما يرجح كفَّة الذاتية على كفَّة هموم الناس فجعلتُ الحلقة بعنوان " رسائل ذاتية إلى البحر " بدأتها بما وصفتُ به قهقهة ألما :

" لوَ انكَ تُدركُ أنَّ القهقهةَ لغةٌ فريدةٌ لا حروفَ تحملها دونما غاية، لكنتَ استوعبتَ درسَ الزمنِ بدورتِهِ التي جُعِلَتْ لتدور الدوائر وتُوقِعُكَ بما لستَ تمتلكه من فرادةٍ تظنُّ نفسكَ مُتخَماً بها .

تراكيبُكَ تمنعُ الندى عن السراب لإيمانها المُطلَق برحلتها الكونية الثابتة، ونعومة ملمس الحرير تجاوزَ الأثير وحطَّ على جناح شهوةٍ مُتَخيَّلةٍ ففاضَ الصدى حُنقاً بصوتٍ أثيم .

روحٌ تتلمّسُ تجاعيدَ حروفِكَ لتفقأَ عينَ المصاب، وينزُّ الدمعُ ليملأَ بُؤرَ الخيبة فيك ..

تجلَّدْ لما هو آتٍ .. فالقادم سيهزم عَضفاً موتورا " .

كنتُ حزيناً، مسافرٌ صوتي عبر أثير الإذاعة ليلتقي بموجه الحبيب، وقد دعوتُ المستمعين للسفر نحو الساحل للتنعُّمِ بذيَّاكَ الموج ورمي أحمالهم عليه، فإن استوعبَ ثِقَلَ ما يُرمى إليه، خفَّفَ المرءُ من الحزن فاستبدله بالرضا، وإن رجع مُتجاوِزاً ما كان يثقله، كانت الريح أولى بعواءِ اللعنة .

ترافقتْ الحلقة مع خبر استشهاد الإعلامية يارا عباس في الإخبارية السورية التي كانت ترافق الجيش في منطقة القصير لنقل ما يحققه من إنجازات في سحق المجموعات الإرهابية، تابعتُ مع أغنية وطني لفيروز، ومن ثم أغنية " يارا الجدايلها شقر " .

كان الصباح طفلاً يُناشِدُ يارا بأن تعود، اختنقَ الحزنُ في صَدْرِ الوطن، بات رسمنا لفسيفساء الوطن الجريح لوحة من نور ونار، نور من إيماننا بهذا التراب وبقدسيته، ونار على أعدائه وقاتلي أبنائه .

أُسبغَ صوتي بالحزن على ما يجري في الوطن، وتراخت الروحُ في بثِّ

أوجاعها عبر البرنامج :

" سأقف صباحاً على شرفة منزلي لأقطفَ ياسمينة دموية وأقدِّمَها لحبيبتي، سأزرع بذور الحبق وأسقيها من دمعي، لأحصد بعد حين شظايا الإرهاب المنغمس بالدم وبالشيطان، دماء .. دماء .. دماء، تُسفَكُ على قارعة الوطن الشهيد، والإرهابيون يُقهقِهون، يُكبِّرون، يَدبكون على جلد شعبي الباكي، على نعوش وأضرحة الأطفال وهم أحياء أموات، نسوا عيدهم في غمرة الحزن، والناهبون الأمن يرقصون على فتات الحياة، يرتكبون جرائمهم باسم الله وترى مَنْ عَارَضَ يُقهقِهُ ويُصفِّق، وفي النهاية، سترفرف راية الوطن وعلمه، يرفعهما جندي الجيش العربي السوري، واليد الأخرى مرفوعة لتتولى سبابته والوسطى رسم شارة النصر " .

ما إن فرغتُ من قراءة كلماتي، وقبل أن أُنهي حلقة اليوم من برنامجي، استدعاني مدير الإذاعة، بدا مُتجهِّماً، غاضباً على غير عادته، قال مُحتدًّاً :

- قيصر .. أنت تدرك كم أثق بك، وأترك لك الهواء دونما قيد أو شرط، لا رقابة على ما تُعدُّه وتقدِّمه، لكنك تعرف سياسة الإذاعة والخط الذي رسمته منذ بداية الأحداث في سورية، تدرك أنني لا أريد أن أُحسَبَ على طرفٍ مقابل طرف آخر، سمعتُ ما تحدَّثتَ به منذ قليل، لا أريد منذ الآن وصاعداً أن ترتجلَ حرفاً واحداً على الهواء .

- على رسلك .. لِمَ كلُّ هذا الكلام ؟ وما الذي قلته أنا ويخالف

سياسة الإذاعة ؟ راجعْ لو سمحت كل كلمة تنوَّهتُ بها وستجد أنني لم أخالف سياستك يا أستاذ، وكما أن لك سياسة فيما تُقدِّمه عبر أثير إذاعتك، فإن لي خطاً تعلمه وقناعة تدركها ونهجاً أسير عليه، وما قلته لا يخرج عن معرفتك بي وبآرائي، وبعد .. فإن الوطن كما تعلم لا يقبل بالرمادية بعد كل هذه الفترة وما عانى فيها شعب سورية .

- تفضل الآن .. وللحديث تتمة .

(٢٠)

قدَّر شهيد ما بداخلي حين استمع إليَّ عقب إعلان استشهاد يارا عباس، فسارع لملاقاتي .

في الطريق، حاول جاهداً أنْ يُخرجَني من أجواء الحزن الذي غلَّفَ روحي فشرع يُحدِّثني عن وصلته الغنائية وعن حنينه إلى الفن واشتياقه إلى الطرب العراقي الذي يفتقد سماعه في سورية .

سماء دمشق حزينة، كقلبي، سأتلو قلبها نشيداً لوطني، لن يسقطوني من تكوينها، النهار يتلوني آيةَ بياض في روحها لأنطق بما تُحبُّ مني، دمشق ياسمين الوجود، وعشقها في روحي يسود ويسود .

في البيت، أخبرتُ شهيد بما دار بيني وبين ألما الليلة الماضية، جلجلتْ ضحكته في أرجاء المنزل، أتبعها بأنشودته الواثبة فوق سخافة ما أبدته ألما من حماقةٍ تجاوزت المعقول، شردتُ، لم أعد أسمع صوت شهيد ولم أتبيَّن حركته أمامي، تعطَّلتْ حواسي عنه، شيءٌ ما انتشلني من المكان، بعد لحظات، تنبَّهتُ إليه يُحدِّثني مُستغرباً مما آلتْ إليه أحوالنا : " .. على الرغم

من سطوة الموت على الحياة وتَفنُّنِهِ بصياغة المقولة الكبرى الأكثر تأثيراً على الأحياء أو من شابههم، إلا أنكم سرعان ما تديرون له ظهوركم وبالكاد تستمعون إلى مقولته، تتأثرون للحظات ومن ثم تنشغلون بمتابعة ثرثرتكم بصخب يُضْجِرُ الحياةَ فتدعوه للحضور " .

لم أستطع النطق لأقول لشهيد إن الموت الذي أعرف، مُجلَّلاً يبدو بسلامٍ داخلي لمن يرحل والشهادة مقولته الأخيرة، هزَّ شهيد رأسَهُ أَسَفاً، قرأ حروف صمتي فأدرك المعنى .

رنين هاتفي المحمول أحيا الحروف، مكتوبة، حدَّقَ شهيد في شاشته ليجد اسم ألما يُلمِلِمُ بأنينٍ باردٍ علاماتٍ موسيقية كنتُ خَصصتها لاسمها المكتوم، لم أَرِدّ، فرضتُ عليه الصمت، تَبِعَته بعد لحظات صرخة من الهاتف الثابت بدتْ مُعترضةً على التجاهل، دنوتُ منه لأقرأ رقم ألما يظهر في مناورةٍ جديدة، سحبتُ " كابل " الهاتف من موضعه، والصمتُ قِفْلٌ على فمي .

همس شهيد قائلاً :

- ها قد أعلنتْ لكَ بَعد صبرِها عليك ما غايتها منك، فهل تريد الاستمرار معها في العلاقة ؟

بصعوبة، رددتُ قائلاً :

- سأدعها الآن، لقد تجرَّأتْ عليّ ويجب أن أعاقبها، الأمر تجاوز

الصراحة إلى وقاحة لا تُطاق .

- الأمر لك، لكنها ستزعجك كثيراً كما ترى ريثما تستوعب أنك تلقِّنها درسًا قاسيًا .

- لن أردَّ .

كم هو مريح ذلك الإحساس، حين تعبّر ببضع كلمات عن موقف، تكون حروفك بمثابة خلع القناع عن وجهِ مَنْ كان يَتفنَّنُ في إيذائِكَ ولو بكلمة، يكون الحرف .. كالرصاصة لمن يفهم ما وراء الحرف ويقرأ ما بين السطور، أحياناً، تكون بحاجة لحروف صامتة وإنْ شبَّهتها برصاص فلن تكون ظالماً أو قاتلاً، فقط .. احرص على أن تكون حروفك مُنتقاة بعناية ويستحق من توجهها له .. أنْ يُحْسِنَ قراءتها .

رفع شهيد حاجبيه وزمَّ شفتيه، ضربَ كفَّاً بكفٍّ ونهض مُتَّجهاً إلى الحمام، وهو يرِدِّدُ بصوتٍ خَفيضٍ وبحزن عراقي أصيل أغنية حميد منصور " سلامات " بينما كنت أقلِّبُ صوري التي التقطها لي يم على شاطئ البحر في اللاذقية، استوقفتني صورة محددة، رأيتُ فيها البحر وقد أشاحَ بنظره عني، تذكَّرتُ يم، أمسكتُ الهاتف لأحادثه، لكن فكرة استوقفتني فأردتُ كتابتها قبل أن تفرَّ مني :

" لا شُكرَ على حضورِك، حينَ تُغيّبكَ الخيانة، تعودُ مُبتَلياً بالإثم لكي تثبتَ الحضور، لابد من الوفاء، لا عتبَ على اختفائك في سوادِ الهامش

الذي اخترت، لأنكَ غُبارُ الحماقةِ التي ارتديت، حلُمُكَ اخضرارٌ، لا شكَّ في اليباس، الشُكْرُ لِمن خَلَعَ عنكَ هذا القناع " .

كان صوت يم يَضجُ شوقاً كعادته، أخبرني أنه بعث برسالة عبر البريد الإلكتروني حين وجدني لم أتصل به، يم لا يزال مُصرّاً على الضياع فيما يرتكبه من حماقات، أغلقتُ سماعة الهاتف وشرعتُ أقرأ رسالته :

" عبر أحد المواقع الإلكترونية الخاصة بالمثليين، تواصلتُ مع خالد، شاب يطفح بالرجولة، ويدرس في كلية الحقوق بدمشق، زارني وتعارفنا، دون أن نمارس الجنس .

بعد أيام قليلة أتى برفقة صديقه مجد، في العقد الثالث من عمره، همس لي خالد برغبته أن نكون ثلاثتنا في غرفة النوم، وجهُ مجد يَشي بطفل مُختبئ في داخله وبروح طيبة تسكنه، بعد قليل ناديتُ خالد ليوافيني إلى المطبخ، أخبرته بأني لا أمارس الجنس مع أكثر من شخص، ودعوتُه للدخول إلى غرفة نومي إنْ أراد ممارسة الجنس مع مجد، ضمَّني إلى صدره وهو يقول : أنت طيب القلب .. حبيبي .

انسحب الاثنان ليدخلا غرفة النوم، في حين بقيتُ جالساً أدردشُ مع أصدقائي على موقع Facebook .

بقي خالد ومجد في بيتي بضعة أيام، دون دعوة مني، طلب مني خالد أن أعرِّفَهُ على أحد المثليين من أصدقائي على موقع Facebook وعلى

الفور بدأتُ باستعراض قائمة الأصدقاء، استوقفني خالد عند رؤيته صورة صديق لبناني :

- من الواضح أنه مثلي، هل اجتمعتَ به ؟ أيمكنني إضافته ؟
- ما حالك يا رجل ؟! لا لم ألتقِ به لكنه تحدَّث إليَّ في الموضوع .
- سوف أرسل له طلب صداقة .
- كما تريد، بالمناسبة إنه Gentleman ..هل تحرَّكتْ شهوتك تجاهه ؟
- " منمرّقو ولا يهمك " .
- انتبه يا خالد، إنه شاب لطيف ولا أريد أن أخسره بسببك، لا تخبره أنك صديقي
- لن أخبره، لا تشغل بالك حبيبي .

خالد ومجد في بيتي لأسبوعين متتاليين، كان الوقت يمضي بهما ما بين المحادثات على الشابكة وممارسة الجنس، أحاديث جانبية بيننا تمر كسحابة صيف كل مساء، كنتُ مندهِشًا من طول فترة إقامتهما، لم أُظهر لهما أي ضيق، بتُّ مُهتمًّا بمعرفة تفاصيل أكثر عن مجد والشخصيات التي مارس معها الجنس لكي أُحدِّثَكَ عنها فيما بعد، لم أخفِ عن مجد تَوْقي للقائها بعدما أخبرني بتفاصيل مُثيرة وأسرار مُلفِتة عنها، كان لمجد أصدقاء كُثُر من الوسط الفني، بالمناسبة .. مجد دكتور في الجامعة، طلَّق زوجته منذ مدة

قصيرة بعد زواجٍ استمر أكثر من سنتين، أخبرها بحقيقة ميوله الجنسية وبأنه سيظلُّ يمارسُ ما تهواه نفسه، وحين لم تستطع تَحمُّلَ الأمر .. افترقا .

قويتْ علاقة خالد بالشاب اللبناني خلال تلك الفترة، كما استمرَّ بالتعرُّفِ على المثليين عبر المواقع الإلكترونية الخاصة بهم، أعجبتني صورة أحدهم، طلبتُ من خالد أن يخبره عني، كان طبيبًا نسائيًا، تعرَّفتُ إليه وبدأنا بتشغيل الكاميرا معه، خالد وأنا من طرف، وفي الطرف الآخر الطبيب ماهر، كانت نظرتُهُ لخالد مُفعمةً بالوَلَه والشهوة على الدوام، أمام ابتسامته يضحك الكون، وحينما كنتُ أراه وحيدًا، يبدو غير مكترث بي، يتحجَّجَ بانشغاله في أمر ما ويمضي، مما أثار حنقي، وعند مصارحتي له بالأمر، أسرَّ لي بأنه يهوى خالد ويشتهيه إلا أنه يعانده في كيفية ممارسة الجنس معه، فكلاهما Top Only .

استغربتُ تواصلهما الدائم في مشروع علاقة جنسية بدتْ مستحيلة إن لم يخضع أحدهما للآخر، مما تسبَّبَ بشَرْخٍ بينهما انتهى بشجارٍ عنيف على الشابكة والهاتف، اتصل بي ماهر ليخبرني بأنه يودُّ الاستمرارَ معي لكن دون أن يعلم خالد بذلك، وافقتُ بشرط ألا يتعرَّض لخالد في أي قولٍ مُسيءٍ له أمامي، وعدني ماهر بذلك وتأكَّدتُ تباعًا أن غايته من التواصل معي أن يعرف أخبار خالد .

اتصل بي ماهر بعد أيام من سفر خالد إلى بيروت لزيارة الشاب اللبناني، طلب مني أن أحضر حالاً إلى مقهى " العرزال " حيث كان

بمهمة عمل في اللاذقية وسيغادر بعد ساعة، فور مجالستي له، حدَّثني عن خالد، عن ولهه به، وعن زيارته له في بيت أهله وانفرادهما في غرفته وممارستهما الجنس معاً Soft بثَّ لي غيرته على خالد الذي لم يبادله الهوى يومًا ولم يهتم لأمره، أعلمني بتفاصيل ما أخبره به خالد عني، وهنا كانت الطامة الكبرى، دُهشتُ حين أدركتُ أيُّ كاذب هو خالد، صَمَتُّ لبرهة ومن ثم قلتُ لماهر :

- إن كان ما حدَّثكَ به خالد صحيحًا فما الذي اضطرَّه للبقاء عندي مع صديقه أكثر من أسبوعين ؟
- لا أعلم، رغبتُ أن أخبرك بذلك لكي تَتَّقي خالد فهو لا يُؤمَن جانبه، ولن أراه بعد الآن إلا لممارسة الجنس فهو مثير بالنسبة لي .

خطر لي أن ماهر يكذب عليّ ليبعدني عن خالد الذي يهواه، وأن انزعاجه من محبة خالد لي يدفعه للكذب، لكن بالمقابل ما تحدَّث به ماهر عن تفاصيل يومية لم يكن ليعلمها لو أن خالد لم يخبره بها .

ودَّعتُ ماهر بعد ساعة من جلستنا، وقررت أنْ أُنهي علاقتي بخالد .

اتصل خالد عدة مرات بعد عودته من بيروت، ثم وجَّهَ لي الرسائل عبر Facebook والبريد الإلكتروني مستفسراً عن سبب تجاهلي له، ولما بدا حانقاً مني أجبته برسالة نوَّهتُ له فيها بأنني لا أقبل الإساءة ممن استقبلته في بيتي، عاد ليخبرني بأنه مذهولٌ ولم يفهم ما أقصده، وحين

عاود الاتصال، حدَّثته بالأمر، نفى بشدة أن يكون قد أساء إليَّ بكلمة، كما استغرب تَصرُّف ماهر، ولم يجد تفسيراً له إلا غيرته عليه وعشقه له، موضحاً أن ماهر يدرك محبة خالد لي، وبأنه حالياً يهوى الشاب اللبناني ولن يكترث لأمور المثليين بعدما تملَّكه هواه مجرَّداً عن أية شهوة جسدية .

قمت بحظر خالد،لم يتقبَّل فكرة رفضي له، حاول مجدداً التواصلَ معي دونما نتيجة، ولأنني أدرك طباع خالد، أتوقع منه إساءة أشد وقعاً علي لاعتباره أن حظري هزيمة كبرى له، ورفضاً صارخاً لشخصه، أقول لك أخيراً يا قيصر : " هذا هو مجتمع المثليين الذي ترغب بمعرفته، ومن ثم طرحه، لكني الآن أخشى خالد، لن يقبل بالهزيمة " .

انتهت رسالة يم .

(٢١)

حين دخلت إلى Facebook صُعِقتُ لما نشره أحدهم في صفحة يم منذ ساعة :

" أكثر ما خبرته في حياتي .. جسدك، أُتقِنُ التعاملَ معه، أدركُ احتياجاته وما يهوى، أقدِّرُ روعةَ جماله حَدَّ التعلُّق والوله، حفظتُ تضاريسَهُ بتفصيلٍ مُؤرِقٍ وحار، أهوى النظرَ إليه، كلّما مَررتَ من أمامي أو جالستُكَ أو استلقيتَ مُتعَباً بعد ليلةِ حُبٍّ عاصفة، عشقتُ لَمْسَ سهولِه وهضابِه، تَنَشُّقَ رائحتِه، تَذَوُّقَ طعمِه واحتضانه، لا يُقدِّرُ جسدَ الرَّجل إلا الرجل، لذا تعلَّمتُ فنونَ التعامل معه، فهو الحبيب الذي لا يُفارقني وإنْ غبتَ عني، وإنْ طَوتْكَ المسافات، أُسرِعُ إليك لكي تَستسلمَ لي وتخضعَ لسُلطاني، أحبُّ خضوعَكَ لي، والاستسلامَ لفحولتي، والتحليقَ بصُحبتي، علَّمتُكَ كيف تَفكُّ أَسْرَ الجسد لنحلِّقَ معاً في فضاءاتِ الشهوةِ ونكتشفَ رائحةَ الرغبةِ المتشبِّثةِ في النفس، كثيراً ما رويتُ لجسدِكَ قِصَّةَ عشقي بلمساتٍ تَكشف له تفاصيلَ التفاصيل، أُكشفُ أسرارَ غوايته من خلالك، أُسدِلُ فوقَهُ ستارةَ وردٍ وأغفو قربه، أبتسمُ وأبتسمُ ... وأحلم " .

يم .. أيُّ مجنون أنت ؟!!

اتصلتُ به على الفور، رياحُ سُخْطي وغضبي مزّقته لينتثرَ بُقَعَ زيتٍ فوقَ زَبَدِ البحر الذي يجلس إلى صخور شاطئه في الوقت الذي ينشر أحدهم في صفحته فضيحةً ستكون مدوّية خلال لحظات .

- أيُّ معتوه أنتَ يا يم !! أين أنت ؟ ألم تقرأ ما نشره أحدهم في صفحتك على Facebook ؟

- لا لم أفتح صفحتي هذا اليومِ بعد، ما الذي نُشِرَ في صفحتي ؟ ما اسم من قام بالنشر ؟

- يدعى Dado Big من يكون هذا المأفون ؟

- إنه خالد .. هذا حساب آخر له، " و راس أمي " نسيتُ أن أحظره، اقرأ لي ما كتب أرجوك .

حضر شهيد أثناء قراءتي لما نشره خالد في صفحة يم، ضرب جبهته بعنف، وخرج غاضباً ليقف على الشرفة، شتمتُ يم دون إرادة مني، فقد افتُضِحَ أمره، وسيكون منذ الآن حديث الناس، أي أحمقٍ أنت يا يم !! .

أنهيتُ اتصالي به، بعدما طلبتُ منه أن يعود إلى البيت حالاً ويحدّثني على الهاتف الأرضي .

وقفتُ إلى جانب شهيد، تساءلتُ بحنق : أي نهاية يصنعها لنفسه ذلك

الأبله ؟!!

قال شهيد متذمِّراً :

- اقطعْ علاقتَكَ فوراً به واحظره على Facebook .
- يم صديقي يا شهيد، هل أتخلَّى عنه الآن ؟
- لقد افتُضِحَ أمره، وربما أُصِبْتَ بشظايا فضيحته .
- شهيد .. اسمع : " في مجتمعٍ نِصْفُهُ عاطلٌ عنِ العمل والنصفُ الآخر مَكبوتٌ جنسيّاً ماذا تتوقع منه ؟
- بالله عليك أخبرني، حتى لو كان المجتمع متواطئاً لكي يبيح خلسةً محظوراتِ ما يرفضه في العلن، هل يقبل هذا المجتمع أن يكون الرجل مثليّ الجنس ؟ .
- شهيد .. إنه صديقي، هل أتخلَّى عنه في هذه المحنة ؟
- محنة ؟!! قُلْ فضيحة مدوّية يا رجل، كم مضى من الوقت على معرفتِكَ بـ يم ؟ هل تعتبر حقاً أنَّ ما بينكما صداقة ؟ وهل أحطتَ بكلِّ ما يَخصُّهُ لتفخرَ بصداقته ؟ لا تَقُلْ لي إنه حقَّق الكثير في حياته .

يبدو شهيد منطقياً في أسئلته، ربما انبهرتُ بدايةً بـ يم، لكن ما تكشَّف لاحقاً يستدعي إعادة النظر بالكثير من التفاصيل، وما كنت أُنبِّه منه،

استطاع أن يجعله وراء ظهري، الخط البياني آخذ في الانحدار، وأنا ألهثُ وراء هدف واحد : أن أستقي المعلومات من يم ، ما يعني أنني قدَّمتُ المصلحة على أي اعتبار آخر، أطرقتُ هنيهة ثم قلت:

- نحن ملوَّثونَ بالفردية والأنا العظمى يا شهيد، نَتَطهَّرُ من الخارج بانفصامِنا الفاضح، ونلوّنُ وجوهَنا بما يُعرّيها ظنّاً منّا أنّا نُجمِّلها ونُخفي قُبْحَها .

- ما معنى هذا ؟ ولماذا تصرُّ على فلسفة الأشياء بمواضعَ تتطلَّبُ اتخاذ موقف حيالها ؟ هل ستستمر في صداقتك له ؟ .

- ألوم نفسي يا شهيد، أدركُ أن الوهمُ الذي يسكن رأسَ المثليّ يَدفعُهُ إلى تفسيرِ كل تصرُّفٍ نحوَهُ على أنه سَعْيٌ للتقرُّبِ إليه، وها هو يم وقع في مصيدةِ خالد، لكن لابد من إيجادِ سبيلٍ لكي يخرجَ من هذا المأزق .

بدا شهيد حازماً في موقفه تجاه يم، رافضاً لما أتفوَّهُ به :

- فليجده يم بنفسه، لا علاقةَ لكَ بالأمر وإلا اتُهمتَ بالمثليّة أنتَ أيضاً ولا تَقُلْ لي إنَّ برنامجَكَ يستدعي تَدخُّلكَ بأمره .

- لن يكون برنامجي دفاعاً عنهم، أو هجوماً عليهم، ما أسعى إليه هو كَشْف أمورهم التي يتعامى عنها المجتمع لأنه غارقٌ فيها، يجب أن يحدِّدَ المجتمع موقفاً واضحاً من الأمر، بمعزل عن انخراطه في تَشظّيهم وعذاباتهم، إنهم حقيقة يا شهيد، وجودهم فاق التصور،

وما اطَّلعتُ عليه من خلال يم أذهلَني، يكاد يصيبني بالجنون، وليس فيهم من هو كائنٌ أتى من كوكبٍ آخر، جميعهم نتعامل معهم، منهم من دخل هذا العالم على سبيل التجربة، ليس بدافع الشهوة أو الشذوذ أو الهوى والميل الفطري، وقد راقَ له الأمر، فكيف بمن كانتِ المثليّةُ مُتأصِّلةً في داخله ؟ يجب أن نواجه هذا الأمر .

طغى الاشمئزاز على وجهِ شهيد، بدا صبره ينفد، انتفختْ أوداجه حين قال :

- أي فئة تهتمُّ بها يا قيصر ؟ ما الذي سيقدِّمهُ لهم برنامجك ؟ ألم تسأل نفسك ما الذي قَدَّموه هم لمجتمعهم ؟ فكيف لهم أن يطالبونه بالاعتراف بوجودهم واحترامهم، ويتباكون على ما يكرهون من المحيطين بهم من نظرات الاشمئزاز والكره والاحتقار، ويرفضون نعتهم بالشذوذ أو الانحراف، وهم أنفسهم يَصِفونَ بعضهم بالدونيَّة والفجور، يكذِّبون بعضهم البعض، وهم أنفسهم من جعل كلمة مثليّ الجنس مُرادِفة للفسق والانحطاط، وكل همُّهم غريزتهم وشهواتهم وفجورهم الفعلي ؟!! .
- يا رجل، ألم أخبرك بأنهم ينتمونَ إلى كافَّةِ الشرائح الاجتماعية والكثير منهم حَقَّقَ نجاحاتٍ جَمَّة على مستوى التحصيل العلمي والأكاديمي وفي أغلب الاختصاصات ؟!

صمتُ لبرهة .. ثم أردفت :

- حالة الملل التي تداهمُ الرغبة ألا تزيد من إشعالها بفتنةٍ وشَبَق ؟

زفر شهيد بعمق، ضرب كفّاً بكف .. رنا نحوي وصبره يتلاشى :

- هل عُدنا إلى فلسفة الأشياء ؟! ربما يا قيصر، ربما .

- اسمعني جيداً يا شهيد، أنت .. ألم تحادث البعض منهم على Facebook ؟

- ربما، لكن سبق أن قلت لك : جميع من أحادثهم على Facebook هم في عالم افتراضي لا يمتُّ إلى الواقع بصلة .

- وحين أدخلُ إلى صفحتك وأجدُ أنَّ أكثرَ من خمسين مثليّاً يتابعها، وأنتَ لستَ بمثليّ، ما معنى هذا ؟

- لا يعني شيئاً، هم أحرار ولن أمنعهم عن متابعة صفحتي، لكن لا أصادقهم في الحياة .

- أحدهم قال لي : " جميع الرجال مثليّون حتى يثبت العكس " فما رأيك في وجهة النظر هذه ؟

- لا أتفق معه .

- الأمر نسبي .. و ربما كنتَ أحدهم ؟

قهقه شهيد مُستنكِراً ما تفوَّهتُ به .

- ما الذي تقوله يا رجل ؟!! .

- لماذا تستنكر عليّ أنْ أقفَ إلى جانب يم إذن، ربما تتعرَّض أنتَ لمثل هذه التُّهمة من أحدِ أصدقائك الذين يراقبون صفحتك مثلاً ليفسِّرَ متابعة المثليين لك بأنك منهم ؟

- لا شأن لي في تفسيرات الآخرين، سلوكي في حياتي هو ما يحدِّدُ وجهتي في هذا الأمر .

- أنتَ عرفتَ يم قليلاً، وقد حدَّثْتُكَ عن إنجازاته في مجال عمله واختصاصه فكيف لي أن أرفضه كإنسان لمجرد أنه مثليّ الجنس ؟ أنا لا أدافع عنه الآن، لكن يجدر بي أن أقف إلى جانبه ليتجاوز أزمته الحالية، أما كونه مثليّ الجنس فهذا أمرٌ يخصُّهُ ولا يعنيني في شيء ما دام لا يتسبَّب لي بضرر .

- هذه قناعتك، وأنا أختلف عنك فيها .

- إذن لا تُعارضني فيما أنوي القيام به .

- ما الذي يُمكنُكَ فعله بعدما افتضح أمر يم ؟

- إنَّ نَشْرَ خالد لنصِّه على صفحته لا يعني فضيحة له، يجب أن يتصرَّفَ يم بشكل طبيعي ولا يهتم بالموضوع، هناك مجانين كُثُر في العالم وخالد أحدهم، يجب أن يتصرَّفَ يم بهدوء وكأنَّ شيئاً لم يكن، ومن جهة أخرى .. يم يجب أن يتزوج وقد حادثته في هذا الأمر .

أطلقَ شهيد ضحكةً ساخرةً قائلاً :

- يم !! يم .. سيتزوج !! وهل سيرضى المجتمع عن مثليّته إن كان متزوجاً ؟

- أنت تدرك تماماً أنَّ من بين العظماء في التاريخ كان هناك مثليّو الجنس الذين أمضوا حياتهم وقد فرضتْ مجتمعاتهم حُكْمَها وعاداتها عليهم، ورغم ذلك قدَّموا للإنسانية أروع الأعمال وفي مختلف المجالات، فهل نَسَفَهم التاريخ وحطَّم إنجازاتهم أو أتلَفَها لمجرد أنهم كانوا مثليين ؟ لو اندثرتْ أعمالهم وما تركوه للبشرية من بعدهم لما سمعنا عنهم أبداً .

- هم كانوا موجودين في غابر الزمان، ومضوا كما مضى، الآن نحن في هذا المجتمع الذي لا يزال يحاكمهم اجتماعياً وقانونياً وإنسانياً، ولا أعتقد أن ثمة عظماء من بين مثليي هذا العصر ..

قهقه شهيد وهو يخبط كفاً بكفٍ ويدير برأسه يُمنة ويُسرة .. ثم تابع :

- هم هياكل عظمية تهوى الجسد وتُفتَن به لا أكثر، والله لا أُشبّهم إلا بالتيوس المخصيَّة، ثم .. ثم ما بالك تدافع عنهم ؟ هل نسيت اتهام ألما لك ؟ رغم سخافة تفكيرها إلا أنها اتَّهمتكَ وتجرَّأتْ عليك لمجرد اهتمامك بي وإقامتي في بيتك، هل نسيت ؟!! .

- لم أنسَ .. وأنت تدرك تماماً ما غايتها في اتّهامي، ولسنا الآن بمعرض مناقشة أمرها .

- لكنها أظهرتْ لك قبولها بمثليّة زميلها الذي كشفَ سِرَّهُ لها، وحين

واجهتْ الأمر معك بظنونها السوداء .. رفضتْ القبولَ به وبك .

- لأنها تريد الوصول إلي لا أكثر، عشقت جسدي وأرادت إطفاء شهوتها .
- كما تريد يا قيصر، كُنْ على ثقةٍ أنَّ برنامجَكَ هذا لنْ يجلبَ لكَ إلا وجع الرأس والثرثرة والفضائح، نحن في مجتمع أكثر ما يهتم به هو الفضائح ونشر الغسيل الوسخ، أودُّ أن أطمئنُكَ أخيراً، لستُ مُصاباً بـ " الهومو فوبيا " .

ضحك شهيد بشدة، في حين كان الصَمتُ يُسربلني، وقراري الآني أن أعاودَ التفكير مليّاً في برنامجي .

مر يومان، لم أدرِ ما حلَّ بـ يم لانقطاعه عني وانشغالي بعملي، وفي صباح اليوم التالي أطلق هاتفي المحمول الرنة المخصصة لهبة الله، أخبرتني أن يم أُصيبَ بانهيار عصبي استلزمَ نقله إلى المستشفى وبقي يومين فيها للعلاج والمراقبة.

قررتُ السفر إلى اللاذقية لأكون إلى جانب يم، وقرر شهيد السفر إلى بغداد .

(٢٢)

بعد انطلاق الحافلة بساعة، وصلتني رسالة من ألما، كتبتْ فيها :

" ظننتُ أنَّ الصوتَ لحُبٍّ قادم، اصطدمتُ بشوكِ الدَّرب، والعَلْقَمُ كان في تفاصيل الوَهم .. لا في القلب " .

لم أكن أرغب بالردّ على رسالتها، لولا فكرة اقتحمتْ رأسي، فأفرغتُها في فراغ الرد :

" لا تلعبي مَعي دورَ الشيطان، يَكفيني القبائل التي تلعبُ في رأسي، خُذْي قَطيعَكِ وامشي، رؤوسُها نافرةٌ حَدَّ الجحيم، إيماءةٌ تَكفي لمطري " .

عطَّلتُ خدمةَ استقبالِ الرسائل، والتفتُّ لأرى اليابسة من حولي وقد تضرَّجتْ بالتصحُّر، لا شجر ولا مطر ولا بشر، ليس هناك إلا السراب، ريحُ الإرهابِ امتدَّتْ وتمتدُّ لتحرقَ صدى الحكايات الخُضر، أصواتُ القذائفِ تُرهِقُ فضاءَ الكون، في أوقاتِ الحرب، وعند أبعد نقطة من الحياة، نرى الموتَ يعيشُ على الخوف، وعلى إطفاءِ الومضة في عينِ الحياة، بصبرٍ نتَقبَّلُ إستراتيجية المسافات، نَثِبُ لنتجاهلَ الحقيقة، ونُتابعَ المسير .

استغرقتُ في نومٍ عميق، ولم أُفِقْ إلا حين علا صراخ طفلٍ رضيعٍ جهدتْ أمه تُهدهدُ له دون جدوى، رنوتُ من نافذةِ الحافلة لأرى الشمسَ تُقبِّلُ البحر، كانت مشاعري حينئذٍ مُتناقِضةً، فمن فرحي بلقاء البحر، إلى خشيتي على يم، لما سيقرِّرُه مدير الإذاعة بشأن برنامجي الجديد بعد أن حصل بيننا ما حصل .

هنا .. سورية كما نعرفها ونعشقها، لكن الجديد هنا هو اللافتات الكبيرة التي تغصُّ بها الشوارع، حاملة صور الشهداء وما أكثر ممَّن ينتمونَ إلى هذه البقعة من الوطن ممن ضحَّوا في سبيله، هنا .. تُروى الكثير من قصص البطولة في مصنع الأبطال، سرعان ما استرعى انتباهي اللون الأسود لفاقدي أحبائهم، يُغلِّفه ويطغى عليه كبرياء الحياة، وعزة النفوس الأبية التي ما ارتضت يوماً الهوان أو الذل فبذلت ما بوسعها لصون الوطن من كل آثم عربيد .

كان يم نائماً حينما وصلتُ إلى بيته .

طلبتْ هبة الله ممن حوله ألا يُحدِثوا جَلَبة تزعجه، ولما لم يستجيبوا استأذَنَتْهم بضرورة تَرْكِهِ بعيداً عن أي تأثير سلبي حتى يتماثل للشفاء ويتجاوز الأزمة .

حين فرغَ البيت من زائريه، باستثناء هبة، نهضتُ لأختار موسيقى هادئة من مكتبة يم، استدرتُ نحوها، كانت قد رجعت إلى ما كانت عليه، تُشكِّلُ صمتَها من حروفِ ما تقرأ، دنوتُ منها لأعرف ما يشغلها،كانت

رواية " سدهارتا " لهيرمان هيسه، التفتُّ مُتَّجهاً صوب المطبخ لأعدَّ فنجانين من القهوة، تبعتني فوراً لتحدِّثني بهمسٍ رقيقٍ عن يم وتخبُّطه في عمله وعدم استقراره بعد فسخ خطبته من وداد، عجبتُ من إخفاء يم هذا الأمر عني، سارعتُ أسألها عن سبب فشلهما وما الظروف التي أحاطتْ به عندما كان خاطباً .. زفرتْ بعمق وهمستْ لي قائلة :

- لا أعلم السبب الحقيقي، في كل مرة كان يم يتذرَّعُ بسبب جديد، ربما لكي يخفي سبباً لا أحد يعلمه سواه .
- وخطيبته .. ما كان موقفها وقولها ؟
- لا أدري، لم ألتقِ بها أبداً بعد فَسْخِ الخطبة، كان ذلك قبل أيام من موعد الزفاف .
- بالمناسبة، أريد نسخة من مجموعتك الشعرية لمدير الإذاعة، هناك من يريد إلقاء بعض القصائد منها .

نَدَّتْ عن هبة الله ابتسامة ماكرة، سألت :

- ومن يريد إلقاء القصائد، ألا يرغب بإجراء حوار مع صاحبتها ؟
- ربما .. سأدعوه للتفكير في الأمر .

انعطفتْ هبة خارجة من المطبخ، كانت عيني الثالثة تخترق المرئيَّ باحثةً عمّا يُطمئِنُها، عندما ولجتُ و هبة الله غرفة يم، أفاق، انهمرتْ دموعه حين رآني، بدا وجهه شاحبًا مُكدَّرًا، عيناهُ زائغتانِ من تأثير المنوِّم،

جذبَ يدي واحتضن كفّي والدمعُ ينسابُ من عينيه مُغازِلاً الألم والندم، يَهدأُ تارةً ويُعاودُ البكاءَ تارةً أخرى، بدا كأنه يَسترجعُ آخرَ ما حدثَ معه قُبَيل تعرُّضِهِ للانهيار العصبي، رَبتُّ على كتفِه مُهدِّئاً من روعه، وطلبتُ منه ألا يفكر الآن بشيء .

استأذنتْ هبة وغادرتْ بعد أن اطمأنَّتْ على يم، لم أرغب بالتحدُّثِ معه في الأمر حتى اليوم التالي، لكنه في آخر الليل نهضَ من فراشه، جلس إلى جانبي وشرع يتحدث فيما يثقل كاهله :

- هل فُضِحتُ يا قيصر ؟
- لا .. هَدِّئ من روعك، المهم الآن أن تتماثَلَ للشفاء ومن ثم نتحدث في الأمر .
- أتظنُّ أن خالد قد أخبرَ أحداً بالأمر ؟
- كُنْ على ثقة أنه لا يستطيع ارتكابَ حماقة، الفضيحةُ سوف تطاله أيضاً إنْ أشاعَ أي خبر عنك .
- ربما أوكلَ إلى أحدهم تولّي الأمر عنه، أخشى أن يصل الخبر إلى أهلي أو أصدقائي .
- يم .. لن يحدث شي مما تخشاه، المهم أن تقرِّرَ أنت ما تريده لأجل حياتك .
- ماذا تقصد ؟

- إما أن تبقى كما أنت مع احتمال معرفة الآخرين بك، أو أن تسعى بشكل جدّي للزواج .

- لا .. لن أتحمّل قسوة المجتمع، سوف تتعرّض عائلتي للشتيمة والشماتة، وهذا ما لا أطيقُ حدوثَه لها .

- إذن .. فالزواج هو الحل .

- ولماذا أتزوج الآن ؟ إما أن أكون مثلياً ويُفتَضح أمري أو أن أتزوج فوراً ؟

- ربما بزواجك، تحدُّ من إفشاء سرِّك .

- ألا تعلم أن هناك الكثير ممّن تزوَّجَ وحافظ على مثليته ؟

- أدرك ذلك، لكن المجتمع يطالبك بأن تكون رجلاً، كُنْ كما تهوى أن تكون، بعيداً عن أعينِ الناس، أنت تدرك بأنه لا يُصانُ سِرٌّ في جوِّ المثليين القَميء .

- أتعلم .. أرغب الآن أن أمشي معك على الكورنيش وأسمع هدير الموج .

- سنخرج غداً إن شاء الله ..

- أشعر بتحسُّنٍ ولا أريد البقاء في السرير .

- طيب، حاول أن تنهض الآن وتغسل وجهك .

• سأفعل .

نهض يم بتثاقل، أمسكتُ بيده وطلبتُ منه التحرُّكَ ببطء .

رنَّ هاتفي لحظتئذٍ، المحامي الذي نظَّمتُ له وكالةً قانونيةً ليباشر بإجراءاتِ المخالعة مع روزالين، طلب مني تحويل مبلغ المؤخَّر إليه ليتمكَّنَ من إتمامِ الإجراءات، أخبرته أني سأقوم بإرسال حوالة مالية بالمبلغ من حسابي المصرفي وسيكون في حوزته صباح الغد، أكَّدتُ عليه ألا يدفع المبلغ قبل أن يوقِّعَ محاميها على المخالعة .

هل حقاً سوف تَحينُ لحظةَ إخراجِ روزالين من خانتي ؟ سؤالٌ ما توقعتُ من روحي أن تطرحَهُ في خِضَمِّ ما أحياه :

" وهل ستخرج من قلبك، إنْ أخرجتَها من خانتك ؟ "

يا إلهي .. أيمكن أن يكون لروزالين بقيّة باقية لدي لذا تبادر إليَّ هذا السؤال الآن ؟ إنْ كان الضميرُ مَنْ تكلَّمَ فهو مرتاح ويُدرك أني لم أدَّخر جُهْداً في سبيل إنعاش زواجنا، وما حديثه الآن سوى النبض الأخير قُبَيل إعلان الوفاة، وَثِقتُ مما يحمله قلبي .. وكان السؤالُ نَصْلاً أراقَ الدَّمَ مِنْ عُنُقِ المحال .

في مساء اليوم التالي، هدأتْ روحُ يم واستقرَّ وضعه، توجّهنا معاً نحو الشاطئ وكنتُ حريصاً ألا نقابل أحداً من معارفه أو أصدقائه، اخترتُ مكاناً بعيداً من الكورنيش وبقينا في السيارة نسمع الموسيقى مع هدير الموج،

كان البحر رقيقاً، يختزنُ حباً لا يشبه الحبَ الذي نعرف، أمام البحرِ موجٌ بشريٌّ كثيف هربَ من فجور الإرهابيين الذين عاثوا خراباً ووزّعوا الموت على مَنْ كان آمِناً مُستقرّاً في محافظته، وَسِعَتِ اليابسةُ المحاذية للبحرِ قوافل المُبعَدين عن ديارهم، وهم ممنْ التصقَ بأرض وطنه فلم يهرب إلى الخارج، كانوا يأتون إلى البحر مُصطافين فَرحين لاهين بموجِ البحر، لكنهم الآن يلوذونَ به هَرَباً من موتٍ مُحقَّق، رغم ذلك فحضورهم أرهقَ شاطئ البحر بما يقذفون إليه من قاذورات، حدَّثني يم بما يُقلِق في الأمر، حيث بقي الكثير من الرجال في محافظاتهم وأرسلوا زوجاتهم وأولادهم الصغار وتفرَّغوا هم للجهاد كما يعتبرونه، علم بذلك حين أخبره صديقه الطبيب عن امرأةٍ كانت تَلِدُ في المستشفى، وحين سُئلتْ عن زوجها، أجابت بأنه يجاهد !! .

خيَّمَ الصمتُ بيننا للحظات، استرقتُ النظرَ إلى يم، أحسستُ كم هو بحاجة إلى اليقين في حياته والثقة بنفسه على أنه قادرٌ على إيجاد الحب الحقيقي مع فتاة تخصُّهُ وحده بمشاعرها، تؤمن بقلبه وبجدوى حبها له، لينتشل روحه من نوازع نفسه وأوهامها، ولينهي الريبة لديه بأنه عاجزٌ عن جذبها إليه وارتباطها به، ليؤكِّدَ لنفسه أنه لا يفتقد للحب، لكنَّ تَشتُّتَهُ يُجهِضُ إحساسَهُ الحقيقي بالحياة وبمن يحب .

كنتُ واثقاً أن يم بحاجة إلى إعادةِ بناءِ ما بَعثره وَهْماً من فسيفساء روحه، وما خَرَّبه استهتاراً من سكينة نفسه، فعالمه الداخلي يَضجُّ على

الدوام بما لا يحقِّقُ له استقراراً بالمطلق، ما يجعله مُتخبِّطاً حتى في فهم أبسط الأشياء في الحياة، وهذا ما يتسبَّبُ له بشعور دائم بالنقص والفراغ العاطفي الذي يُوهِمُ به نفسه، فيثنيه عن المحاولة، ويُبقيه مُقيَّداً بأوهامه، أسيراً لنوازعِ نفسه وأخطائها المتراكمة .

حاورتُهُ في ذلك، وبَسَّطتُ له الأمر قدر استطاعتي، لكي لا يرى فيه المحال، لكنه التفتَ إلى العُقَدِ الصغيرة التي تجعله في حالة شلل فيستسلم لوهمه فيها قبل أن يرضخ لها، رغم ذلك، فكَكتُ العُقَدَ وحَلَّلتُها له .

آنَ لـ يم أن يستوعبَ خطورة ما يرمي نفسه فيه، لكي يتجاوز ما يصنعه بيديه .. حين يَردمُ المرءُ حُفَرَ أوهامه المفتوحة على عواصف الظنون المتشبِّثةِ بقناعاته، يُفلِحُ في إيجادِ مفاتيح الحلول، وما إنْ يستخدم أول المفاتيح ويتطابق مع قِفْل الظَّنِ الأول حتى يدرك خارطة طريقه، يجتهدُ في معرفة الأبواب ليشرعها على الحياة الجميلة، يَستردُّ ما فَقَدَه، ويعزِّزُ ثِقتَهُ بأهمية وجوده، فيرتاح إلى مَصيره كائِناً ما كان .

أحسستُ بشبحِ التَّوترِ يَنسلُّ إلى يم بعد حوارنا الأخير، أردتُ تهدئةَ روحِهِ قليلاً فقرأتُ بعض ما كتبته أثناء سفري إلى اللاذقية، اقترب مني يم، احتضنَ كفّي، أراد أن يقول كلاماً طازجاً في الحب، رجوته ألا يفعل، بقي يموجُ برغبةِ الثرثرة التي لا طائل منها، ظنَّ ما كتبته وقرأته .. مُوجَّهاً له .

أيقنتُ .. أن لا سبيل لمعالجة يم، سيبقى كما هو وكما أراه الآن .. أنثى .

(23)

تعافى يم بشكل كامل مما تعرَّض له، وبات عليّ أن أعودَ إلى دمشق، كنتُ أخبرتُ مدير الإذاعة بسفري الطارئ، كيلا يظنَّ أن الموقف الأخير كان وراء تَغيُّبي عن الإذاعة، لكن الأصدقاء في اللاذقية أصرّوا على بقائي يومين آخرين لأحضر حفل افتتاح مقهى ثقافي لأحدهم، وهذا ما كان ..

توجَّهتُ برفقة يم و هبة الله لتناول الغداء في مطعم " نابولي " ظهيرة اليوم الأول، كانت فاتن وابنتيها يتناولنَ البيتزا الشهية، هَبَّ يم يُلقي عليهنَّ التحية، وحين اقتربتُ وهبة الله منهن كان يهمس لها بما فعله خالد، فبادرتْ تقول له:

- كلامك الآن يشبه إلى حدٍّ كبير ما تتناقله النسوة فيما بينهن، لا تُعِرْ خالد أو غيره أي اهتمام، كما أطلب منك ألا تتحدث فيما يروونه كذباً عنك، لا تلتفتْ لكلام الناس، نحن نعرفك جيداً فلا تقلق .

رميتُ يم بنظرة قاسية، هل مِنْ عاقلٍ يُثرثِرُ على نفسه بلا طائل ويحدِّثُ من لم يسمع .. بما اتُّهم به ؟

حين اتخذنا مكاننا في " نابولي " وبعد أن طلب يم البيتزا، بادر

بالقول :

- ما بكَ يا قيصر ؟ هل أخطأتُ ؟

- لا أبداً .. بل قلتَ الصواب والحقيقة .

- أيها المغفَّل، إنسان لم يسمع بما اتُّهِمتَ به .. لماذا تخبره بالأمر ؟

- لأن مدام فاتن تعرف حسان ويارا وهما تحدَّثا بالأمر عني بعد قراءتهما منشور خالد في صفحتي، فمن الطبيعي أن تعرف لاحقاً، أردتُ توضيح الأمر لا أكثر فهل أخطأت ؟

- طيب، أَيُعقلُ أن تتكلَّمَ أنتَ وتُوسِّع دائرة العارفين بالأمر ؟

كادتْ هبة أن توجِّه قبضتها نحوه من شِدَّة غضبها منه وهي تقول :

- يا مجنون .. أنتَ تؤكِّدُ ما يُحكى عنك بهذا الشكل .

- لكن مدام فاتن تعرفني جيداً .

- من يعرفك لن يجهلك ... آآآآخ منك ماذا أفعل بك لكي تفهم ؟

لم أستطع كَبْحَ جماح غضبي منه، فقلت :

- حقاً تقول هبة، فمن يعرفك لن يجهل أمورك، اللاذقية كنيويورك مدينة كبيرة ومأهولة، والناس لا تعرف بعضها بعضاً، ومن يراك ويلحظ على الفور نعومتك سوف يستنكر التهمة الموجهة إليك ليراها حقيقة ماثلة أمامه . " انبسط يا عم " .

- قيصر .. أرجوك افهمني، الأمر ليس كما تُفكِّر فيه أنت وهبة، لابد لي من توضيح ما تسبَّبَ به خالد، كيف أدعه يتَّهمني وأسكت له ؟

كانت هبة الله تجهل حقيقة يم، لذا كانت مُستنفِرة عليه أكثر مني فاتجهتْ بكلّيتها صوبه، زفرتْ بعمق وقالت :

- هل تريد أن تخسر جميع أصدقائك بسبب حُمْقِكَ لا بسبب ما قيل عنك ؟؟ إذن فلتثرثر ولا على بالك .. أنا أضمن لك النتائجُ .

احتقن وجه يم وبدا كأنه في جُبِّ أفعى .. همس باستسلام :

- أنا آسف، لم أفكر بهذه الطريقة .

توجهتُ بالحديث إلى هبة الله قائلاً :

- هل حدَّثك عن جوليا ؟

- رأيتها مرة واحدة في أمسية قصصية، ما بالها ؟

- في زيارتي السابقة اجتمعتُ بها في منزل يم، كانت برفقة والدتها وقد حضرتا لتهنِّئانه بالعيد، أبدت الفتاة اهتماماً ملحوظاً بـ يم، دعوتُهُ للتفكير فيها والتواصل معها أكثر، والاهتمام بشؤونهما معاً، لكنه لم يفعل شيئاً ولم يتقدَّمْ خطوة واحدة، جوليا مُهتمَّة به وقلتُ له مراراً لن تجد بسهولة فتاة تُبدي كل هذا الاهتمام وتظهر إعجابها من فراغ، فاستفدْ من اهتمامها بك وعمِّق معرفتك بها، ربما تكون

مناسبة لك .

- ولماذا لم يفعل ؟

توجّهت بكلّيتها نحوه، وقالت بتهكّمٍ :

- ما دامتْ قد اهتمّتْ بك أيها الأحمق فهي مُعجبةٌ بك إن لم تكن تهواك ؟ لكن مضيّ الوقت من دون أن تحرّكَ ساكناً ربما جعلها تيأس منك وتتحوّل عنك لغيرك، لا تضيّعِ الوقتَ، جسّ نبضَ قلبِها فوراً فإنْ لم تكن قد ارتبطتْ عاطفياً بغيرِكَ، سارعْ لمقابلتِها، واطرحْ الموضوع عليها .

- لا أريد ذلك الآن، لستُ جاهزاً للخوض في هذا الموضوع .

- لماذا يا مجنون ؟ هل تتوقع أن تنتظرك إن كانت معجبة بك ؟!!

التفتُّ إلى هبة أحدِّثها :

- لا تُتعِبي نفسك معه، البارحة سألته عن سبب عدم تواصله معها فأجابني بأنها طلبتْ منه ألا يتّصلَ بها لسوء الشبكة حيث تسكن، وحين قلتُ له : أيُعقَل أن تطلب منك هذا الطلب ؟ أوَ تعرف هي متى تكون شبكة الاتصالات جيدة ومتى تسوء ؟ سكتَ ولم يُحرِ جواباً، جرَّبتُ الاتصالَ بها على الفور، ردَّتْ عليّ وكلَّمتني ومن ثم قلتُ لها سيتحدَّث إليكِ يم فأشار لي أنه لا يريد، أجبرتُهُ على محادثتها وحين انتهى الاتصال، تأكدتُ أنه ....

- أنه ماذا ؟؟ قل بالله عليك .

- أنه كاذب ..

رنوتُ إلى يم وتحدَّيتُه بنظرة تُعرّي كذبه وأتبعتُ :

- أنتَ تكذب يا يم ولا تَحلِف برأسِ أمِّكَ وأختك كعادتك .

- لا لم أكذب و راس ...

انتفضتْ هبة و هبَّتْ تقول :

- " يلعن راسك يم " اصمت ولا تحلف، مهما أُثيرَ حولك من كلام بعد اليوم فلن أدافع عنك .

أردتُ أن أخفِّفَ مِنَ التوتر الذي ساد بيننا، وأهدِّئ من انفعالِ هبة الله .. فقلتُ :

- يم .. لن تكونَ ضيف برنامجي القادم، حتى لو تمكَّنَ مهندس الصوت من تغيير صوتك، فإنَّ " راس أمك وأختك " سيكشفانك .

لملمتْ هبة الله أشياءها المتراخية على الطاولة، وهي ترنو نحو يم المتكوِّر بمضض، وأردفتْ :

- سأُنهي جلستي معك بعبارة كتبتُها يوماً لأحدهم عَلَّها تنفعك أكثر من وجبة البيتزا التي بردتْ بسببك ولم نلتهمها :

" لا تَستصغِرْ أحدًا، ربما كنتَ أصغرَ مِنْ أنْ تَراكَ ذُبابة، لكنْ جُلَّ مَنْ هُمْ حولك، يُشفِقونَ عليك "

استقامتْ هبة لتتجه صوب باب المطعم .

أطبق الصمت لحظات، بقيتْ البيتزا أمامنا تُحملِقُ في وجه يم .

تزامَنَ خروج هبة مع دخول شابٍ مُلتحٍ برفقته فتاة بهيَّة الطلعة ملائكية الوجه، جالا ببصرهما أرجاء المطعم وحين شاهدا يم، كنتُ أفرغُ كأس الماء في جوفي وأنا أناظرهما يبتسمان لـ يم مُقبلينَ نحونا، حين ارتويتُ كانا قد انتهيا من إلقاء التحية عليه، دعاهما لمجالستنا بعد أن عرَّفنا جميعًا على بعضنا، جهاد يعمل مدرِّس لغة عربية ويكتب القصة، وله عدة مشاركات في أمسيات أدبية باللاذقية، أما زوجته هالة فتُعِدُّ رسالةَ ماجستير في الأدب العربي .

بدا التآلف بين الزوجين باسِطاً راحتيه، ما أضفى السكينة والهدوء على جلستنا فوراً، تحدَّثنا قليلاً عن حال الثقافة في خِضَمِّ الحرب التي تشهدها سورية وأوضاع المثقفين فيها، خاصة أولئك الذين سافروا إلى الدول المجاورة ليتَّخذوا مواقفَ معارضة وليندمجوا ضمن صفوف المعارضة الخارجية، وهم من المفسدين والمنتفعين بحكم وظائفهم والمناصب التي كانوا يشغلونها، وغيرهم الكثير ممن ارتدّوا على أعقابهم ليمارسوا الإرهاب الفكري بعُهْرٍ بَيِّن، عبر فضائيات كان لها الدور الأكبر في شنِّ الحرب الإعلامية التي تعرَّضت لها سورية .

بدا لي جهاد شخصية قيادية سلطوية، مُتأثِّراً إلى حدٍّ بعيدٍ بطبيعة مهنته التي أضافتْ إلى شخصيته الكثير من الجدّية والالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية .

سرعان ما أتى جهاد على ذكر وداد حين تمنّى لـ يم أن يُفكِّرَ مُجدَّداً بالارتباط من فتاة، وأن يتجاوز كل ما مضى، خاصة أن خطبته لوداد كانت في الفترة الأولى لقدومه إلى اللاذقية ولم يكن بعدُ مُستقراً، امتقعَ وجه يم فور ذكر اسمها محاولاً تغيير الموضوع، وهو يرمقني بنظرةٍ مُتفحِّصةٍ ليرى وَقْعَ ما أخفاهُ عني سابقاً، بدوتُ طبيعياً كأنَّ الأمر لا يعنيني بشيء، استأذنَ جهاد ليجلس إلى طاولة أخرى مع زوجته، أخبره يم بموعد افتتاح المقهى الثقافي ودعاه ليكون حاضراً، همس جهاد في أذنه بضع كلمات ومضى .

التقتْ عينايَ بعينيّ يم، سارعَ إلى التبرير بعدم توفُّر مناسبة استدعتْ ذكر الموضوع، قلتُ له مُتحدّياً :

- لا بأس، ما فاتنيْ من الماضي أعرفه الآن منك، ولكن قُلْ لي الآن كيف حال صديقك أسامة ؟ لماذا لم تعد تخبرني عنه شيئاً .

- لا أدري ما سبب انقطاعه عني، حاولتُ الاتصالَ به مِراراً لكن خَطُّهُ موقوف، يبدو أنه غيَّر رقمه، نحن نُغيّر أرقام هواتفنا كثيراً، ولم يخطر ببالي أن أبعث له رسالة عبر البريد الإلكتروني، سأراسله وأخبرك .

- اترك لي عنوان بريده الإلكتروني، وزوّده بعنوان بريدي الإلكتروني وبرقم هاتفي، سوف أحتاجه حين أبدأ بتقديم برنامجي .

- كما تريد قيصر، لكن أريد الآن أن أُحدِّثَكَ بشأن خطوبتي السابقة، لا أريد أن تفهمني بشكل خاطئ، بدا لي أن الأمر طبيعي جداً ويمكن حدوثه مع أي شاب حين لا يجد الفتاة التي يخطب مناسبة له فيفسخ خطوبته منها، ولم أتعمّد إخفاء الأمر عنك .

- هذا صحيح، لا ألومك فلِمَ التبرير في أمر يخصُّكَ ؟ لكن هذا لا يمنع من رغبتي بمعرفة السبب الحقيقي لفسخ الخطبة والذي لم تقله لأحد .

- الخوف من الزواج، هذا هو السبب الحقيقي، الخوف من معاشرة امرأة ليست ككل النساء، التعامل مع امرأة تشاركك كل اللحظات أمر صعب، الخشية من عدم القدرة على التحمُّل أو الإخفاق بواجبات الرجل أياً كانت، وضعتُ العراقيل في طريق تفاهمنا وبدوتُ مُصرّاً على تحقيق السعادة وكأني أحلم بالمدينة الفاضلة لا بالزوجة الفاضلة .

- ما معنى أن تكون امرأة ليست ككل النساء، ثم .. ألم تخشى أن تكشفك وداد ؟

- بالطبع .. لكنني رجل كامل الرجولة على خلاف ما تراني أنت .

قهقهتُ مُتندِّراً من قوله، نطقتُ وقد ابتلعتُ القهقهة نصفَ حروفي :

- المشكلة ليست فيما أعتبره أنا، بل باعتبار وداد لك !!

- كانت شخصيتها قوية ومُتسلِّطة، عدا عن محاولة أهلها التدخُّل بشؤوننا في كل صغيرة وكبيرة، أحسستُ وكأني سأتزوج العائلة بأكملها، صبرتُ في البداية وقلتُ ربما يريدون تأمين حق ابنتهم، لكن الأمر تجاوز المعقول، رفضتُ وأبيتُ الخضوع لهم ولها، مُستغِلّاً الأحداث اليومية بيننا لأعمِّقَ الشَرْخَ بعد كل مشكلة تقع فيما بيننا لأصل بهم إلى المطالبة بفسخ الخطبة .

- كيف تعرَّفتَ إلى وداد ؟

- عن طريق الشابكة مُذْ كنتُ في حلب .

- لماذا لم تفكِّر بالارتباط من فتاة أخرى بعد وداد ؟

- رغبتُ أن تهدئ الأمور بعد أن ..

- بعد ماذا ؟

- بعد أن ارتابتْ وداد بأمري .

بُهتُّ لِما تلفَّظَ به يم .. وتساءلتُ :

- هل علمتْ أنك مثليّ ؟

- قلتُ لكَ إنها قوية ومُتسلِّطة، وكانت حادَّةَ الذكاء، ارتابتْ بأمري، وكنتُ على علاقة مع ابن خالتها .

- يم .. أي أحمق أنت !! هل كنت تعرف ابن خالتها قبل التقدُّم لخطبتها ؟
- لا .. تعرَّفتُ عليه أثناء حفل الخطبة ومن ثم التقينا مراراً .
- يم .. قُمْ لنغادر المطعم، ولا تنسى أنْ تُمْهِرَ قصصك بالشمع الأحمر

(٢٤)

في المقهى الثقافي، الباذخ في أُبَّهته ورونقه، المفعم بالدفء والشاعرية، والمكتسي من خلال ديكوراته الجميلة الصبغة الفنية والثقافية العالية، تَوزَّعتْ الرفوف في صدر المكان وقد سُطِّرتْ عليها الكتب والقواميس والتحف الفنية الأنيقة، وعُلِّقتْ اللوحاتُ التشكيلية لكبار الفنانين السوريين، أسماءٌ نسجتْ في تاريخ الفن التشكيلي المعاصر ديمومةَ الحياة وأصالة الأرض والإنسان، لؤي كيالي، فاتح المدرس، هيشون، أحمد معلا، عمر حمدي مالفا، نذير نبعة، وغيرهم ممن لم أستطع قراءة أسماءَهم، وقد وُضِعتْ عِدَّة آلاتٍ موسيقية شرقية على رفوف أخرى أضفتْ على المكان سحراً خاصاً، اللوحةُ التي سُحِبتْ الستارة عنها وكان لوجودها الأثر الطيب والصدى العميق كانت لفيروز وفي خلفيتها بَدَوا " الرحابنة " الأسرة العريقة في تاريخ الفن الغنائي العربي .

كان يم في هذه الأمسية ينوي محادثة جوليا بموضوع ارتباطهما، استطعتُ إقناعه أخيراً بأنَّ الوقتَ مُناسِبٌ لذلك، لم يغبْ أحد من الأصدقاء، بدا الجو مُفعَماً بالودِّ، والاحتفال ناجحاً لا يُعكِّرُ صَفوه شيء .. إلى أنْ دخل المقهى شابٌ في العقد الثاني من عمره، بدا غريباً عن المكان إذ لم يكلِّمْهُ

أحد ولم يقترب من أحد، انزوى بعيدًا عن الجميع يراقب ويَهزُّ برجله في توتُّرٍ واضح، كأنه ينتظر مرور بعض الوقت ليقدِّمَ عَرْضاً أو ليؤدّي دوراً ما .

لحظة انتباه يم إلى وجوده، احتقنَ وجهُهُ، ارتعدتْ أوصاله، كأنَّ الشابَّ كان ينتظر التفاتةً من يم لكي يدنو منه، حين أمسكَ بيده واستدار ليقابل كل من هو داخل المقهى تَنَبَّهَ أغلب من كان موجوداً إلى حركة غير طبيعية، هَمَسٌ تَواتَرَ مُبعِداً الأحاديث الدائرة ومُلفِتاً الأنظار بعد تَوجُّهِ البعض للنظر نحو يم والشاب الممسك بيده .

بدا الشاب واثقاً مما يفعله، مُعتدَّاً بنفسه، طلب من الحضور الإنصاتَ له، اصفرَّ وجه يم لحظتئذ، كأنه أدركَ ما سيقع، بادر الشاب بالقول :

لن أعطِّلكم عن حَفْلِكم هذا، سأُخبركم عن صديقكم الموقَّر يم وأغادر المكان .

تقصَّد الشاب الصمت بضع ثوان لشدِّ انتباه الحاضرين أكثر، وليثبِّت قدميه بحركة لم تُخفِ توتره، ثم تابع :

هذا الذي ترونه أمامكم Patrona لم يدع أحداً من مثليّ اللاذقية في شأنه مُذْ حلَّ فيها، الجميع يعرفونه ويشهدون له بالخبرة والمعرفة في كل ما يخصُّهم .

تعالتِ الشّهقاتُ هنا وهناك،لم ينبس يم بحرف، بدا الجو مُكفهِراً، اللَّغْطُ والهَمْسُ يحومان في المكان كالغُربانِ الكريهة، الوجوهُ أُلبِسثْ كُرْهَاً

أقنعةً سوداء لا ثقوبَ لها لترى من خلالها العيون، الأفواهُ فاغرةٌ والآهاتُ تَتعالى حُنُقاً مما سَمعته الآذان من كلام، أكملَ الشاب ما بدأ به : " يم .. مثليّ الجنس، سأترك لكم هذا " .

رفع يده وألقى CD كأنه يقذف بمنديل قذر، بدتْ عضلاتُ وجه يم تنحرفُ يَساراً، شفتاهُ مالتا، عيناهُ زاغتا كأنه لم يعد يرى أمامه، تحرَّكَ فجأة، أفلتَ يدَهُ من يدِ مُمسِكه، ليفرَّ هارباً بسرعةٍ رهيبة، لم يستطع أحد اللحاق به، اختفى فوراً في أزقة الحي .

انقضَّ البعض على الشاب مُمسكينَ به، في حين ركض آخرون ليتتبَّعوا أثر يم، استوقفني جهاد حين أردتُ الخروج للبحثِ عن يم مع من خرج .. قال لي : تعال معي .

كنا مُضطرين للركض سريعاً عبر الأزقة، فقد ركنتُ سيارتي في الشارع العام، أخبرني جهاد بأن يم قال له منذ فترة بأنه إنْ فكَّرَ يوماً بالانتحار فسيكون ذلك من فوق صخرة الموت .

توجَّهنا مباشرة نحو الكورنيش، لفتتْ سرعتي في قيادة السيارة بعض عناصر شرطة المرور فلحقوا بي، حاولوا إيقافي، لم أستجبْ لهم، تَبعوني وهم يُطلقونَ صفَّارةً امتدَّت على خط سيري المجنون، لم أتوقَّفْ حتى وصلتُ الكورنيش حيث صخرةُ الموتِ تقفُ مُشرئبَّةً تتحدَّى الأحياء وتُغازلُ الأموات في الحياة، رجال الشرطة يحاولون ثَنيي عن التَوجُّهِ نحو صخرةِ الموت ظَنّاً منهم أنني أريد الانتحار، صرختُ بهم لكي يُسرعوا ويُنقذوا من

يريد الانتحار .. صديقي يم .

استدعوا عناصر النجدة والإنقاذ فوراً، هَبّوا جميعاً للوصول إلى أسفل الصخرة الممتدَّةِ حتى جذور القهر، رسموا بتناثرهم في المكان لوحةً مِنْ يأس، الصرخةُ تتناثرُ أشلاء يُسمَعُ في الأرجاء دَويُّ تحطُّمِها ليحملها زَبَدُ البحر الرابضِ فوق دمعِ الصمت والأنين ويقذف بها على رمل الشاطئ .

كان هناك .. مُلقىً على الصخور الجانبية المحاذية للصخرة الأم، صخرة الموت، انتشلوه، كان معطف الباشمينا الأزرق الذي كان يرتديه مُمزَّقاً ومُضرَّجاً بدمه، كنتُ وجميع من كان في المقهى حاضرين، الشاب المأفون في قبضة الشرطة، ونحيبُ النوارس الحزينة في قبضة السماء .. كان البحرُ لوحده صامداً أمام لوثَةِ الإنسان .

على ما بقي من الحياة، بكى الموت، انتشت وردةٌ في أصقاعِ الرُّوح، خَضَّرَ الضميرُ نداءَ الدمع .

إحساسُكَ بالحياة .. يَتيمٌ يتيم، تَحضَّرْ .. لا تتركْ للغبارِ فُرصَةَ التَّمادي، ثَمّةَ كفنٌ يَنتظرُ دَمْعَ الموتِ الحزين .

(٢٥)

تَبعنا سيارةَ الإسعاف في طريقها نحو المستشفى الوطني، بدا خالد في حالة هستيريا واضحة لحظة سَوْقِه أمامنا إلى مخفر الشرطة .

أيُّ مَوتٍ اخترتَ يا يم ؟!!

كان حَريٌّ بك أن تتركَ للموتِ صوغَ رحيلك بنفسه، ربما كان أكثر رأفة منك بنفسك .

لماذا اخترتَ البحر ليكون الحاضن لجسدك بإيلام ؟ ليتك تركتَ للموجِ حكاياتِه دونك، انكسرَ ماؤكَ آنَ عَجَّتْ به فجواتُ الصخر، نزيفُ ظِلّكَ رسم وجهك على دفترِ البحر، غبارُ الخطوةِ الأخيرةِ يُوْسِعُ المدى .. نافذةٌ على قلبي، وابتسامتُكَ .. بَجَعةٌ تهوى الرّيح، حمَّلتَ القمرَ كُرَّاسَ الذُّنوب، وغبتَ وراء الشمس بعد تَصدِّيها لغوايةِ الريح، تركتَ للكون صمتاً لتجاعيدِ الضحكات ولوناً لصَخَبِ الذكريات، يم .. قاسمْتُكَ رغيفَ حُزنِك، فأحرقتَهُ وعَجَّلتَ الرحيل

أهذا ما يُرادُ للمثليين إنْ حَدَثَ وافتُضِحَ أمر أحدهم ؟!! .

دنتْ مني هبة الله، ترنو إليّ بعينيّ الخطيئة، وتُغرقني بأنين الفجيعة، حاولتُ عبثاً مواساتها ووقفتُ كمن يرجو القويَّ ليساندني بمواساتي، احتضنتُها فاختلطَ دمعي بعبراتها، اقتربَ منا أدونيس وتحدَّثَ بصوتٍ مجروح :

- أرجوكما .. تماسَكا ولا تَبكيا، يجب أنْ تهدئَ روحُ يم في العُلا، أراها سابحةً تُصارع دموعكم جميعاً لتنال من سكينتها .

حاولتُ التماسُكَ قدر استطاعتي، غالبتُ انهيارَ الدمع كيلا يتَّجهَ صوب صخرة يم، تبعثرتْ حروفي بنشيجٍ حزين

- فلنذهب إلى بيت يم .

كاد النحيب يُفقِدُ جوليا قدرتها على الكلام، تحلَّقَ عدد من الأصدقاء حولنا، بدا صوتها آتٍ من نبض يم :

- أرجوكم، قولوا لي إن يم يمازحُنا ولم يمتْ، من رآه منكم بعد إخراجه من جوف البحر ؟

- لم يخرجوه من جوف البحر، كان ..

قاطعتْ جهاد قائلاً :

- فلنذهبْ الآنَ إلى بيته، تعالي معي يا جوليا .

أمسك أدونيس بيدِ جوليا وقال لي :

- سآتي معكما، إن لم يكن لديك مانع .

أومأتُ له ولهبة الله بإشارة لينضمّا إلينا .

خَيَّمَ الصمتُ على الجميع، نصفُ ساعةٍ مَرَّتْ بعد وصولنا إلى بيت يم، والدمع يتناثرُ ليشكِّلَ صورتَهُ الحيَّة بيننا، بدتِ الجدران كئيبةً وهي تَغصُّ بصورنا جميعاً، ضاحكينَ، مُنطلقين في الحياة .. ومعنا يم، كان مُحبّاً للجميع، والآن .. نجتمع في بيته وهو الغائب الحاضر .

قطع أدونيس حبل الصمت بقوله :

- أخبرتُ أهله، سوف يتدبَّرون أمرهم بتأمين وسيلة نقل تُقِلُّهم إلى اللاذقية .

كأنَّ المجتمعين كانوا بانتظارِ صوتٍ ينبعثُ من أحدهم، انسكبت كثير من العبارات التي انسلَّتْ شاحبة من الأفواه :

- هل يمكن لي أن آخذ صورة لـ يم ؟

- كانت الدماء تغطي وجهه .

- رأيتُ شَبَحاً يظهر ويختفي لحظة إخراجه من بين الصخور .

- لو أنه انتظر حتى ينهي ذاك المأفون كلامه لنقول له إننا جميعاً نحبه ولن نتخلّى عنه .

- الموتُ لا ينتظر أحدًا .

- من فضلك .. أريد كأساً من الماء .
- متى سيكون الدفن ؟
- سأكتبُ قصيدةَ رثاءٍ لـ يم.
- طلب مني يوماً أن نسير بنعشه في المدينة قبل أن يَلِجَ المقبرة، كان يحب اللاذقية حُبّاً جمّاً .
- طلب مني أيضاً أن تُعزَفَ لروحه الموسيقى .

ألمُ الفَقْدِ لم يدعْ لي مجالاً للإنصات أكثر، وما استطعتُ النُّطقَ بحرف واحد، كانت ظلالُ الموتِ تُخيّمُ حتى اللحظة فوق رأسي، وضحكاتُ يم تملأ البيت، صدى صوته يتردَّدُ في أذني، هالةٌ من النُّورِ أحسستُ بها تضيء المكان، غَبَشٌ في عينيَّ النازفتينِ دَمْعَ الرَّفضِ يجعلُ من رأسي ثقيلاً كصخرة الموت اللعينة ..

لماذا كان قرارك الأكثر حَزْمَاً في حياتك هو قرارُ موتِكَ يا يم ؟

(٢٦)

لم أسافر حتى مضت أيام العزاء، كانت علاقتي ببهبة الله وجوليا وأدونيس قد قويتْ وتعمَّقتْ، أمضيتُ جُلَّ الوقت برفقتهم، وقُبيل سفري ببضع ساعات، تَوجَّهتُ إلى الكورنيش بطلبٍ من جوليا، فور وصولنا إلى المكان الذي جمعني بـ يم أول مرة، عند صخرة الموت، رنوتُ إلى السماء، كان الماضي يتدلَّى من سقفها، ثمة طريقٌ نحوها يتثاءبُ، ليخطو فيها طيفُ جسد، يبعد مسافة الذكريات عنا، بدت المُزْنُ مَحنيَّةَ الظهر من ثقل الأسرار التي تحمل، تَعثَّرتُ ببقعةِ الظلِّ التي تركها يم لحظة مغادرته المكان في ذلك اليوم، أهي الشمس من أهدانيها الآن ؟! تَشبَّثتُ بالذكرى، طفرتْ دمعةٌ مني أثارتْ شجونَ جوليا فعاجلتْ تبوح لي بما أخفته طويلاً، كانت تعلم أنَّ يم مثليّ الجنس، ولم تكن ترفض الزواج منه لو أنه حدَّثها بالأمر، لأنها مثليّة الجنس أيضاً .

لم أعجب مما قالته لي، لم يعد هناك ما يدعو للدهشة، لكن ما استفزَّني لطرح أسئلة كبيرة كان أشد تأثيراً مما مرَّ بي وما سمعته حتى اللحظة :

هل الحرب الدائرة في سورية حَرَّضتْ بذات الوقت على قيام حروبٍ

أشد وطأة وأكثر عنفاً داخل النفس البشرية ما جعل التَغيُّر بيّناً واضحاً أكثر من ذي قبل، وهذا ما استدعى تفشّي كل هذا القُبْح الذي كان المجتمع يبرع في إخفائه ؟ وإذا ما نحّينا القُبح جانباً، نجد النور البهيّ لدى الأنقياء ينبعثُ من أرواحهم الحية أبداً ليغلّفَ الكونَ بهالةٍ من نور يَعبرون بلّورها بحب صافٍ للحياة كما يحلمون أن تكون، فتُخلَق فيهم أحاسيس تؤمِّنُ استمرارهم دون أن يشوب إنسانيتهم ما يشوِّهَها، ويصون وجودهم من مغبَّة الوقوع في مستنقعاتٍ آسنةٍ تحاول جَرَّهُم نحوها فيأبون الانجراف مُتمسّكين بأصالة الإنسان ومُتشبِّثينَ بما يحفظ جذورهم، زادَهُم الأمل وعِتادَهُم الصبر و قُوْتَهم حبُّ الحياة، مؤمنين أنَّ بعد العُسْرِ يُسْراً، وبأنَّ النَّقاءَ لابد يوماً أن يَطغى ويحيل كل مَكروهٍ أو قُبحٍ إلى رماد .

جوليا تتحدث إليّ .. وأنا أُمعنُ النظر في الأشجار العملاقة المنتشرة بحديقة المتحف الوطني في اللاذقية، فأرى فيها أصل الإنسان السوري في وطنه الحقيقي، تربةُ أرضِهِ الغنيَّة عبر الأزمنة الممتدة حتى آخر رَمَقٍ للإنسان في الحياة، ليتأكَّدَ لي أن الأشجار تحافظُ على وجودِنا أفضل مما نهتمُّ نحن بأنفسنا وبها، في حين نُمعِنُ نحن بإيذائها وبسحق الجمال فينا، وبأنها تَمدُّنا بأسباب الحياة ونحن نُرهِقُ أنفسنا بما يؤكد حضور الموت في داخلنا فنقتل الملائكة لنمدَّ من عمر الشياطين وإن أعطيناها من أعمارنا نحن باختلاق أسباب سطوتها علينا لنتباكى بعد حين، وفي كل أوان لا خاسر إلا نحن .

كانت جوليا تلومُ نفسَها على سكوتِها، حينما هبطتْ روحي بعد تحليقٍ لطيفٍ في فضائِها الرَّحِب، ومن ثم قالت وهي تكفكفُ دمعها وتحاول جاهدة إخماد نشيج يختلج بصدرها :

- لو تحدَّثتُ إليه، ربما كنتُ جَنَّبْتُهُ قَتْلَ نفسه .
- لا تلومي نفسك .. هذا قَدَرُه .
- كنتُ أنتظره ليتكلَّم معي فأنا لستُ على ما يرام .
- رحل يم يا جوليا، وإن كنتِ تَرين أنَّ في زواجك حلٌّ لمشكلتك فاسَعيْ في الأمر .

نظرتْ نحوي بحنوٍ كأنها تلتمسُ مني أنْ أَمُدَّ لها حبلَ نجاةٍ يُبعدها عن شبح الوحدة وما تقاسيه :

- هل يمكنني أن أجد شاباً يقبل بالزواج بشرط أن لا يمسَّني ؟
- هل أنتِ جادَّة فيما تقولينه ؟
- أجل .. وهل تتوقع مني المزاح في أمر كهذا ؟
- أعرفُ شخصاً ربما يوافق على ما تشترطينه . هل أكلِّمه ؟

أمسكتْ بما ألقيته لها من طرف حبل، تشبَّثتْ بأملٍ يُنجيها من براثن اليأس وعاجلتْ بالسؤال :

• من هو ؟ هل هو مثليّ ؟

• أجل هو مثلي الجنس، ولن أذكر اسمه الآن حتى أكلّمه في الموضوع .

استنفرتْ لمعرفة المزيد، مَنَحتِ الحياةُ لعينيها بَريقاً خُلقَ للتوّ :

• كيف تَعرَّفتَ إليه ؟

• لا تنسي أنني كنتُ صديقاً لـ يم، علمتُ بمثليّة ذلك الشاب منه، هو من اعترف لي بذلك .

قطَّبتْ ما بين حاجبيها، تلبَّد وجهها بغيمٍ عقيمٍ لا مطرَ فيه، أشاحتْ بوجهِها عني وهي تستصرخُ إجابتي :

• ولماذا تقول " اعترفَ لي " أهوَ ذَنْبٌ وأنتَ الرَّب ؟

• آسف لم أقصد ذلك .. معاذ الله .

أتبعتْ بحزمٍ كأنها قاضيةٌ تتلو قرارَ حُكْمٍ مُبرَمٍ لا سبيلَ للطعنِ فيه :

• قيصر إنسَ الموضوع .. لا أريدُ منكَ شيئاً .

• هل أزعجتُكِ جوليا ؟. أرجو أن تفهمي ما أقصده ولا تأخذي للكلمات أبعاداً أخرى .

رنتْ مُشفِقةً عليّ، وسرعان ما انبثقَ الاستخفافُ مُسيطِراً عليها :

• لا بأس .. حصل خير .

• سأتحدَّثُ إلى الشاب وأخبركِ فيما بعد .

• كما تريد، شكرًا .

حدَّثتُ أدونيس بالأمر، حين اجتمعتُ به لوداعه، وعرضتُ عليه فكرة الزواج من جوليا .

وافق على الفور، طلب مني أن أتحدَّثَ إليها ليكلِّمها، فهو لا يريد أن يتعرَّض لما تعرَّض له يم، على الرغم من اختلافه عنه شكلاً ومضمونًا وسلوكًا

حين تفوَّهَ أدونيس بكلمة سلوك، شردتُ قليلاً وغبتُ عنه أفكر، أيُعقَل أنَّ يم كان يتصرَّفُ على هذا النحو فيجمع بين الشريكين إنْ كانا رجلين أو شاب مثليّ وفتاة مثليّة لذا وصمه خالد بـ Patrona ؟

نهضتُ على الفور وأنا أقول لأدونيس بصوتٍ مُتهدِّجٍ :

• يجب أن أسافر حالًا .. لن أنتظرَ هنا أكثر من ذلك .

• ما بالك يا رجل ؟ ما الذي خطر ببالك فجأة ؟ ألم تكن تسمعني ؟

• لا عليك أدونيس .. سأحدِّثُ جوليا عنك وأخبرك متى تتكلَّم معها .

• هل قررتَ السفر الآن بحق أم أنكَ تُمازحني ؟

- لا .. لا ، سأسافر حالًا .

حين اقتربتُ من سيارتي لأستقلَّها، وجدتُ وردة جورية حمراء على زجاجها الأمامي، رفعتها لأتنشَّقَ عطرها، ورقة صغيرة تحيط بالجزء العلوي من ساقها، بسطتُ الورقة لأجد خطَّ هبة الله يزيّنُ بياضها وقد كتبتْ : " أستودعُكَ دَهْشتي و.. .. بعدما تورَّطتُ بقلبك الطفل " .

تلفتُّ حولي، كان الشارع خاويًا إلا من عطر هبة الله، قبَّلتُ الوردة وانطلقتِ .

(٢٧)

استقبلني مدير الإذاعة كأنَّ شيئاً لم يكن، اكتفى بتقديم العزاء لي بوفاة يم، مُشدِّداً على الموعد المقرر للبدء بالبرنامج الجديد، دخلتُ الأستوديو لأقدِّمَ الحلقة الأخيرة من برنامجي، خصصتُها لتكون عن الموت وفقدان الأحبة، تركتُ للمستمعين الهواءَ مَفتوحاً ليقولوا ما يشاءون، وختمتها بنصٍّ صغير كنت قد حضَّرته لأودِّع به مستمعي برنامجي :

" و .. تستمر الحياة، إنْ بحزنٍ أم بحبور، تستمر ربما بوهنٍ واهمٍ مرهون

نحيا في أتون أحزان كثيرة، ربما كانت مُزُنُ السماء تتكدَّر حينما يُصابُ القلب بنَصْلِ حزنٍ ودمعُها يؤذينا ولا يروينا بمطر، نحزن .. إما لحدث جديد أو لذكرى جرح ..فلنبحث عن الفرح، وإذا ما وجدنا طيفه يتراءى لنا، وبدتْ خيوط الخطوة تظهر على أديم حلم .. غَذَّيناه، ومن ثم أهملناه، أو قسونا على أرواحِنا فنسيناه، إذا ما التقينا بما يُشعِرنا بوجوده وإنْ على ثغرِ درب ... فلنُكمِل .

لا تتوقفوا عن دربٍ جائع لخطوة .. الحياة لا تحتمل أفراحاً مؤجلة أو انتظاراً متعمَّداً ..

فإما أن تكون الحياة كما نريدها أن تكون .. أو لا نكون " .

علمتُ فيما بعد أن خالد أحيل إلى النائب العام بأكثر من تهمة تَكشَّفتْ خلال التحقيق معه، لكنه أثناء توقيفه في السجن، أَعلمَ الحارس بأن لديه معلومات إضافية يريد الإدلاء بها فوراً، وأثناء سَوْقه مُكبَّلاً، كان الذئبُ في داخله يفترسُ القيدَ بشراسة، وبلحظةٍ شاردةٍ عن الزمن قرَّرَ المناورةَ بما يمكّنِه من خَلْقِ فُرصةٍ تَسنحُ له بالهرب، وهذا ما كان له .

قَدِمَ أدونيس إلى دمشق للمشاركة في نشاط خاص بالشبكة، فاتصل بي ليعرضَ عليَّ فكرةَ المشاركة، لم أتردَّدْ بالقبول، واتفقنا على لقاءٍ يجمعنا في أحد مطاعم باب توما لنتحدَّثَ في التفاصيل .

أثناءَ تَوجُّهي لملاقاتِه، سِرتُ في حاراتِ دمشق القديمة، تَنشَّقتُ ما بقي من عبق الياسمين، تلمَّستُ وجعَ الأرصفة، وأنصتُّ لأنين الجدران، أزقَّةٌ كثيرةٌ ارتدتْ عباءةَ الحزن بعدما كانت تَرفُلُ بثوبِ الفرح وضحكات الأطفال فضاقتْ .. وضيَّعتْ الخُطى اللاهثة وراء ابتسامة تبحث عن انفراج، وتهرب من موت ينمو سريعاً في مفاصلها، شوارع دمشق التي كانت تَعجُّ بزوَّارها وعاشقيها، لتتنسَّمَ عبق التاريخ بأصالة فريدة، يدفعهم التوقُ للُقيا التراث الأصيل، أمستْ كالأشجار حين تخلع عنها دمعَها دون أن تبخلَ في احتضانِ عصفور، ورغم تَشبُّثِ الناس بالحياة، وممارستهم لأعمالهم إلا أن هناك الكثير مما تغيَّرَ في أرواحهم فانعكس على مُدُنِهم .

حين التقيتُ أدونيس، ارتسمَ البحر أمامي، رأيتُ وجوهَ الحزانى

وفاقدي الأحبّة، يصارعونَ الموت ويهزمونَ السواد الذي جلَّلَ حياتهم بإحساسهم الحي بالحياة، كثيراً ما تحدَّثتُ إلى أطفال البحر الذين خَبِروا الحياة قبل أوانهم وبات حديثُ الوطنِ وما يتعرَّضُ له من ويلاتٍ على ألسنتهم، عرفوا الشهادة وأحبُّوها، الشهادةُ ببذْلِ الرُّوح فداءً للوطن وليس الموت والقتل سبيلاً إلى تنفيذ فتاوى الشر والخيانة، أما ألعابهم فقد اختلطتْ بها أنواع الأسلحة وطرق استخدامها، أيُّ جيلٍ قادمٍ سيكون في المستقبل ؟ وأيُّ لُغَةٍ سيتوجَّهُ بها المجتمع للحدِّ من آثار الحرب الدائرة ليضمن للحياة أن تكون حياة ؟ .

سرنا في حارات باب توما، حدَّثتُ أدونيس بما كنت أفكِّرُ فيه ليكون مَدخلاً لما قررتُ مناقشته به فور اتفاقنا على اللقاء وقبل أن نتحدَّثَ عن مشاركتي بنشاط الشبكة، قلتُ له :

- جهاد النكاح .. تمَّ فيه إلغاء العدّة والنسب وعقود الزواج، وبعيداً عن مخالفته الشرعية، هناك مشكلة كبيرة في تحديد الأنساب، وهذا ما سوف يشكِّلُ خطراً على المجتمع مستقبلاً .

- هذا صحيح .. ولم يُطرَح جهاد النكاح إلا في سورية على المستوى العربي .

- أتعلم لماذا يا أدونيس ؟

- لترك جيل من الأطفال بعد الانتهاء من الحرب مجهول النسب، هذه الفتوى تسعى إلى ضرب الأنساب مستقبلاً في محاولة لإبقاء

العرق اليهودي هو العرق الصافي النسب .

- في كذبة-أمام الأجيال القادمة التي سوف تتسبَّبُ في التشكيكِ بالهوية السورية، وهذا الجهادُ في أصله هو فتوى صهيونية تعمل على فناء الدين وإفراغه من محتواه الحقيقي .

- وهذا ما يخالف ما جرى العمل عليه في فيتنام وحتى أفغانستان، ففي الأولى قامت القوات الأمريكية بإنشاء مواخير للجنود وتحت إشرافها، وهذا ما أُطلقَ عليه في الجيش الأمريكي لقب القبعات الخضر، أما في الثانية فقد كان أيتام الحرب ضد الروس يُؤخَذون إلى مدارس دينية خاصة في باكستان إضافة إلى تربيتهم تربية عسكرية وقد عُرفوا فيما بعد بإسم طالبان .

- والآن .. أدونيس، هل فكَّرتَ فيما ستتركه لوطنك من نسب أصيل يكون ثمرة لزواج صحيح ؟

- لا .. لم أفكِّر بذلك .

- أدعوكَ إلى التفكير إذن، وإنْ تزوَّجتَ جوليا، فلتحرص على إنضاجِ ثمرة صحيحة بينكما .

- سأفعل ..

كنا قد وصلنا إلى مطعم " حارتنا " اتخذنا مكاناً لنا بين روَّاده ليبدأ أدونيس بعرض فكرة مشاركتي مع الشبكة :

- لاحظتُ في صفحتك على Facebook النَفَس الشعري، هل لديك القدرة على كتابة نشيد للشبكة يمثِّلُها في المحافل الدولية في اشتراكها بالنشاطات الخارجية ويقدِّم بذات الوقت صورة جلية للعالم أجمع عن سورية وطن الحضارة والأبجدية ؟ .

- سيكون ذلك مُحقَّقاً في وقت قريب، هذا شرفٌ لي .. لأجل سورية العظيمة ولأجل الشبكة .

- إذن سأحدِّثُ المسؤول ونتباحثُ معكَ خلال أيام جول النشيد

- ماذا ستفعل بخصوص جوليا ؟

- سأتفق معها لنجد طريقة مناسبة للتعامل فيما بيننا، جوليا فتاة جيدة ويبدو أنها مُتفهِّمة وتعرف ما تريد، وكذا أنا، أعرف ما أريد، لن أتوانى لحظة عن توفير أسباب الراحة لها، سأعرض عليها فكرتك التي تحدثنا بها منذ قليل، حتى لو كان هناك ما يباعد بيننا جسدياً فهذا لا يمنع من تحقيق هذا الأمر .

- أرجو أن تنالا السعادة التي تنشدانها كليكما .

- أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً جريئاً ؟

- تفضل ..

- هل أنت مثليّ الجنس ؟

- ما أستغربه هو طرح هذا السؤال منك، إنْ كنتُ أتحدَّثُ

بشؤونِكَ أو بشأنِ يم فهذا لا يعني أنني مثليّ، وحده يم كان يعلم سبب انخراطي في هذا الموضوع .

- هل لي أن أعرفه ؟

- أنا أعدُّ برنامجاً جديداً للإذاعة، موضوعه المثلية الجنسية، كان لابد لي من معرفة أجوائكم والاطلاع على حقيقة علاقاتكم وأسلوب حياتكم وممارساتكم أيضاً في الحياة ومع بعضكم بعضاً، وقد أفادني يم كثيراً

بُهتَ أدونيس حين التقطت أذناه كلماتي، مع ما رافقها من جَلَبة مُفاجِئة عمَّتْ أرجاء المطعم إثر دخول أكثر من عائلة معاً ..

- هل نلْتَ موافقة الإذاعة على تقديم برنامجك ؟

- موافقة ورعاية، لو لم أنل الموافقة عليه لما كنتُ تعرَّفتُ عليك .

- كيف ذلك ؟ هل تعرَّفتَ إلى يم لأجل برنامجك أيضاً ؟

- لا .. التقيتُ بكم جميعاً ولم أكن أعرف يم، وكونه المنسق العام في الشبكة فقد تواصلتُ معه بشكل أكبر، في تلك الفترة كنت أحضِّرُ لبرنامجي الجديد، وحين حدَّثت يم عنه ومع تطوُّرِ معرفتنا كشفَ لي عن مثليته وقد ساعدني كثيراً فيما كنتُ أجهله عن المثليين .

- بطرحك هذا الموضوع الساخن والجريء، وخوضك فيه عبر

وسيلة إعلامية، فأنت لغمٌ حقيقي، هل تَحضَّرتَ لما يمكن أن يواجهك من عقبات أو اتهامات ؟

- لابد من الغوص عميقاً في هذا الموضوع، ولابد من تَوخّي الصدق والواقعية فيه، وإلا انقلبَ البرنامج لفضائحَ مجانية، وما اعتدتُ يوماً في عملي إلا الجدّية، يجب علينا أنْ نُقدِّمَ الحلول يا أدونيس وإلا كنا فارغين من الداخل .

- بعد أن اطَّلعتَ على أجواء المثليين .. ما رأيك بكل صراحة ؟

- عالمٌ سافر، عالم اللا معقول، الخطيئة تسير جنباً إلى جنب مع كل فعل أو قول، والأسباب كثيرة في ذلك، أولها الصراع الذي يواجهه المِثليّ مع نفسه، وإن استطاع تجاوز ذلك، اصطدمَ بمحيطه، عالم فيه من الجنون الكثير، هذا الجنون وبناء على ما شهدته، يحمل إبداعاً في بعض الأحيان، ويستتبع أمراضاً حين يُترَك ويُهمَلُ ليغدو كالزئبق الأزرق في أحيان كثيرة، كما فيه من القُبحِ الكثير، تجدُ نِتاجَ التربيةِ والظروفِ التي لَعبتْ دوراً بارزاً في تنامي هذه الظاهرة حتى غدا فيها الاستثناءُ قاعدة، لا أُنكِرُ أنَّ هناك نماذج تحترمها ولا تُلقي بالاً لميولها رُغْماً عنك، بَعيداً عن نظرة المجتمع ورفضه لها، لكن بالمقارنة مع السوء المتفشّي في سويّةِ العلاقات المبنيّة على الشكِّ والكذب والخداع فهي قليلة جداً، هناك الكثير من العلاقات السرية تِبْعاً لالتزامِها قَسْراً بقيودِ المجتمع الذي لم يسمح بإظهارها أو حتى مناقشتها، وهنا يأتي دور البرنامج لا ليحرِّضَ المجتمع على تَقبُّلها بل ليدعوهُ لمواجهتها وحَصْرِها

والاعترافِ بوجودها، ليدركَ أسباب تفشّيها، ويقعُ عليه وحده مسؤوليةَ الاعترافِ بها أو الاستمرار بمكابرته الظاهرية واستنكاره الكاذب لها .

- أنا على ثقة تامة بأن ما تلفَّظتَ به الآن ستعبِّر عنه خير تعبير إذا مُنحتَ القدر الكافي من الحرية في مناقشة الموضوع، لاشك أن مجرد طرحه سيُحرِّك الراكد، لكن بشرط الاستمرارية فيه لا أن يُوقَف بعد بثِّ الحلقة الأولى منه، نحن يا قيصر بشر، جئنا إلى هذه الدنيا عن ذات الطريق التي جاء منها كل البشر، وُلدنا بتكويننا الجسدي والحسّي مثلهم، ولم يكن الأمر بيدنا ولم يختِرنا أحد بأي حال نكون، نؤدّي وظائفنا ونندمج بمجتمعاتنا كسائر الخلق، ومنّا الكثير قد حققوا لأنفسهم ولمجتمعاتهم أفضل ما يمكن أن يقدِّمه البشر، وفي التاريخ نماذج كثيرة عن شخصيات تركت بصمات ثابتة في الفن والجمال والعلم والإبداع .

- أجل .. لاشك في ذلك، هناك أسماء كثيرة كأوسكار وايلد، ليوناردو دافنشي، الإسكندر الأكبر، يوليوس قيصر الإمبراطور الروماني الشهير، والملك ريتشارد قلب الأسد، كما ذُكر أن سقراط وأفلاطون كانا مثليين أيضاً .

- المثليّة يا قيصر قديمة قِدم التاريخ، وُجدت في كل العصور والمجتمعات، حُوربتْ وأُدينتْ بشكل صارخ كونها سلوك مخالف لمنهج السلوك العام في المجتمع، هناك من المفكِّرين من كان مُتسامِحاً، ومنهم من كان رافضاً مُتَعنِّتاً في رفضه، وبذا تأثر المجتمع

ككل فاتّخذَ جانب الرفض، وهم موجودون شاء من شاء وأبى من أبى، لدى المجتمع عيون، لكنها تأنف النظر إليهم، حاربهم، في الوقت الذي يجب أن يكون حاضناً لهم لئلا تتلقّفهم الأمراض التي تكاد تفتكُ بهم وتوردهم مَورِدَ المهالك، لتُصاغ حياة الكثيرين منهم ببؤس شديد !

- وهذه غايتي يا أدونيس من طرح الموضوع، يجب أن يتقبّلهم المجتمع ليبدأ بمعالجة من يحتاج منهم إلى العلاج، لاشك أنها مشكلة مستعصية لكن يجب أن نكفَّ عن الاختباء وراء الإصبع المزرّق .

- أدونيس .. كم نحن بحاجة لأن نواجه المجتمع بما سيؤدي إلى نهايته إنْ بَقينا صامتين، وإنْ بَقِي هو يتعامى عن مواجهة ما يجعل البشر في الدرك الأسفل وهو بظنّه أنه يتسامى .

- أجدتَ القول .. ما مصدر معلوماتك بالإضافة إلى اطلاعك على أجواء المثليين منهم أنفسهم ؟

- راجعتُ العديد من المراكز المتخصصة في الشؤون الاجتماعية، إضافة إلى مستشفى الأمراض النفسية، ووزارة الصحة، ومركز مكافحة مرض نقص المناعة المكتسب، كما أعددتُ استبياناً خاصاً بالموضوع سيجري توزيعه على شرائحَ مختلفة ومدروسة من المجتمع ومن ثم دراسته واستخلاص النتائجُ منه من قبل اختصاصيين في علم الاجتماع والطب النفسي وعلم النفس والإحصاء، وكل سؤال

له هدف من وراء طرحه ويستخلص منه نتيجة محددة، وسيتم نَشْر الاستبيانِ أيضاً في الموقع الإلكتروني للإذاعة مع تأمين قاعدة بيانات لتوخّي الدِقة في إجراء العملية .

- وما النُقاط التي ستثيرها في الاستبيان ؟

- تتدرَّجُ الأسئلةُ وتتنوَّع بحيث يتم الكشف عن مدى مصداقية المجيب من خلال الأسئلة ذاتها واختلاف صياغتها مع وحدة الهدف فيما يتشابه من الأسئلة وبأسلوب بسيط غير مُعقَّدٍ كون الاستبيان مُوجَّه إلى شرائح مختلفة من المجتمع، هل تودُّ الاطلاع على الأسئلة ؟ الورقة معي .

- أتمنى ذلك .. شكراً لك قيصر .

أخرجتُ من الحقيبة الصغيرة بضع أوراقٍ من بينها الورقة الخاصة بالاستبيان، قدَّمتُها لأدونيس وأتبعتُ :

- كما تلاحظ الأسئلة تزداد عُمْقاً بالتدريج، تبدأ بسؤالِ المجيب فيما إذا كان قد تَعرَّضَ خلال مرحلة الطفولة لتحرُّشٍ جنسي، وعن رأيه بالمثلية الجنسية وتقييمه لها مع وضع عدة خيارات للإجابة على كل سؤال، وفيما إذا كان في محيطه شخص مثلي إن كان شاباً أو فتاة ... وما إلى ذلك :

- أنت تطرح سؤالاً عن موقف المجيب في حال اكتشفَ أن أحد أصدقائه مثلي الجنس..برأيك لو لم ينتحر يم، أكان قاطعه جهاد ؟

- لماذا.فكَّرتَ أن تسألني عن جهاد بشكل خاص ؟

- جهاد من أعزِّ أصدقائي، وأعلمُ مستوى تفكيره ونظرته لـ يم .

- تَعرَّفتُ على جهاد قُبيل وفاة يم، ولن أستطيع إجابتك على سؤالك، كونه صديقك يمكنك معرفة ذلك .

- كانت لدى جهاد إشارات استفهام كثيرة وتحفُّظاتٍ محددة حول سلوكيات يم .

- هل كان يعلم بمثلية يم ؟

- لم يكن مُتأكِّدًا، ولم يرغب الخوض في هذا الشأن، على الرغم من أن جهاد واقعٌ تحت سطوة المجتمع وأحكامه، ليس إيماناً منه بصواب وصحّة كل تلك الأحكام، بل حفاظاً على رضاه، وصورته ضمن محيطه، لكنه حافظ طوال فترة صداقته مع يم على خيط رفيع لم يبادر إلى قطعه حين كانت شكوكه تزداد بـ يم، وبذات الوقت لم يترك الحبل على الغارب حين كان يتعامل معه وفق الظاهر، ولو كان يم حيًا لحافظَ جهاد على هذا الخيط واستبعدَ أن يكون مثليّ الجنس، حتى بعد فضيحته أمام أصدقائه، لأن إنساناً تربطك به صداقة تدوم عدَّة أشهر ليس من المقبول أن تكون جاهلاً عنه هذا الأمر، خاصة أمام ما كان يتبعه يم من سلوكيات مُريبة، لكن إنْ تمَّتْ مواجهةُ جهاد بالرفض المطلق من محيطه باستمرار صداقته مع يم لكنتَ رأيته يقطع أواصر تلك الصداقة، لذا أفسِّرُ استمرارية جهاد في صداقته بـ يم كانت بمسك

بك ضرر أكبر .. "

وبدأتِ الصفعاتُ تَنهالُ عليَّ من كل من يمر بي، نادوني بـ "اللوطي" و "الشاذ" ومنهم من كان يقول لي "طبجي ولاد" .

المكان الذي جعلوني أنزوي به لا تتجاوز مساحته مِتراً مربعاً واحداً، تفوحُ فيه رائحة البول المقزّزة، لكن رغم ذلك أجبرتُ نفسي على تَقبُّلِ المكان، ولم تستطع جدرانه القميئة والكئيبة منعي من التحليق، والتأمل، والتفكير، وبعد محاولات عديدة، نجحتُ في خَلْقِ حالة فصلٍ بين المكان الذي ضمَّ جسدي وما راقتْ له روحي من فضاء مفتوح .

استطاع باسم التواصل مع والد الشاب الذي تقدَّمَ بالشكوى، أخبرهُ الرجلُ بأنَّ شخصاً في الحي اسمه عماد هو من حَرَّضه على تقديمها بحقي والادعاء عليّ، لكن عماد هذا .. اختفى فيما بعد، علمتُ من باسم أنه استطاع إقناعَ والدِ الشاب بسحب شكواه، خاصة أن نتيجة فحص الطبيب الشرعي كانت تؤكد عدم وجود حالة اعتداء جنسي على الشاب أو أية محاولة من هذا النوع، احترتُ في الأمر، لماذا يستمرّون في توقيفي إذن ؟!! أُحيلتِ القضيةُ إلى المحكمة المختصَّة، أخبرني باسم فيما بعد أنه دفع مائة ألف ليرة ولا أعرف لِمَ دفع هذا المبلغ ولمن، لكن ما أضرَّ بي هو اعترافي بالمثلية وتقرير الطبيب الشرعي، فصدر الحكمُ ضِدّي بتهمةِ ارتكاب الفعل المنافي للحشمة وذلك بحبسي مدة ثلاثة أشهر، وتم ترحيلي إلى السجن المركزي بعدرا .

- آمل ألا يُساء فَهمَ الهدف من البرنامج، الهدف نبيل، ولأجل الإنسان، كما قلتَ أنت المثليّ إنسانٌ كباقي خَلْقِ الله، هذه قناعتي أيضاً، لن أقتربَ من موضوع الشذوذ الجنسي حتى بالألفاظ، هناك الكثير ممن يعتبر أن المثلية شأن خاص وحرية شخصية، فليكن البرنامج دعوة إلى ترجمة هذا الوعي بشكل عملي في واقعنا، لستُ بصددِ الدفاع عن هذه الفئة كما أني لستُ ضدَّها، لكن ما تعانيه يجب إبرازه وما ترتكبه يجب أن يُقوَّم، إنها فئة مسحوقة في المجتمع، وأرى المجتمع غارقاً فيها حتى أذنيه، وكما هي تَعجُّ بالمتناقضات، فالمجتمع أيضاً أَعتبرهُ سبباً لهذه المتناقضات وخالِقاً لها ومُرسِّخها، والرقابة ليست من كوكب آخر، بل ربما تجد منهم من هو مثليّ أيضاً، فكيف أفهم من كان مثلياً ويرفض طرح الموضوع بصدق وهو حامل لهدف نبيل ؟!! .

- أشكرك قيصر على صِدْقِكَ وتوضيحاتك لي بشأن برنامجك، لَيتَهُم يُدركون أنَّ مِنْ ضِمْنِ أسبابِ وجودِنا هُمْ أنفسهم، ولكن أخبرني .. ما هو عنوان برنامجك ؟

- ستريتش .

فجأة .. تراءى لي طيف يم، وقد رفع إبهامه وضمَّ أصابعه الأخرى في إشارة لتأييدي، أتكون روحُ يم حاضرة ؟!! كان أدونيس يلوِّحُ بأصابعه أمام وجهي وهو يقول مُبتسِماً :

- أين غبت ؟ أسألك فيما إذا كنت تتابع نشاطات الشبكة ؟

ردَّني أدونيس إليه .. طلبتُ منه أن يعيد ما قال، وحين استجاب، كانت روح يم تودِّعني مُطمئنَّةً فأُجبتُ أدونيس :

- كان يم يُطلِعني على تفاصيل عملكم ونشاطاتكم .
- الآن حان دوري إذن لأطلعك عليها أولاً بأول .
- هذا ما أنتظره منك أدونيس العزيز ..

بعد سفر أدونيس، تقدَّمَ لخطبة جوليا، وجرتِ المراسمُ ضمن نطاق الأهل فقط مراعاة لذوي الشهداء من أقارب الطرفين واحتراماً لأرواحهم، بعدما عَجّتْ بيوت الساحل السوري بصور الشهداء، وانحصر لباس أغلب نساء البحر باللون الأسود .

(٢٨)

أسامة .. من جديد

بريدي الإلكتروني يكاد ينفجر من كثرة الرسائل الواردة إلي لانقطاعي عن مراجعته مُذْ سافرتُ إلى اللاذقية قُبيل موت يم، لكن ما إنْ وقعتْ عيناي على رسالةَ أسامة حتى سارعتُ بفتحِها وقد استعادتْ ذاكرتي فوراً جلستنا حين جاء برفقة يم بعد الحفل الذي أُقيمَ بمناسبة ارتباط مِثليَين .

انهمرَ دمعي لحظةَ رأيتُ صورةً مُرفقةً برسالةِ أسامة، التقطَها لنا يم، وأخرى جمعتنا ثلاثتنا أثناء خروجهما من بيتي، كان جاري يصعد نحو شقته، فطلبتُ منه أنْ يلتقطَ صورةً تجمعُنا ثلاثتنا أمام باب البيت .

أتراها ذاكرةُ الموتِ بمنأى عن الموت نفسه، وتمنح من يعيشها مدى للقادم من الأيام ؟ أترى رَمادهُ يُخفي جَمرَها النائم فلا موتَ يُفقِدُها رَجْعَ الصدى والأنين ؟ إنه الحنين .. يَأبى أنْ يُفقدَها القُدرةَ على مُعاندةِ ولوجِ الحزنِ في الطين، هيَ بَوحٌ .. يَرفضُهُ الوعيُ، فتراهُ يُغلِقُ منافذَ السُمِ الموضوعِ على ثَغرِ الصخرة والقنبلة والسكين، هي تذكرةُ سفرٍ .. مُولعة بالانتظار، يحرقها شغفُ قلبٍ في آخرِ لحظة من عُمْرِ السنين .

مسحتُ دمعي، وشرعتُ أقرأ رسالة أسامة، راجياً أن تحمل الأخبار الجيدة والمفرحة .

" أستاذ قيصر .. تحية طيبة :

ستكون رسالتي طويلة، أرجو ألا أسبّبَ لكَ الملل وأُرهِق عينيك، لكنني بحاجة لأن أتحدث إليك .

لقد وردتني رسالة يم منذ فترة، طالباً مني أن أراسلك، كنتُ مُنشغِلاً ولم يتسنَّ لي قراءتها إلا البارحة، ومنذ تلك اللحظة وأنا أفكر، هل أُخبِرُكَ بما حدثَ معي لأجل برنامجك أم لأجلي أنا ؟! عقدت العزم على الكتابة إليك بصرف النظر عن الهدف، فلقد لمستُ فيض إنسانيتك منذ التقيتُ بك، وهذا ما يعنيني الآن، أما برنامجك .. فلا أدري إن كان ما سأخبرك به مُثمراً أم لا .

أستاذ قيصر .. هل تذكر عندما أخبرتُ يم وكنتَ حاضِراً عن اليافعَين اللذين قَدِما إلى بيتي وطلبا مني ممارسة الجنس معهما ؟ أخبرتُ بذلك يم قبيل انصرافنا من بيتك .

كل ما جرى بعد ذلك لم أخبر به أحداً من أصدقائي حتى هذه اللحظة، باستثناء صديقي الحميم باسم، الذي ساندني ووقف إلى جانبي في كل ما مرَّ بي، لم أشأ إخبار يم بأموري ولم أكن أستطيع إخباره بكل الأحوال، باسم لم يتركني وحيداً بكل ما جرى بعدها .

- لماذا فكَّرتَ أن تسألني عن جهاد بشكل خاص ؟

- جهاد من أعزِّ أصدقائي، وأعلمُ مستوى تفكيره ونظرته لـ يم .

- تَعرَّفتُ على جهاد قُبيل وفاة يم، ولن أستطيع إجابتك على سؤالك، كونه صديقك يمكنك معرفة ذلك .

- كانت لدى جهاد إشارات استفهام كثيرة وتحفُّظاتٍ محددة حول سلوكيات يم .

- هل كان يعلم بمثلية يم ؟

- لم يكن مُتأكِّدًا، ولم يرغب الخوض في هذا الشأن، على الرغم من أن جهاد واقعٌ تحت سطوة المجتمع وأحكامه، ليس إيماناً منه بصواب وصحّة كل تلك الأحكام، بل حفاظاً على رضاه، وصورته ضمن محيطه، لكنه حافظ طوال فترة صداقته مع يم على خيط رفيع لم يبادر إلى قطعه حين كانت شكوكه تزداد بـ يم، وبذات الوقت لم يترك الحبل على الغارب حين كان يتعامل معه وفق الظاهر، ولو كان يم حيًّا لحافظَ جهاد على هذا الخيط واستبعدَ أن يكون مثليّ الجنس، حتى بعد فضيحته أمام أصدقائه، لأن إنساناً تربطك به صداقة تدوم عدَّة أشهر ليس من المقبول أن تكون جاهلاً عنه هذا الأمر، خاصة أمام ما كان يتبعه يم من سلوكيات مُريبة، لكن إنْ تمَّتْ مواجهةُ جهاد بالرفض المطلق من محيطه باستمرار صداقته مع يم لكنتَ رأيته يقطع أواصر تلك الصداقة، لذا أفتِترُ استمرارية جهاد في صداقته بـ يم كانت بمسك

بك ضرر أكبر .. "

وبدأتِ الصفعاتُ تَنهالُ عليَّ من كل من يمر بي، نادوني بـ "اللوطي" و "الشاذ" ومنهم من كان يقول لي "طبجي ولاد" .

المكان الذي جعلوني أنزوي به لا تتجاوز مساحته مِتراً مربعاً واحداً، تفوحُ فيه رائحة البول المقزِّزة، لكن رغم ذلك أجبرتُ نفسي على تَقبُّلِ المكان، ولم تستطع جدرانه القميئة والكئيبة منعي من التحليق، والتأمل، والتفكير، وبعد محاولات عديدة، نجحتُ في خَلْقِ حالة فصلٍ بين المكان الذي ضمَّ جسدي وما راقتْ له روحي من فضاء مفتوح .

استطاع باسم التواصل مع والد الشاب الذي تقدَّمَ بالشكوى، أخبرهُ الرجلُ بأنَّ شخصاً في الحي اسمه عماد هو من حَرَّضه على تقديمها بحقي والادعاء عليّ، لكن عماد هذا .. اختفى فيما بعد، علمتُ من باسم أنه استطاع إقناعَ والدِ الشاب بسحب شكواه، خاصة أن نتيجة فحص الطبيب الشرعي كانت تؤكد عدم وجود حالة اعتداء جنسي على الشاب أو أية محاولة من هذا النوع، احترتُ في الأمر، لماذا يستمرّون في توقيفي إذن ؟!! أُحيلتِ القضيةُ إلى المحكمة المختصَّة، أخبرني باسم فيما بعد أنه دفع مائة ألف ليرة ولا أعرف لِمَ دفع هذا المبلغ ولمن، لكن ما أضرَّ بي هو اعترافي بالمثلية وتقرير الطبيب الشرعي، فصدر الحكمُ ضِدّي بتهمةِ ارتكاب الفعل المنافي للحشمة وذلك بحبسي مدة ثلاثة أشهر، وتم ترحيلي إلى السجن المركزي بعدرا .

وهناك .. وُضِعتُ في المهجع السابع المخصص لمرتكبي جرائم الاغتصاب والدعارة وكل ما يمتُّ إلى الجنس بصلة، فور دخولي المهجع حاول السجناء فرض أوامرهم عليّ، وحين علموا بجرمي ساقوني عنوةً إلى كبيرهم الذي يتحكّمُ بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ، أخبرني أنه يتوجّبُ عليّ الاختيار، إما الخضوع له وممارسة الجنس معه أو دفع إتاوة له، رفضتُ أنْ أخضعَ لسلطانه، وبِتُّ أدفعُ المال الذي كان باسم يمدُّني به في كل زيارة لأُرضي من هو في الداخل، كنتُ أنامُ على الأرض محشوراً بين الأسرّة الموجودة، إلى أن أخبرني أحدهم أنني في حال رغبتُ بالنوم على سرير، وَجَبَ عليّ دفع مبلغ من المال، إن أردتُ الاستحمام أدفع، إن أردتُ الأكل أدفع .

ثلاثة أشهر مَرَّتْ حَسِبتُها دَهْراً، رغم قدرتي على التأقلم إلا أن الانفرادية في مخفر الشرطة كانت أفضل حالاً، حاولَ السجناء استمالتي وإغوائي لممارسة الجنس، هناك .. ترى الشذوذ بعينه، من يختار أحد الرجال يكون زوجةً له بحق، حتى أنَّ أحدهم كان يمنع زوجته (رجل) من رؤية أحد وهو من يجلب لها الطعام، زوجةٌ بكل معنى الكلمة ووَقْفٌ عليه وحده .

كنتُ قبل أن أتعرَّضَ لهذه المحنة قد باشرتُ بمراسلة المنظمة العالمية لحقوق الإنسان بهدف الهجرة إلى أميركا، كلجوءٍ إنساني باعتباري مثليّ الجنس، وقد أعلمتُهم لاحقاً بما جرى عن طريق صديقي باسم الذي أخبرهم

بكل ما أتعرَّضُ له، كمحاولةٍ لتخليصي من هذا الشرِّ الذي وَقعتُ في جُبِّه، وكانوا دائماً يقولون له : إن قانون الدولة أقوى من أحكامهم وسياساتهم في التعامل مع هذه القضايا، إلى أن مضتْ الأشهر الثلاثة وحان موعد ترحيلي إلى بلدي العراق، جاهدتُ كيلا يُعيدونني إلى هناك، وطالبتُ المنظمةَ بترحيلي إلى أميركا، لكنهم أكَّدوا على وجوب توجُّهي إلى العراق أولاً ومن ثم إلى بيروت ومنها إلى أميركا، سارعَ باسم بدفع تكلفة السفر بالطائرة لأن السفر البري يتطلب انتظاري في سورية حتى يكتمل العدد لمن يتوجب ترحليهم، سبعةٌ من البشريين يجب أن يُساقوا معي، وكيفَ لي أن أنتظرَ أكثر مما أمضيته وتعرَّضتُ له ؟!! سدَّدَ باسم تكاليف السفر في الطائرة وسافرت إلى أن وصلت أميركا ..... ما رأيك أستاذ قيصر ؟

انتهت رسالة أسامة، لم أستطع الرد مباشرة على رسالته، أغلقتُ صندوق بريدي. ونبتُ أطرقُ أبوابَ التأمُّل .

(٢٩)

تلقَّيتُ اتصالاً من ألما صباح يوم عيد ميلادي، بعد رسالةٍ وردتني منها ترجوني فيها بأن تسمع صوتي لتهنِّئني وتبارك لي باقتراب تقديم برنامجي الجديد بعد بثِّ الإعلان عنه .

لا أنكرُ أني اشتقتُ لسماعِ صوتِها أيضاً، على الرغم من انشغالي ومن كثرة الأحداث التي مرَّتْ فآلمتني وقهرتني وتسبَّبتْ ببُعدي عنها أيضاً، فضلاً عن معاقبتها بالغياب، كان صوتُها رَخواً كعادته، وكانتْ روحُها ترقصُ فرحاً لحظةَ سماعِها صوتي .

اتفقنا على اللقاء عصر اليوم نفسه بعدما أصرَّتْ على الاحتفال بعيد ميلادي، كانت روحي هائمةً في هَيولى الأرواح الباكية على سورية، الحزن أحكمَ قبضتَهُ على ابتسامةِ الشمع، لهدية العيد غلافٌ من كفن أبيض .

اتصل بي جهاد ليخبرني بأن الشرطة ألقتِ القبضَ مُجدَّداً على خالد أثناء محاولته التسلُّلِ للهرب باتجاه بيروت .

أثلجَ صدري بهذا الخبر، ومن ثم زَفَّ إليَّ خبر المولود القادم، أخيراً وبعد سبعة أعوام مرَّتْ على زواجه سيصبحُ جهاد أباً، باركتُ له والغبطة

تكاد تحلِّقُ بي في الفضاء، مُخفِّفةً من ثِقَلِ الحزن في روحي .. قلتُ له :

• هلا والله بأبي قيصر .

ضحك جهاد كثيراً وسمعته يقول لزوجته بما سمَّيتُ طفلَه القادم، سارع ليخبرني بما قالت زوجته :

• هالة تقول : سيكون قيصر، وإنْ كانت طفلة سوف نُسمّيها أوغاريت .. فما رأيك ؟

سررتُ من أعماقِ قلبي، قبَّلتُ جهاد بكلماتٍ أرسلتُها لتلامسَ روحه :

• مُبارَكٌ ما سيرزقكم الله به إن شاءَ وأراد، لقد أسعدتني والله بهذا الخبر يا جهاد .. عفواً يا أبا قيصر .

• وأنت ؟ متى سنفرح بك ؟

• قريباً إن شاء الله، ستكون أول من أخبره بالأمر، ولووووو يجب أن يعلم قيصر الصغير بالفرحة الكبيرة

• بارك الله بك صديقي ..

كنتُ صفحةً بيضاءَ أمام ألما، لم أكذب عليها قط، ولم أمارس ضدَّها الاستغلال العاطفي أو غيره .

ما تعرَّضتُ له حينما كنتُ صغيراً لم يلوِّث البياض، ولم أردّه بسلوكي تجاه الآخرين، كنتُ اكتشفتُ من خلال مجريات الأحداث التي مرَّت،

أنَّ القدرةَ على تقويمِ المرءِ لسلوكه كفيلٌ بجعلِهِ بَعيداً عمّا لا يريدُ الغوصَ فيه، وأنَّ الإرادةَ الحيَّةَ في جعل ذلك النور الذي يَنبضُ حيّاً في أبعدِ نقطة من الرُّوحِ التي تشاركُ الجسد وجوده، قادرةٌ على إتمامِ الحياةِ بسلامٍ داخلي بعيداً عن التسليمِ الساذَجِ بالقوانين الأساسية للطبيعة بل بالتفكُّر في محتواها دون السماح لأيِّ طاقةٍ سلبيةٍ من الولوج إلى النفس ومنها إلى الروح، ليكونَ الجسدُ أداةً طيّعةً لا تعصى مُحرّكه بأبسط حركة وإلا كان المِخرَزُ يثقبُ عينَ الرُّوح قبلَ أنْ يتجرّأَ على قميص الجسد، إن كان من ساتان أو باشمينا أو كشمير .

أيقنتُ أن مُتطلباتِ الجسدِ لا يمكن استيعابَها دونما إدراكٍ لذاكَ الوميض المشعّ وتنمية الإحساس به لتجاوز الخفقات المزوَّرة التي تَلِجُ القلوب، لابد من فَكِّ الشيفرةِ الرقمية المحفورة على جسد الرغبة لتَعقُّب المتغيّرات المستَحدثة عبر السنين المنقضية من عمر الإنسان ومَحوها وجعلها من ماضٍ سحيقٍ لا يمتُّ إلى اللحظة الراهنة بصلة، لضمان تعقُّبٍ حي ومستمر لعمر اللحظة وجعلها بمأمنٍ وحرزٍ من تشكُّل التصبُّغات الشكلية الكاشفة لمدى تأثير الوهم على النفس لتجنُّبِ اعتلالها ووقوعها ضحيةً لنوازع الذات البشرية نحو الشر وتفشّيه على امتداد الزمن المُعاش في جسد ما فُطر عليه الإنسان، ضمانٌ على تأكيدِ بَعْثِ الإنسان خالياً من شوائب الشهوة وأدران اللذّة التي يُوهِمُ نفسه أنه وصل إليها وأوصلته بدورها إلى ذروةِ الإحساس بالمتعة، ليتأكّدَ له أنَّ الزيف منه هو إن تمكّنَ واستطال، لا من ظروفٍ مُساعِدة أو مُحرّضةٍ على اختراقِ الغَفلةِ لنفسٍ

صاحبها، أو أي سبب آخر يجعله حياً وإن اندثر .

الأبيض في صفحة حياتي لم يكن خالياً من حبر، طالما استخدمتُ الحبرَ لأرسمَ من الكلمات حياة، فيها اللغة قادرة على خلق ألوان واضحة المعالم، وإن كنتُ أكتبها بسوادٍ صِرْف، فالحياة فيها الكثير، لكن لابد من توطين الروح في فضاء أبعد من كوكب الأرض وأقرب من نَسْجِ النبض .

اتصل بي المحامي ليخبرني أن إجراءات المخالعة مع روزالين تمَّتْ وانتهت، طلبتُ منه أن يكون حاضراً لدى استلام روزالين لمتاعها الشخصي .

كانت ألما قد أخبرتني برسالة خلال فترة انقطاعي عنها باتفاقها مع حازم على الاستمرار معه لقاء قبولها بعرضه المغري كما وصفته لي، بشرائه مَسكناً لها وقيدهِ باسمِها ضَماناً لأي لوثة قد يُصاب بها مستقبلاً .

تحدَّثتُ إلى ألما فور لقائنا، عن البياض، وما اختلط فيه، وما استدعى أفكاري بعدها، أنَّبتني على لغتي العصيّة على الفهم، مُندَهِشة من مفرداتها، مُتسائِلة عن القصد من نُطْقِها .

ضحكتُ .. ضحكتُ وقلتُ لها :

- لا أقصدُ شيئاً يا ألما .. ربما كنتُ أهذي .
- لا تقل لي ذلك، يجب أن أدرك قصدك .

- لا عليكِ، التفتي إلى حياتك مع حازم وإلى مشاريع أحلامك ربما تحققينها يوماً ما .
- ألم أخبرك بأنني انتقلتُ إلى بيتي الذي اشتراه لي حازم ؟
- لا لم تخبريني .. متى انتقلتم ولماذا ؟
- منذ شهر تقريباً، بعدما دخل المسلحون المعضمية، واستولوا على بيوت فيها، خشيتُ على أولادي، وبتنا في خطر مقيم، خرجتُ كما خرجتْ عائلات كثيرة من المنطقة وأقمتُ في بيتي الجديد .
- الحمد لله أنكم بخير .
- فقدنا الكثير من أصحابنا وجيراننا خلال الفترة الماضية، منهم من قضى بتفجير، ومنهم من استُهدِفَ بقنصٍ أو تمَّ خطفه، منهم مَنْ هجرَ منزله لامتناعه عن مساعدة الإرهابيين الذين سَطوا على بيوت الهاربين من بطشهم مُحوّلين جدرانها الداخلية إلى كوّات مفتوحة على بعضها البعض لتهريب الأسلحة والذخائر وتحضير العبوات الناسفة والمتفجرات، ولينتقلوا بين البيوت بسهولة لاصطياد عناصر الجيش السوري، قيصر .. إلى متى سنبقى على هذا الحال ؟
- المشكلة في تَورُّطِ الكثيرين ممن اعتقدنا أنهم أبناء بلد، سواء من بقي منهم في الداخل أم هؤلاء الذين خرجوا منها ويمارسون الإرهاب الفكري والتحريض بكل صوره، تَورَّطوا في الخطاب

المتطرف بذرائع واهية، وهم في حالة فصام كبيرة أو ثأر شخصي دفعتْ معظمهم إلى عدم التمييز بين النظام والبلد، المأساة كبيرة وأصابع الاتهام تتوجه بوضوح إلى الغرب والرجعية العربية والجماعات المتطرِفة، ليس ثمة من يعلم يا ألما متى ستنتهي هذه الحرب وكيف .. رغم إيماننا وثقتنا بقوة الجيش السوري إلا أنهم كالشياطين يزدادون عدداً وعتاداً ولا أظن أن الأمور سَوف تُحلُّ بسهولة، بِتنا خَراباً في بلد منكوب ونحن قابَ قوسين من الموت، ومن هو حي فقد مات أو كاد يموت من سطوة الخراب وآلة القتل الهمجية .

- لا أصدِّق أننا في سورية، كثيراً ما أحسب نفسي في أفغانستان أو في العراق، على ذكر العراق .. ما أخبار صديقك شهيد ؟

استغربتُ سؤالها عن شهيد، أحيتْ بسؤالها ما سبق أن استنكرتُه منها فابتعدتُ، أجبتُ باختصار :

- سيهاجر إلى كندا .

لحظتئذ .. تَلقَّيتُ اتصالاً من أدونيس، لم أتمكَّن من سماعه جيداً فشبكة الاتصالات سيئة للغاية، بدا مُضَّطرباً وكأنه يبكي، أخبرتهُ أني سأعاود الاتصال به فور وصولي إلى البيت .

حين همَمنا بالخروج من الكافيتريا، كدتُ أصطدمُ بشابٍ لحظةَ ولوجهِ المكان، رنوتُ إليه وأنا أعتذر، فعرفته. كان ينظرُ نحو ألما بكلِّيته فلم يكترث

لما تلفَّظتُ به، بدا مَشدوهاً بوجود ألما برفقتي، هل يعرفها ؟ إنه مثلي الجنس ويضعُ قِرطاً في أذنه اليمنى، كان يم قد حدَّثني عنه، اضطربتْ ألما لدى رؤيته، وقفا وجهاً لوجه، أدركتُ ما كان يشغلها أثناء مُعاقبتي لها بالغياب، لكن لم أتوقع أنها ستختار من هو ذائع الصيت في المجتمع، أي مصادفة رائعة تلك !! غادرتُ المكان تاركاً ورائي ناراً مُستعِرة .

حين حَدَّثتُ أدونيس، صُعقتُ بخبر اختطاف جوليا، تم ذلك حينما رافقتْ صديقتها إلى قريتها، هُوجِمتْ عدة قرى من ريف اللاذقية من قبل الإرهابيين فقضوا على رجالاتها قَتْلاً وذَبْحاً وتَنكيلاً وخطفوا نساءَها وأطفالها إلى تركيا .

أدونيس يبكي بكاءً مُرّاً على جوليا، وليس بيده فعل شيء ..

لم أستطع تهدئته، فالمُصاب أكبر من أن تخفف الكلمات منه .

ها هي ذي الحرية التي نادى بها من نادى، نتائج الإرهاب تقضي على السوريين أنّى كانوا، لا أحد بمنأى عن الخطر، والوطن يُذبح كل يوم بانتهاك حرمة البشر فيه .

حَدَّثتني القرى والغارُ عِطر أرواح من غاب عنها، نادتني لكي ألملمها من بين الحطام، برضا حَدَّثتني كأنَّ الألم زال، أجثو مُضمَّخاً بأقاصيص تُتلى لتحيي ذاكرة الروح، تلوبُ نظراتي بحثاً عن زاويةٍ تمتصُّ فيها الدمع، لا عزاء، لا حياة بعد الرحيل، وجوهٌ تسكنني، وتعود الذكريات لتُلقي بي في

بيتٍ من دخان ونار، أين أنتم الآن ؟ أين صباحاتِكم النديّة ؟ أين ضحكات العيون .. وابتسامات الرضا أُرهِقَتْ بتراتيل الرحيل ؟

أفتحُ نافذةَ النهار لتسأل الروحُ قوافل الرحيل عودتهم، تسأل قوافي الروح رجوعهم، والجمرُ محفوف بمخاطر المدى، أسيرُ وما مِنْ خُطى ترسم ملامح اللقاء، أُغلِقُ بابَ الحياة على وداعهم وأُمعِنُ في تفاصيلهم، لأهتدي لنور أرواحهم

استيقظتُ صبيحة اليوم التالي وخرجتُ قاصداً مقرَّ الإذاعة، طيفُ جوليا ما فارقني لحَظة مُذْ سمعتُ خبر اختطافها .

عندما اتخذتُ مكاني وراء المقود، وأَدرْتُهُ .. . لم أدرِ ما حدث لحظتئذ .

(٣٠)

دويٌّ انفجار .. هذا آخر ما وعيتُ حدوثه .

استهدافٌ مباشرٌ بعبوةٍ ناسفةٍ وُضِعَتْ تحتَ السيارة .

خيالاتٌ تظهرُ وتغيب أمامي، أصوات أسمعُها بضعَ لحظات وتنقطع عني، أكاد أفقد أي تواصل مع المحيط، لم أَمُتْ .. ما زلتُ على قيد الوطن الجريح روحاً تتوق إلى نصره .

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا طريح الفراش في المستشفى، من حولي أهلي والأصدقاء، أستعيدُ وعيي للحظات لأقع من جديد في غيبوبة مُمِضَّة، فقدتُ ساقيَّ إثر التفجير، هذا ما استطعت معرفته في حمأة أوجاعي، موسيقى الوداع تتردَّدُ في ساحة المستشفى حيث أرقد، لا أدري في أيِّ مستشفى أنا، ومن يتم تشييعه في هذه اللحظات، سيكون لديَّ مُتَّسعٌ من الوقتِ لأفكِّرَ في أمور كثيرة، سوف أرتِّبُ حياتي وفقاً لما آل إليه جسدي، ولن أفقدَ الأمل، لن أفقدَهُ فهذا ما يريدونه منا ولنا، ولن يُحقِّقوا مُرادَهم، سوف أجعلُ الأملَ يَمطُّ ظِلَّهُ ليشكِّلَ لي ساقين أسيرُ بهما، ربما أصبح التحليق الآن أسهل .

أتماوجُ كنسمةٍ تعلو البحرَ بقليل بين اليقظة والمنام، تراءى لي سعد الله ونوس، الكاتب المسرحي الفذّ، عادتْ بي الذاكرة إلى يوم وفاته، الخامس عشر من أيار سنة ١٩٩٧ أثناء تأديتي لدورة الاختصاص في الخدمة الإلزامية، أذكرُ ليلةَ وفاته تماماً، حيث كنتُ أمضي نَوبتي في الحراسة، كنتُ أرنو إلى السماء فجرَ ذلك اليوم ودمشق ساحرة بهيّة كعادتها، تَنبّهتُ إلى سقوط شهب من السماء، لا أدري حينها لِمَ انقضَّ عليَّ إحساسٌ غريب دفعني للتساؤل عمَّن ماتَ لحظتها وفارق الحياة، وفي صبيحة اليوم نفسه سمعتُ خبر غياب سعد الله ونوس عن الحياة، كانت درجة الحرارة يومئذ مرتفعة وقد تم تشييعه إلى مثواه الأخير ظهيرة اليوم تحت شمس حارقة، تَنبّهتُ إلى ذلك، حيث دوَّنَ في كتابه " عن الذاكرة والموت " :

" وعلى كل كانت دائماً أبشع صور الموت بالنسبة لي، جنازة تتجه إلى المقبرة وقت الظهيرة، وفي يوم صيفي شديد القيظ " .

لماذا حدثَ ما كَرِهَ حدوثه ؟

غاب طيفُ ونوس ليحضرني ممدوح عدوان، ومن ثم ليظهر بقوة طيف الفنان نضال سيجري، استعادت ذاكرتي لحظة وقفتُ على قبره بعد تشييعه مباشرة وقد انهمر دمعي وكلماته تتردَّدُ في أذني حتى أتتْ على صخب الكون فأنصتَ لها وانصاعتِ النجومُ لندائه :

" وطني مجروح وأنا أنزف، خانتني حنجرتي فاقتلعتها، أرجوكم لا تخونوا وطنكم " .

تساءلتُ بحرقة : لماذا يهجم مرض السرطان على أولئك الذين لم يدعهم القدر يكملون مشاريعهم ؟ .

شريط الذكريات يظهر أمامي، تُعادُ فيه أبهى لحظات عمري، تقتحمها صور أخرى يتداخل فيها الدم، وفي تواتر الصور ومرورها .. رأيتُ أدونيس، مرتدياً اللباس العسكري، ابتسمتُ .. ابتسمتُ وقلتُ مُطمْئِناً روحي :

ليس مهماً ما جرى، لن يحشروني في زاوية عهرهم، لن يهزموا جرأتي الزرقاء، سأنهض، لابد أن أنهض، لأقبّلَ جدائل الشمس، وأرسم على تجاعيد القمر تضاريس أحلامي، الفكرة وجود، وأنا في عمقها موجود، اقترابي من الموت منحني بُعداً آخر للحياة، لأحياها من جديد .

من بين الصور التي تتراءى أمامي، رأيتُ هبة الله، حاضرة إلى جانبي، هالة من نورٍ تحيط بها، تبدو جليَّة كالشمس، لم تكن طيفاً لحظةَ شعرتُ بلمسةٍ تنسابُ من أصابعها على جبيني، ابتسامتها رقيقة كالأزرق عندما كان مَوْجَهُ يُغازِلُ قلبي، عيناي لا تُخطِئان الرؤية الآن، بدتْ كالملاك أمامي، أسبلتُ ومن ثم دقَّقتُ النظر، هبة الله .. إنها هي وعلى جِيدِها وشاح من الياسمينا الزهري، ابتسمتُ لها حين أرختْ سبَّابتها فوق شفتي، قبَّلتُها .. وغفوت .

قراءات نقدية

(1)

رواية ستريتش

قراءة في زيف القيم وصدق اللغة

«إلى المستائين

انظروا إلى مراياكم..

الغضب وحده لا يكفي».

رواية «ستريتش» هي التجربة الروائية الأولى للشاعر والأديب نضال كرم الذي صدر له سابقًا العديد من الدواوين الشعرية، ومجموعة قصصية، وكتاب مقالات. ولقد أبحر المؤلف في روايته في بحرٍ عاصف.. عالم المثلية الجنسية؛ محاولاً أن يجعل هذا الموضوع الشائك مدخلاً للحديث عن نواقص المجتمع العربي الشرقي بكل ما فيه عن ازدواجيةِ قيمٍ

ومبادئ.. حيث تُعبّر الرواية بوضوحٍ عن الأزمة الحقيقية في التصورات الذهنية التي يتمثلها مجتمعٌ يَدَّعي التزامه بالأخلاق القويمة، في حين أنه يَهوي من الداخل، وتدعو الرواية المجتمع العربي المغلق ليفتح نوافذه ويواجه مشكلاته بجدّية، وأن يستمع إلى المهمَّشين والمنبوذين. وهكذا فقد نظر المؤلف إلى المثلية في ضوء سياق النقص العام والأمراض المتفشية في المجتمع، كالشك والزيف والكذب والخداع والكراهية والنفاق.

وقد حاول المؤلف إيجاد تفسيرات لهذه الحالة (المثلية)، ما بين تفسيرات اجتماعية أو نفسية:

«بانت على وجهه كآبة حاصرته فانداحت أغنية المرارة العميقة في نفسه، قال: أمضيتُ سني عمري بعزلة إرادية، كانت غرفتي مذ كنت طفلاً صغيرًا، كهفًا رخوًا تسكنه ظلال أجساد غجرية، استسلمتُ لرائحة عطر أول جسد رجولي انقضَّ على ما كنتُ أتفنن في صنعه من رؤى وخيالات، غرز ما برعتُ فيه من خلق صور، فارضًا واقع الدمع والدم، في غرفتي المعزولة كانت الفتنة والغواية «ألف باء اللعبة» هكذا اكتشفتُها، كانت لحظات عاصفة قلبت كياني رأسًا على عقب، بطلُها خيالي الجامح الذي التقى بصديقٍ افتراضي فأغواه، ومع الأيام كانت الآهات كالأثلام تحفر جدار الغرفة المطلة على الشارع؛ لأمضي قسطًا من الليل برفقة جسدٍ فاتنٍ رأيته نهارًا فأستسلم لفحولته وأنكبّ على وجهي فوق السرير وأجتر التأوهات..»

«هذا أنا يا قيصر، حاولت، لكن لم أنجح في كبح ما اعتدتُ أن أكون عليه، هذا تكويني، لا شك أنني تأثرت مذ كنت صغيرًا بصحبتي للفتيات وبوجودهن حولي دائمًا، افتقدتُ وجود الرجل في مراحل كثيرة من عمري، حتى في المدرسة لم يكن لديَّ أصدقاء، كنت أمضي الوقت كيفما اتفق، وهذا كله أثر في تكويني الداخلي».

وقد وضحت المطالب المشروعة للمثليين من المجتمع الشرقي العربي جليةً في قول الكاتب:

«المشكلة يا صديقي تكمن في طريقة تعاطي المجتمع مع كل ما يتصل بشؤون أفراده، قل لي بالله عليك لماذا يتمنع المجتمع عن النظر في أمراضه؟ ألم يحن الوقت بعدُ لمواجهة كل ما من شأنه أن يوسع الجراح ويعمق وجودها؟ ما الذي يمنع من إظهار أمراضه السرطانية على السطح والشروع في معالجتها بدلاً من تركها تنتشر بصورة مفجعة؟ مادامت تنسلُ في الخفاء، لماذا لا نواجهها في العلن ونجد طرق الحد من تضخمها وما يثار حولها؟ تلك الأسئلة وغيرها ربما تثيرها أنت في برنامجك ولكن السؤال الكبير: هل ستجد إجابة عليها وتفاعلاً مع ما سوف تطرحه؟»

ويقول في موضع آخر:

«الواقع يؤكد أنه ليس بمقدور أحد إنكار وجودنا، إن كان محدودًا ومقيدًا أم منفلتًا وحرًا، تمامًا كما اللباسُ المطاطي الذي يرتديه من يريد الغوص في أعماق البحار، لكن العبرة في تناول الموضوع إن كان يتم في

السر أم في العلن، ألا يرتدي البعض منا «الستريتش» ليأخذ الجسد حدوده الطبيعية؟»

ولا شك أن الفقرة السابقة أبانت عن معنى عنوان الرواية الملغز، وقد كان الراوي صادقًا في نقل تفاصيل هذا العالم بما له وما عليه دونما مواربة:

«جُلتُ بين صفحات المشتركين لأطلع على محتوياتها، منهم من كشف شخصيته ونشر صوره دونما وَجَل، ومنهم من تخفَّى مكتفيًا بإبراز أجزاء من جسد أراد التركيز عليها لإغواء زائري الموقع.

تعريةٌ لكل كبت بين أفراد هذا المجتمع، فضح وكشف لكل ما يجهدون في إخفائه ضمن الحياة الواقعية، بقدر ما هو عالم افتراضي.. يبدو أنه أشد واقعية مما نراه بأمِّ الأعين على خشبة مسرح الحياة!!

استوقفتني بعضُ الصفحات لروادٍ أعضاء كتبوا في صفحاتهم عباراتٍ يندَى لها الجبينُ خجلاً واستنكارًا من الدونية والانحطاط الأخلاقي، وعبارات أخرى منمقة منتقاة بعناية وبودٍ ظاهر، أتُراهم صادقون فيما كتبوا أم أنهم عابثون أرادوا الوصول لغاياتهم فقط؟».

وقد امتلأت الرواية بالصراع بين المثليين والمجتمع الزائف الرافض لهم: «أنتم مملون، تظنون أنكم تحسنون التستر عما تقترفونه وكل من تجدونه ضعيفاً تجعلونه مطية لكي تخفوا موبقات ما ترتكبون، ادخل أيها الصديق إلى مواقعكم أيضاً وصف لي ما ستجده فيها، فضائح مكومة كالجثث

المهشمة، يبدو أنك تحيا في كوكب آخر ولست على دراية بحال المجتمع الذي تنتمي إليه، في مجتمعك أيها الإعلامي الخبير أزمة كبيرة وخطيرة لا بل تعدت الأزمة منذ زمن طويل وباتت حرباً ضروساً هي حرب أخلاق، المجتمع ينهار من حولكم و أنتم تهاجموننا، المجتمع يتواطأ بصمته، يفقد قيمة، يغرق في أتون الرذيلة، وأنتم تجهرون بالطهر، وفي السر لا شيء إلا العهر، تتشدقون وتتنطعون وتتبجحون بما يثبت استعلائكم علينا ... أزمتنا أزمة أخلاق يا سيدي».

وكان لتقنية المراسلة (عبر الفيس بوك) دورٌ بالغ الأهمية في الاختباء وراءها وقول كل شيء بحريةٍ. فمثلاً رسالة (يم) لقيصر عن تعرفه إلى (أدونيس) وعلاقتهما المثلية صاغها المؤلف في رقةٍ متناهية وكأنما يرسم لوحة إنسانية مترامية الأطراف متسعة اتساع الكون الفسيح:

«في اللقاء الأول، كان البحر يمتد أمام ناظري حتى حدود الجنة، الشاطئ الرملي بدا محرضاً قويا على ملامسة نبضه المتسرب حتى شراييني، الموج المنتشي بدفء أشعة الشمس شجع الزبد على التقافز والرقص على إيقاع قلبي المشرق، حالة توحد غريبة مع هذا البحر الذي أعشق تسرب إلى كياني، الرابض فوق صخرة، إحساساً مشبعاً بامتلاك الكون. نظراتي شاردة فيما وراء المنظور، طمأنينة تشيع في نفسي المحلقة مع السابح في سماء شفيفة. كاد المنتجع يخلو من أي زائر، لكن ما دعاني للقدوم هو من جلس إلى جانبي وشاركني متعة اللحظة، كنت أرنو إلى عينيه فأجدهما بحراً آخر».

وبخصوص الشخوص داخل الرواية، فإن ثمة شخصية محورية إلى جانب شخصية (يم) وهي شخصية (قيصر):

«عدتُ إلى طفولة حزني على امتداد عمر بكل لحظاته، ساعاته، نهاراته ولياليه، وجدت طفلاً نديًا ما إن تفتحت عيناه على نور الحياة حتى أحرق الراشدون أجنحة فراشاته، ولج سكون العتمة، والصمت لغته، أرهقت الطفولة بعصيان حسبته أهرق البياض جاعلاً من السواد لونًا وحيدًا لفضاءاتي، احتكمتُ إلى من يسكن ذاتي، وقبعت في السواد المحيط ببياض روح تتوق إلى نور بهي، لم أكن لأرضى يومًا عما يعتمل في داخلي، صور مشوهة ووجع يخيط من الآهة حكاية رفض لمصير بحيمي، كومةٌ من التناقضات في عقل يأبى التسليم لأقفال تمنعه عن محاولة التخلص من خيوط أحزان نكاتفت على فتلبسّتني ومنعت عني إحساس بالطفولة، ما كنتُ أحسب أن العمر محدود بما هو آني، بل كنت تواقًا للحظات الانفراد بنفسي لأحلق في حيوات لي مضت، جائحة الهوى مدرة لولادات عسيرة تفيض معها أطياف أحلام كانت المخلص لما تشكلت بذرته مبكرًا، كبحتها إرادةٌ صلبة من الظهور، لامسها فقر جعل من اليابس وجبة يومية، أبٌ غائب عن أولاده، أمٌّ قوية، قادرة على مسك زمام الأمور، والطفل البكر يستسلم لتراكيب صور يبدعها بخياله الخصب، يرتكب بها ما يجعله ثابتًا تطيعه الحياة المتحولة، كثيرًا ما كان يتمتم حين يختلي بنفسه بماء يسفح الجنون ليحيا اليقين، يحيا في مرتع الظنون ليكتشف ذاته والكون».

وقد اختصرت مقولة جابرييل جارثيا مركيز- التي اقتبسها الكاتب- تكوين شخصية (قيصر):

«اكتشفت أنني لست منضبطًا بدافع الفضيلة وإنما كرد فعلٍ على تهاوني وتقصيري، وأنني أبدو سخيًا لكي أواري خستي، وأنني أتظاهر بالتعقل والحذر لأنني سيئ الظنون، وأنني أميل إلى المصالحة كيلا أنقاد لنوبات غضبي المكبوحة، وأنني دقيق في مواعيدي لمجرد ألا يُعرف مدى استهانتي بوقت الآخرين، واكتشفت أخيرًا أن الحب ليس حالة روح وإنما هو علاقة بروج فلكية».

وهي الشخصية التي انبرت تدافع عن (يم/ المثلي) ضاربةً بالأعراف عرض الحائط، ومتحملةً ردود أفعال المجتمع ضدها. فـ «قيصر» الذي استطاع أن ينجو من واقعة تحرش بطفولته وأعاد التوازن لحياته، جعله مؤهلاً ليفهم حيثيات هذا العالم المثلي وخاصة أنه الضحية التي تجاوزت محنتها، فتحولت تجربتها إلى مصدرٍ للثقة لتخوض هذا العالم وهي على ثقة بأنها قادرة على التعامل مع سكان هذا العالم.

أما عالم الصداقة بكل وشائجه وعلاقاته فمطروح بكل تفصيلاته داخل الرواية: (هبه الله (شاعرة) - ألما (صديقة) وتكره زوجها- روزالين (زوجته)- شهيد (صديق)- يمّ (الشاذ) صحفي- أدونيس (صديق) أسامة (مثلي) وحبيب (يم) السابق. وقد صبغت الأسماء بدلالاتها الشخصيات التي تحملها، وهو ما قَصَد إليه المؤلفُ قصدًا. واتسمت شخصيات الرواية

باستثناء (قيصر) بالغموض والتقوقع في إطار الأصدقاء المقربين والتعامل مع بقية المجتمع بحذر وتوجس.

وكان للعناصر النسائية دورٌ بظهورها الفاتر من وقت لآخر لضمان إيجاد حالة اتزان في قبول هؤلاء الذكور ذوي الميول الأنثوية حتى لا يكون الأمر صادمًا للمتلقي العربي. ويلاحظ ظهور الشخصيات الأنثوية في إطار الصداقة، حيث نجحت أكثر من كونها زوجات، وتفهمت طلبات المثليين، بل وقدمت لهم يد العون في بعض الأوقات.

ومفهوم الأنوثة عند الكاتب ليس مفهومًا فسيولوجيًا يرتبط بالنوع أو الجسد الملتهب سخونةً وشهوةً، وإنما يرتبط بروح الأنوثة (الحب - الصدق - الحنان - الاحتواء - التأثير - اللطف - الرقة). وقد عرض المؤلف لكيف تنظر المرأة للرجل المثلي خاصةً لو كانت تحبه.

أما لغة الرواية فاتسمت ببلاغة عالية ورقة، ولم تجنح بالرغم من إشكالية الموضوع المتناول إلى البذاءة، بل نجح المؤلف في كثير من الأحيان في طرح العلاقة بين المثليين في رقةٍ إنسانيةٍ غير معهودة:

«بانت على وجهه كآبة حاصرته فانداحت أغنية المرارة العميقة في نفسه، قال: أمضيتُ سني عمري بعزلة إرادية، كانت غرفتي مذ كنت طفلاً صغيرًا، كهفًا رخوًا تسكنه ظلال أجساد غجرية، استسلمتُ لرائحة عطر أول جسد رجولي انقضَّ على ما كنتُ أتفنن في صنعه من رؤى وخيالات، غرز ما برعتُ فيه من خلق صور، فارضًا واقع الدمع والدم، في

غرفتي المعزولة كانت الفتنة والغواية «ألف باء اللعبة» هكذا اكتشفتُها، كانت لحظات عاصفة قلبت كياني رأسًا على عقب، بطلُها خيالي الجامح الذي التقى بصديقٍ افتراضي فأغواه، ومع الأيام كانت الآهات كالأثلام تحفر جدار الغرفة المطلة على الشارع، لأمضى قسطًا من الليل برفقة جسدٍ فاتنٍ رأيته نهارًا فأستسلم لفحولته وأنكبّ على وجهي فوق السرير وأجتر التأوهات..».

واللغة في الرواية مقصودة لذاتها إلى جانب كونها وسيلة تواصل وبيان، وقد رسخ ذلك المفهوم حالة المخاتلة اللغوية التي يستخدمها المؤلف في محاولة إيجاد حالة اتزان بين الموضوع المعروض بإشكالياته المتنوعة ومراعاة المتلقي العربي بخلفيته الدينية والفكرية والاجتماعية. أما اللهجة السورية فتطل برأسها من وقتٍ لآخر. وكان لبعض الألفاظ دلالات خاصة لدى المؤلف، فمفهوم (البياض والأبيض) عنده هو أصل الحياة وصورتها البكر الأولى، حيث الصفاء والنقاء.

. وقد نجح المؤلف ببراعة في أن ينقلنا عبر الحوار بين (قيصر) و (يم) إلى عالم الحب بين المثليين، محاولاً إضفاء أجواء إنسانية رقيقة على الحوارات وسمح المؤلف لنفسه في بداية الرواية بأن يسترسل في الوصف والاستماع إلى المثليين وأمورهم حتى يتيح الفرصة كاملة للقارئ للتعرف إلى أكثركم من حياة هؤلاء، ثم ما لبث في وسط الرواية أن أوجد الصراع إيجاداً بأن بدأ حرباً كبيرة ضد هذا العالم، ما أجّج الصراع في الرواية، وقد ساعده في هذا تعاظم المعلومات السرية التي اطلع عليها وشاهدها في هذا العالم.

ومع أن السرد المعرفي (المعلوماتي) موظف جيدًا في بعض الأحيان، فإننا نراه في مواضع أخرى يقتحم مزاحمًا الحدث ومشوشًا المنظور الكلي للصورة:

«مجددًا ... قال يم:

إننا نعتقد أن العالم المتحضر بلغته وثقافته يستمد في جزء لا بأس به من حضارته تلك، الحضارةَ السورية العريقة، لاحظ في الأجزاء الثمانية لهاري بوتر، تم استخدام طائر العنقاء (الفينيق) وعبروا فيه عن أهم طائر مخلوق من نار، وكما تعلم فإن طائر الفينقيق وفق الأسطورة المعروفة هو طائر سوري فينيقي تم استخدامه من قبل مؤلفة سلسلة هاري بوتر على أنه طائر من إبداعها، حتى أنه يُلفظ باللغة الإنكليزية :فينكس.

تألقت روح هبة الأوغاريتية مع ابتسامة ساحرة على محياها حين أتبعت بالقول:

أوغاريت ليست مدينة واحدة، إنما هي سبع مدن تموضعت فوق بعضها البعض، لكن نتيجة ثوران بركان جبل الأقرع، ماتت المدينة وقامت من الموت سبع مرات، وفي كل مرة كانت تنتفض لتعود إلى الحياة كطائر الفينيق، يموت وينهض من جديد، وهي بذلك تحقق الأسطورة المتعلقة بطائر الفينيق، ولا تزال بعض الكلمات في لهجتنا اليوم مستمدة من اللغة الأوغاريتية الأصلية كقول العامة: « أيْ ليه..» وتعني «يا أيها الإله إيل» التي تطلق كمناجاةٍ له، وإذا دققنا قليلاً نجد أن المدينة الأخيرة التي

نهضت من موتها لتتجدد الحياة فيها لم تمت نتيجة ثوران هذه البركان، إنما نتيجة هجمات شعوب البحر المجهولين؛ ما أدى إلى انهيار المدينة وموتها تدريجيًا، ولا تزال الكثير من الشواهد باقية على عظمة هذه المدينة كبوابةِ القصر الملكي إضافة إلى الأكروبول (أي معبد الإله دجن والإله بعل)».

أثارني ما يقوله الشباب المتحمس، طرحت سؤالاً جول اللغة الأوغاريتية، فأجابني أدونيس:

أثار تحليل اللغة الأوغاريتية الخلاف بين الباحثين، حيث تم الكشف والتوصل لاحقًا إلى أنها لا تنتمي إلى أي من مجموعة اللغات السامية المعروفة قبلها، فجزء من هذه اللغة يصنف ضمن الفرع الشمالي الغربي في اللغات السامية، وبعضها يلائم فروعًا أخرى، ما أكد على أنها لغة قائمة بحد ذاتها، وتم التصديق بعد ذلك من خلال اكتشاف الرقيم الذي يحمل الأبجدية الأقدم في التاريخ.

أردفت هبة بالقول:

وقد أتى الشاعر اليوناني هوميروس في إلياذته على ذكر الصناعات والأواني في أوغاريت (لا توجد آنية أخرى تنافسها في جمالها)».

وفي أول التلث الأخير للرواية يلاحظ رغبة المؤلف في الاستطراد في الوصف والتفاصيل الخاصة بحياة المثليين ومواقفهم وردود أفعالهم تجاه بعضهم متغافلاً عن فنيات الرواية ومدى عمق الحكي ودوره في دفع عجلة

الأحداث أو إبراز النواحي الإنسانية التي سبق أن ظهرت جليةً في الثلثين الأولين من الرواية. وكان من الممكن أن تنتهي الرواية عند هذا الحد. إلا أن الراوي أثقل الرواية في ثلثها الأخير بمقحمات سردية وتفاصيل حكائية عن الحرب والانقسامات الاجتماعية.

وقد جاءت نهاية الرواية خطابية ومباشرة وتحولت عبر خمس صفحات إلى محاضرة في علم النفس الاجتماعي في أسباب وكيفية مواجهة المثلية مجتمعيًا، وفي نشوء وتاريخية المثليين. بالإضافة إلى خمس صفحات أخرى تمثل رسالة تصلح أن تكون في مقالة صحفية عن كيفية معاملة المثليين أمنيًا وشرطيًا، ومعاناتهم جراء ذلك. وكأننا أمام قصة حقيقية ابتعدت خلالها اللغة الفنية الرقيقة وظهرت لغة صحفية تقريرية جافة.

لم يظهر الزمان في الرواية من حيث التطور والتحرك إلا في لحظات التذكر والحكي؛ متخذًا ما يحدث في سوريا خلفية زمنية. أما المكان فقد أدى دورًا كبيرًا في إضفاء معاني الرقة التي احتاجها المؤلف ليؤكد على المعاني الإنسانية في حياة هؤلاء المثليين:

«الليلُ في آخره، وقد بثت روحي للبحر أغلب وجعها، استشعرت حدثًا سوف يقلب وجهة الريح، كنت مسترخيًا على رمل الشاطئ وهدير الموج يعزف سيمفونية تلامس الوجدان، أضواءٌ خافتة تتأرجح وسط البحر على مسافة قريبة، علقت في قوارب تضم صيادين عقدوا الأمل بصيد وفير، الصمتُ لغة المتحفز الصابر والمنتظر، وددت أن أمزق الصمت

بموسيقى تهدهد إحساسي على هدى الموج، بعدما جذبت قوارب الذكريات القديمة، ثبت في أذني سماعة جوالي وتركت للأذن الأخرى أن تنصت لعزف الموج، البحر استوى أمامي متوجًا بطقس إلهٍ يبوح بأسراره لي، النجومُ تراقص القمر بطفولة متدثرة بابتسامة، سكينةٌ تحرض مرجًا من حروف التوق لتستسلم لبياض النفس وتترك الأثر، كتبتُ على ورقة صغيرة: « ها أنا ... قد بعثر الوردُ نداه على شفتي، فتلقَّفْها أيها البحر».

ويقول في موضعٍ تالٍ:

«على الرمل الفتيّ استلقيتُ، وكانت رواية الليل تُتلَى على مسامع الكون، فغفوتُ».

ويقول: «ولجنا الشقة ونحن نضحك على رهاننا بهذا الشأن، أحسست بالدفء والشاعرية في أركان البيت، نظافةٌ ملفتة، لمساتٌ فنية واضحة في تنفيذ الديكور وتوزيع الأثاث واختياره، صورٌ جمعت يم مع مشاهير كثر، وزعها بأناقة على جدارين متقابلين، لوحاتٌ فنية مستغرقة بالذكورة البوهيمية، توسطتها لوحةٌ لأنثى عارية منتصبة، وعند قدمها خنجر ملوث بالدم، استوقفتني لوحةٌ أبقى على بياض قماشتها، أثارت فضولي، التفتُ لأرى (يم) متجهًا نحوي، ابتسم وقد فاجأني حين قال: «هذا أنا .. لا تستغرب».

ويقول أيضًا: «لم تعد رفاهية المكان الواضحة تعنيني، ما استهواني .. الأبيض، والأزرق البحر.. ذاك الحبيب الذي لا يفارق النظر أني اتجهت في أرجاء البيت، حين واجهته لم أعد مهتمًا بما يحيط بي، باستثناء اللوحة التي أصرَّ (يم) على تقديمها لي هدية.

وقفت أتأمل سحر البحر وبهاء حضوره، اكتمل المشهد بعزفٍ ممتعٍ من (يم) على البيانو، كانت سهرة في غاية الروعة ..في حضرة البحر».

وفي موضعٍ آخر يكون المكان شريكًا للغة في رسم لوحة حزينة:

«لماذا اخترت البحر ليكون الحاضن لجسدك بإيلام؟ ليتك تركت للموج حكاياته دونك، انكسر ماؤك آنَ عجَّتْ به فجواتُ الصخر، نزيفُ ظلك رسم وجهَك على دفتر البحر، غبارُ الخطوة الأخيرة يوسع المدى.. نافذةٌ على قلبي، وابتسامتك.. بجعةٌ تهوي الريح، حمَّلتَ القمرَ كراسَ الذنوب، وغبتَ وراء الشمس بعد تصديها لغواية الريح، تركت للكون صمتًا لتجاعيد الضحكات ولونًا لصخب الذكريات، يم .. قاسمتُكَ رغيف حزنك، فأحرقتَه وعجَّلتَ الرحيل».

وأخيرًا، فإن تجربة قراءة هذه الرواية الرائعة لهي تجربة فريدة، أما لغة الرواية البليغة فقد استحقت صفة الصدق؛ إذ تمرَّدتْ- من غيرِ ابتذالٍ- على نظرة المجتمع المزدوجة الزائفة.

د. مدحت عيسى

ناقد وباحث لغوي مصري

(2)

الأليغوريا في رواية ستريتش
الفضاء النفسي للرواية

ستة أشهر هي الفترة التي يشعر «قيصر» بأنها كافية لإنهاء زواجه من روزالين، وستة أشهر هي الفترة التي يحددها قيصر لنفسه كي ينتهي من التحضير لإذاعة برنامج جاد عن الشواذ في سوريا .. هل كانت صدفة من الكاتب أم أن الكاتب انتبه للاوعي لدى قيصر؟ ..

الأليغوريا في الأدب بمعنى الكشف عن دلالة تعمَّد الكاتب دسها في طيَّات نصه، دون أن يستشعر القاريء أي إقحام غير مبرر في سياق الحكي، تعود الكلمة إلى أصل لاتيني بمعنى الكلام الآخر. الكلام الآخر بمعنى أن الراوي يمنحنا فضاءً بديلاً، مظهرًا آخر يتمثل في دلالة

أخلاقية أو نفسية أو دينية أو سياسية لكل ما قدَّمه لنا، فالكلام الأول هو المسرح والإطار الذي يُنشيء فيه الكاتب حيوات شخوصه، يعالج بسلاسة فكرة الزمن والمكان، أما النص أو الحوار الذي سيدور فيما بعد فما هو إلا مفتتح لفضاء آخر ومظهر آخر من الحكي، بكل ما يحمله من دلالات.. هنا سأحاول أن أسلط الضوء على الدلالة النفسية التي برع نضال كرم في التعبير عنها، وذلك بالبدء بتساؤل يُعد مدخلاً.. إلى أي مدى يمكن أن نعترف ببطولة قيصر داخل السرد الروائي لستريتش؟ بمعنى هل كان حضور قيصر مجرد نافذة يطل من خلالها البطل الحقيقي «يم» أم علينا أن نعترف أن قيصر هو الحكاية الأم، وما «يم» إلا انعكاسًا لقيصر؟

يظهر الغموض الأول في حكاية قيصر في المبرر الذي يحاول أن يُخضع من خلاله عقولنا لتقبل فكرة انفصاله عن روزالين.. الكذب. ومَن منا لا يكذب؟ ورغم فداحة فكرة الانفصال وقِصر مدة ارتباطه - مجرد ستة أشهر - إلا أن قيصر يرى أن الكذب كان الدافع الأصيل في نفوره من روزالين.. جاءت كلمات قيصر غاضبة عنيفة ورغم رقة اللغة التي تعانقنا على لسان قيصر طيلة السرد إلا أنها فيما يخص روزالين تبدو قاطعة ومشينة لأبعد حد.. يقول قيصر في وصفه لحياته مع روزالين:

"أي غشٍ وقعت في جُبّه المظلم بعدما بان الفراغ العقلي كشمس ممتلئة بعتمٍ مفضوح، بدا الحوار مع روزالين أشبه بصياح الديك، خواءٌ فكريٌ

أملس، وصمتٌ أخرق يجعل من عينيها مغارتين يطفح منهما رماد الغباء."
إنه يمقت روزالين إذا ما تحدثت أو صمتت، فالحديث جدب والصمت حريق ورماد غباء!

في النهاية يجد قيصر مبررًا أخلاقيًا لرفض روزالين، يحاول أن يُبعد عن نفسه شبهة نفوره من روزالين لسببٍ خفي، إنها تكذب! يقول لنا في سياق اعترافه القصدي:

"الكذب استعمر مكان روزالين في الصورة فاستحال سوادًا، سكن في بؤرة أتت على تفاصيلها، فأحلتها مِزَقًا بين يديّ."
هنا يواجه قيصر واقعًا مرفوضًا لإسباب غامضة، واقع زواجه من امرأة، هنا يحاول أن يجدد لنا مبررات مُربِكة، فمرة نجده ينتقد صوتها المرتفع كالديك في حوارها معه ومرة نجده ينتقد صمتها ومرة نجدة يطعن في الحوار ذاته .. إنه كذب.

هذه هي المرحلة الأولى التي يمر بها قيصر، مرحلة التوهُّم، إنه يحاول أن يُقيم علاقة منطقية بين رفضه الفطري أو الصادر من الأعماق؛ ربما من الطفولة وبين نفوره من روزالين. في هذه المرحلة يصف لنا قيصر حالة مزيفة من الأحاسيس، يمنطق تخليه عن روزالين، التي برع نضال كرم في إخفاء صوتها من البداية، فالرواية لا تحمل مشهدًا واحدًا لهذه الأنثى والزوجة الصفر، التي لا تملك روحًا أو مهارة واحدة من مهارات الحب.

المرحلة الثانية التي يتهيأ لها قيصر هي «الميلاد» .. بحث قيصر عن ميلاد ثانٍ والتفت الناقد باسم سليمان لدلالة اسم «قيصر» هنا، الميلاد المشوَّه.

يقول باسم سليمان: (فالمدلول لاسم قيصر يأخذنا للشخص الذي وُلد بغير الطريق الطبيعي.)

الميلاد الثاني قدّم له نضال كرم بشاعرية عميقة فانفتح على كل الأطر، شخوصه وأمكنته وقيصر.. نجد حديث عن ميلاد البشرية والإقحام السردي الجميل عن اللغة الأولى والنوتة الموسيقية الأولى، وعن فكرة إحياء التراث والحديث عن سوريا، هنا ارتبط ميلاد قيصر الجديد بميلاد الأمكنة، بهذا يُشكِّل لنا نضال كرم اللاوعي عند بطله، فنجد ظهور أصدقاء جدد في حياة قيصر؛ يم وهبة الله وأدونيس. يأتي ظهور يم طبيعيًا ولا نكتشف هذه الحاجة الخفية لدى قيصر لدخوله لعالم الشواذ إلا مع تطور الأحداث والعلاقة العميقة التي تنشأ بين قيصر ويم، ورغم الارتباك والصراع الداخلي الذي يعانيه قيصر في تعاطيه مع يم إلا أن اللاوعي يتكشف لدى قيصر في مراحل متأخرة حين يجد نفسه يقف مدافعًا عن يم في الحدث الذي وصفه لنا د.مدحت عيسى بأنه الفورة المفاجئة التي أدت إلى تشظي الأحداث وتسارعها حين يفتضح أمر يم والتمهيد للحدث الأعظم «موت يم".

لا يعترف لنا قيصر بما يجذبه لهذا العالم ويترك لنا فراغًا منطقيًا، وهي النقطة التي مازال يُقاوم فيها البوح بدوافعه الأصيلة وبطولته المطلقة في هذا السرد العبقري لنضال، وكما برر لنا رفضه لروزالين بدعوى زائفة، يحاول إقناعنا بهدوء أن عمله كمقدم برامج بالإذاعة يحتم عليه اقتفاء الأثر والتمادي في دخول عالم يدَّعي أنه يعرفه للمرة الأولى. يتم استبدال الأدوار بمهارة ويحيلنا نضال لشخصية جديدة «يم» ويسترسل يم في البوح وكأنه يقف على حافة اللاوعي لدى قيصر، وكأنه فطن للصراع الداخلي لديه، يحكي له عن عالمه وعالم الشواذ، يصطحبه لإحدى حفلاتهم، يرتد قيصر دون أن يدري لماضيه. في محاضرة ألقاها لنا د.على عسكر أشار لهذه المرحلة بدقة مرحلة بزوغ اللاوعي، هذه هي المرحلة الثالثة التي يجد قيصر نفسه فيها.

أعد «يم» ببراعة مسرحًا لخطابة صادمة للاوعي عند قيصر، هذه الردة للدوافع الأولى عند قيصر لا تظهر في صورة حلم وإنما في إثارة عبقرية أجاد نضال رصدها في مشاهدة قيصر لعرض مسرحي، تنهمر الموسيقى وتنتشل روح قيصر وتعيده حيث البراءة الأولى والحكاية الأولى.. يقول نضال واصفًا قيصر في ردته الهادئة للبدايات: "ضبطُ الإيقاع المتواصل كان كفيلاً بنقله من خشبة المسرح هذه إلى بيته في ذلك الحي المضطرب على أطراف المدينة التي هوجمت من قبل رجال مدججين بالسلاح في ليل حالك ترك لفجر اليوم التالي الأحمر القاني هذيةً للجدران، شهادة حية لزفرات عانقت النجيع لتترك بُقعًا في الروح لم

يستطع الزمن إزالتها، طائر القلق يحوم بحزنٍ فوق رأسه"

"جحظت عينا الحقيقة في ومضةٍ رقَّت لها عيون الحاضرين فصاغت من البكاء وشاحًا"

"انتفاضة روح والظل مغشيٌ عليه والجسد بااااارد"
"نبأ عن ولادة جديدة بارتعاش صوت لوليد انزلق للتو"هنا نعود بالنص لمعنى القبلات والدم في حياة قيصر، بدأ فرويد حكايته بالقبلات وأنهاها بميولنا للحياة وميولنا للموت، القبلات والدم. في مشهدين يمكننا تفسير هذا الوجع الذي أدى إلى اختفاء قيصر بعد مشاهدته العرض.

المشهد الأول ردته القديمة لطفولته، حيث القبلات التي حفرت أبجدية الألم في صفحته البيضاء:

"لم يكن مقبولاً أن أنصت لبكائي، لابد من عمل أؤديه لأشبع الأفواه المفتوحة، اشتغلت في فرن، وتلوَّث جسدي بطحينٍ وقبلات لم يتبعها صراخ"
المشهد الثاني الذي جسَّد الرغبة الغير مفهومة عند قيصر للتعرف أكثر على يم، مشهد دخوله الأول لبيت يم:

"ولجنا الشقة ونحن نضحك على رهاننا بهذا الشأن، أحسست بالدفء والشاعرية في أركان البيت، نظافة ملفتة، لمسات فنية واضحة في تنفيذ الديكور وتوزيع الأثاث واختياره، صور جمعت يم مع مشاهير

كُتُر، وزَّعها بأناقة على جدارين متقابلين، لوحات فنية مستغرقة بالذكورة البوهيمية، توسطتها لوحة لأنثى عارية منتصبة وعند قدمها خنجر ملوَّث، استوقفتني لوحة أبقى على بياض قماشتها، أثارت فضولي، التفتُّ لأرى يم متجهًا نحوي، ابتسم وقد فاجئني حين قال: «هذا أنا .. لا تستغرب». هنا تنساب لغة قيصر في رقة وحساسية عميقة، إنه يرى يم انعكاسًا لبراءة فقدها في طفولته أو ربما انتزعت منه انتزاعًا فجاءت قبلاتها بلا صراخ.

هنا يحاول نضال أن يفتت لنا صراعات قيصر، يموت يم ويقف قيصر عند ناصية روحه..

ماذا حدث؟

هل حقًا كان يهرب من كذب روزالين؟

العالم كله يكذب يا صديقي، هكذا ترسو روح قيصر وقد استحالت لوحةً بيضاء كتلك التي جسدت صورة يم

في المعرفة الأولى، واللقاء الأقرب للروح، لقاء اللاوعي. بموت يم يدخل قيصر مرحلته الأخيرة، لقد أزاح المرآة بعيدًا، ما عاد في حاجة إليها، العالم كله يم، العالم كله قتيل أقنعته المزيفة..

في رسالة طويلة من أدونيس وفي اعتراف أكاديمي لقيصر في نهاية الرواية تتم صياغة الشفاء بمهارة، فيبدو قيصر مستسلمًا للمنطق مدركًا لولادته التي جاءت عصيَّة.

هنا نرفع القبعة لنضال الذي كان دقيقًا في اختياره لمدة زمانية واحدة منذ البداية ليلفت انتباهنا لأن ثَمَّ ما يخفيه القيصر، وأن «إعرف نفسك» هي في الحقيقة أصعب ما قيل لنا في الفلسفة ..

د. سالم إبراهيم سالم

كاتب و عضو الجمعية المصرية للتحليل النفسي

رقم الايداع / ١٠٨٠١ /٢٠١٥ ط٣
الترقيم الدولى / ٤ - ٧٦ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨



"أيقنت أن متطلبات الجسد لا يمكن استيعابها دونما إدراك لذاك الوميض المشع وتنمية الإحساس به لتجاوز الخفقات المزورة التي تلج القلوب، لابد من فك الشيفرة الرقمية المحفورة على جسد الرغبة لتعقب المتغيرات المستحدثة عبر السنين المنقضية من عمر الإنسان ومحوها وجعلها من ماض سحيق لا يمت إلى اللحظة الراهنة بصلة، لضمان تعقب حي ومستمر لعمر اللحظة وجعلها بمأمن وحرز من تشكل التصبغات الشكلية الكاشفة لمدى تأثير الوهم على النفس لتجنب اعتلالها ووقوعها ضحية لنوازع الذات البشرية نحو الشر وتفشيه على امتداد الزمن المعاش في جسد ما فطر عليه الإنسان، ضمان على تأكيد بعث الإنسان خالياً من شوائب الشهوة و أدران اللذة التي يوهم نفسه أنه وصل إليها و أوصلته بدورها إلى ذروة الإحساس بالمتعة، ليتأكد له أن الزيف منه هو إن تمكن واستطال، لا من ظروف مساعدة أو محرضة على اختراق الغفلة لنفس صاحبها، أو أي سبب آخر يجعله حياً وإن اندثر"



